الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

الزمخشري

العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود في رجب عام 467 هـ / 1074م والمتوفي ليلة عرفة عام 538 هـ/ 1143م

المجلد السابع

تتمة سورة الرعد

في كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتي الإمام. وكان متقلبا في أيدى أولئك الأعلام المحتاطين في دين اللّه المهيمنين عليه لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصا عن القانون الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي عليها البناء ، وهذه واللّه فرية ما فيها مرية. ويجوز أن يتعلق أَنْ لَوْ يَشاءُ بآمنوا ، على : أولم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا ولهداهم تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارِعَةٌ داهية تقرعهم بما يحل اللّه بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم أَوْ تَحُلُّ القارعة قَرِيباً منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شرارها ، ويتعدى إليهم شرورها حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ وهو موتهم ، أو القيامة. وقيل : ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة ، لأنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان لا يزال يبعث السرايا «1» فتغير حول مكة وتختطف منهم ، وتصيب من مواشيهم. أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك ، كما حل بالحديبية ، حتى يأتى وعد اللّه وهو فتح مكة ، وكان اللّه قد وعده ذلك.

[سورة الرعد (13) : آية 32]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (32)

الإملاء : الإمهال ، وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن ، كالبهيمة يملى لها في المرعى وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. استهزاء به وتسلية له.

[سورة الرعد (13) : الآيات 33 إلى 34]

أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (34)

أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ احتجاج عليهم في إشراكهم باللّه ، يعنى أفا اللّه الذي هو قائم رقيب عَلى كُلِّ نَفْسٍ صالحة أو طالحة بِما كَسَبَتْ يعلم خيره وشره ، ويعدّ لكل جزاءه ،

(1). قلت : هو موجود في المغازي لابن اسحق. والواقدي ، وطبقات ابن سعد في عدة سرايا منها سرية زيد ابن حارثة ليلقى عير قريش ، وسرية على الحر بن سعد بن بكر وغيرهما.

كمن ليس كذلك. ويجوز أن يقدّر ما يقع خبراً للمبتدإ ويعطف عليه وجعلوا ، وتمثيله : أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه وَجَعَلُوا له وهو اللّه الذي يستحق العبادة وحده شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أى جعلتم له شركاء فسموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم ، ثم قال : أَمْ تُنَبِّئُونَهُ على أم المنقطعة ، كقولك للرجل : قل لي من زيد أم هو أقل من أن يعرف ، ومعناه : بل أتنبؤونه بشركاء «1» لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض ، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم ، والمراد نفى أن يكون له شركاء. ونحوه : قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كقوله ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ ، ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة «2» التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق : أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه ، فتبارك اللّه أحسن الخالقين. وقرئ «أ تنبئونه» بالتخفيف مَكْرُهُمْ كيدهم للإسلام بشركهم وَصُدُّوا قرئ بالحركات الثلاث. وقرأ ابن أبى إسحاق : وصدّ بالتنوين وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ومن يخذله لعلمه أنه لا يهتدى فَما لَهُ مِنْ هادٍ فما له من أحد يقدر على هدايته لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وهو ما ينالهم من القتل والأسر وسائر

[سورة الرعد (13) : آية 35]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (35)

مَثَلُ الْجَنَّةِ صفتها التي هي في غرابة المثل ، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف على مذهب سيبويه ، أى فيما قصصناه عليكم مثل الجنة. وقال غيره : الخبر تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كما تقول : صفة زيد أسمر. وقال الزجاج : معناه مثل الجنة تجرى من تحتها الأنهار ، على حذف الموصوف تمثيلا لما غاب عنا بما نشاهد. وقرأ على رضى اللّه عنه : أمثال الجنة ، على الجمع ،

(1). قال محمود : «معناه بل أتنبئونه بشركاء ... الخ» قال أحمد : وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء ، وأن اللّه لا يعلمهم كذلك ، لأنهم ليسوا كذلك وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها اللّه ، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة ، ولكن مجيء النفي على هذا السنن المتلو بديع ، لا تكنه بلاغته وبراعته ، ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان : وجعلوا للّه شركاء وما هم بشركاء ، فلم يكن بهذا الموقع التي اقتضته التلاوة.

(2). عاد كلامه. قال : «و هذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها ... الخ» قال أحمد : هذه الخاتمة كلمة حق أراد بها باطلا ، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن فتنبه لها ، وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه وهو غافل عما تحته ، لولا هذا التنبيه والإيقاظ ، واللّه أعلم.

أى صفاتها أُكُلُها دائِمٌ كقوله لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ وَظِلُّها دائم لا ينسخ ، كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

[سورة الرعد (13) : آية 36]

وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (36)

وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يريد من أسلم من اليهود ، كعبد اللّه بن سلام وكعب وأصحابهما ، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا : أربعون بنجران ، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة ، وثمانية من أهل اليمن ، هؤلاء يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ يعنى ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف وأصحابه ، والسيد والعاقب أسقفى نجران وأشياعهما مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني هو ثابت في كتبهم غير محرف ، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام ونعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وغير ذلك مما حرّفوه وبدّلوه من الشرائع. فإن قلت : كيف اتصل قوله قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ بما قبله؟

قلت : هو جواب للمنكرين معناه : قل إنما أمرت فيما أنزل إلىّ بأن أعبد اللّه ولا أشرك به.

فإنكاركم له إنكار لعبادة اللّه وتوحيده فانظروا ما ذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة اللّه وأن لا يشرك به قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وقرأ نافع في رواية أبى خليد : ولا أشرك بالرفع على الاستئناف كأنه قال : وأنا أشرك به ويجوز أن يكون في موضع الحال على معنى : أمرت أن أعبد اللّه غير مشرك به. إِلَيْهِ أَدْعُوا خصوصاً لا أدعو إلى غيره وَإِلَيْهِ لا إلى غيره مرجعي ، وأنتم تقولون مثل ذلك ، فلا معنى لإنكاركم.

[سورة الرعد (13) : آية 37]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ (37)

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة اللّه وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه ، والإنذار بدار الجزاء حُكْماً عَرَبِيًّا حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ، وانتصابه على الحال. كانوا يدعون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى أمور يوافقهم عليها منها أن يصلى إلى قبلتهم بعد ما حوّله اللّه عنها ، فقيل له : لئن تابعتهم

وهذا من باب الإلهاب والتهييج ، والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه ، وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من شدّة الشكيمة بمكان.

[سورة الرعد (13) : الآيات 38 إلى 39]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (39)

كانوا يعيبونه بالزواج والولاد ، كما كانوا يقولون : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، وكانوا يقترحون عليه الآيات، وينكرون النسخ. فقيل : كان الرسل قبله بشراً مثله ذوى أزواج وذرية. وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم ولا يأتون بما يقترح عليهم ، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات ، فلكل وقت حكم يكتب على العباد ، أى : يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ ينسخ ما يستصوب نسخه ، ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته ، أو يتركه غير منسوخ ، وقيل : يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة ، لأنهم مأمورون بكتبة كل قول وفعل وَيُثْبِتُ عيره. وقيل. يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة ، ويثبت إيمانهم وطاعتهم. وقيل : يمحو بعض الخلائق ويثبت بعضاً من الأناسى وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها ، والكلام في نحو هذا واسع المجال وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ ، لأنّ كل كائن مكتوب فيه. وقرئ : ويثبت.

[سورة الرعد (13) : آية 40]

وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (40)

وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم. أو توفيناك قبل ذلك، فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب ، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم ، فلا يهمنك إعراضهم، ولا تستعجل بعذابهم.

[سورة الرعد (13) : آية 41]

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (41)

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ أرض الكفر نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها بما نفتح على المسلمين من بلادهم ، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام ، وذلك من آيات النصرة والغلبة ونحوه أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها ، أَفَهُمُ الْغالِبُونَ ، سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ والمعنى : عليك بالبلاغ الذي حملته ، ولا تبهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ، ولا يضجرك تأخره ، فإن ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها ثم طيب نفسه ونفس عنها بما ذكر من طلوع تباشير الظفر. وقرئ : ننقصها ، بالتشديد لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ لا رادّ لحكمه. والمعقب : الذي يكرّ على الشيء فيبطله. وحقيقته : الذي يعقبه أى يقفيه بالردّ والإبطال. ومنه قيل لصاحب الحق : معقب ، لأنه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب. قال لبيد :

طَلَبُ الْمُعَقِّبِ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ «1»

والمعنى : أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال ، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا. فإن قلت : ما محل قوله لا معقب لحكمه؟ قلت : هو جملة محلها النصب على الحال ، كأنه قيل : واللّه يحكم نافذاً حكمه ، كما تقول جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة ، تريد حاسراً.

[سورة الرعد (13) : آية 42]

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42)

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وصفهم بالمكر ، ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ثم فسر ذلك بقوله يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ لأنّ من علم ما تكسب كل نفس ، وأعدّ لها جزاءها فهو المكر كله ، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون. وهم في غفلة مما يراد بهم. وقرئ : الكفار. والكافرون. والذين كفروا. والكفر : أى أهله ، والمراد بالكافر الجنس : وقرأ جناح بن حبيش ، وسيعلم الكافر ، من أعلمه أى سيخبر.

[سورة الرعد (13) : آية 43]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (43)

(1) حتى تهجر في الرواح وهاجها طلب المعقب حقه المظلوم
للبيد بن ربيعة ، يصف حمار وحش خرج في الهاجرة وراء أنانه ، وهاجها : أى بعثها على السير ونشطها لسرعة سيره في طلبها ، كما يطلب المعقب المظلوم حقه ودينه ممن هو عليه ، فالمظلوم بالرفع صفة للمعقب ، لأنه فاعل في المعنى.
ومعناه الذي رجع إلى حقه الذي كان أعطاه للدين ، فكأنه رجع على عقبه ، أو لأنه يعقب المدين ويتبعه.

كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً لما أظهر من الأدلة على رسالتي وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ والذي عنده علم القرآن «1» وما ألف عليه من النظم المعجز الفائت لقوى البشر. وقيل : ومن هو من علماء أهل الكتاب «2» الذين أسلموا. لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم : وقيل هو اللّه عز وعلا «3» والكتاب : اللوح المحفوظ. وعن الحسن : لا واللّه ما يعنى إلا اللّه. والمعنى : كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو ، شهيداً بيني وبينكم. وتعضده قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب ، على من الجارّة ، أى. ومن لدنه علم الكتاب ، لأن علم من علمه من فضله ولطفه. وقرئ : ومن عنده علم الكتاب على من الجارّة. وعلم ، على البناء للمفعول. وقرئ : وبمن عنده علم الكتاب. فإن قلت : بم ارتفع علم الكتاب؟ قلت : في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقدّر في الظرف ، فيكون فاعلا ، لأنّ الظرف إذا وقع صلة أوغل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول ، فعمل عمل الفعل ، كقولك : مررت بالذي في الدار أخوه ، فأخوه فاعل ، كما تقول : بالذي استقرّ في الدار أخوه. وفي القراءة التي لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالابتداء.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الرعد أعطى من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة ، وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد اللّه «4»

(1). قال محمود : «المراد والذي عنده علم القرآن ... الخ» قال أحمد : فيكون المراد حينئذ : جنس المؤمنين. [.....]
(2). قال محمود : «و قيل ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم» قال أحمد : فالكتاب على التأويل الأول مراد به القرآن خاصة ، وعلى الثاني جنس الكتب المتقدمة عليه.
(3). قال محمود : «و قيل هو اللّه عز وجل ، والكتاب ، اللوح المحفوظ. وعن الحسن : لا واللّه ما يعنى إلا اللّه والمعنى : كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا هو ، شهيداً بيني وبينكم. وتعضده قراءة من قرأ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ على من الجارة» قال أحمد : وإنما قدر الزمخشري في المعطوف عليه اسم اللّه بالذي يستحق العبادة ، حذراً من عطف الصفة على الموصوف، وعدولا إلى أنه عطف إحدى الصفتين على الأخرى تقديراً وإنما أخذ الحصر حيث يقول : ومن لا يعلم علم الكتاب إلا هو من أنه قدم الخبر الذي هو عنده على مبتدئه ، وشأن الزمخشري أخذ الحصر من التقديم ، واللّه الموفق للصواب.
(4). تقدم إسناده في آل عمران.

سورة إبراهيم عليه السلام

(مكية ، [إلا آيتي 28 و29 فمدنيتان] وآياتها 52 [نزلت بعد سورة نوح])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (3)

كِتابٌ هو كتاب ، يعنى السورة. وقرئ : ليخرج الناس. والظلمات والنور : استعارتان للضلال والهدى بِإِذْنِ رَبِّهِمْ بتسهيله وتيسيره ، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل للحجاب ، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل ، كقوله لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف ، كأنه قيل : إلى أى نور؟ فقيل : إلى صراط العزيز الحميد. وقوله اللَّهِ عطف بيان للعزيز الحميد ، لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا. وقرئ بالرفع على : هو الله. الويل : نقيض الوأل ، وهو النجاة اسم معنى ، كالهلاك ، إلا أنه لا يشتق منه فعل ، إنما يقال : ويلا له ، فينصب نصب المصادر ، ثم يرفع رفعها لإفادة معنى الثبات ، فيقال : ويل له ، كقوله سلام عليك. ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل. فإن قلت : ما وجه اتصال قوله مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ بالويل؟ قلت : لأنّ المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد ، ويضجون منه ، ويقولون : يا ويلاه ، كقوله دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ مبتدأ خبره : أولئك في ضلال بعيد ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين ، ومنصوبا على الذمّ ، أو مرفوعا على أعنى الذين يستحبون أو هم الذين يستحبون. والاستحباب : الإيثار والاختيار ، وهو استفعال من المحبة ، لأنّ المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر. وقرأ الحسن : ويصدّون ، بضم الياء وكسر الصاد. يقال : صدّه عن كذا ، وأصدّه. قال : أُناسٌ اصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمُ «1»

والهمزة فيه داخلة على صدّ صدوداً ، لتنقله من غير التعدّى إلى التعدّى. وأما صدّه ، فموضوع على التعدية كمنعه ، وليست بفصيحة كأوقفه ، لأنّ الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة وَيَبْغُونَها عِوَجاً ويطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً ، وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية ، والأصل : ويبغون لها ، فحذف الجار وأوصل الفعل فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ أى ضلوا عن طريق الحق ، ووقفوا دونه بمراحل. فإن قلت : فما معنى وصف الضلال بالبعد. قلت : هو من الإسناد المجازى ، والبعد في الحقيقة للضالّ ، لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق ، فوصف به فعله ، كما تقول : جدّ جدّه. ويجوز أن يراد : في ضلال ذى بعد. أو فيه بعد ، لأنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

[سورة إبراهيم (14) : آية 4]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)
إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أى ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه ، فلا يكون لهم حجة على الله «2»

(1) أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم صدود السواني في أنوف الحوايم
لذي الرمة ، أنشده عنه الفراء ، يقال : صده عن كذا ، ولغة كلب : أصده عنه إذا منعه ، فوضع الصدود موضع الأصداد. والسيافى - بالفاء - : الرياح ، لأنها تسفو التراب. وقيل : هي بالقاف جمع ساق أو ساقية ، وهي فوق الجدول. والحوايم : الجمال العطاش ، لأنها تحوم حول الماء جمع حائم ، ويطلق على طير إذا اشتد عطشه حام حول الماء ، فإذا ناله سقط ريشه فيغرق فيه. وجمعه حوايم أيضا. ويجوز أن يراد هنا ، أو الجبال لأنها لارتفاعها تشرف من بعد كأنها حائمة ، أو لأن الطير يحوم فوقها فنسبة الفعل إليها مجاز لأنها محله ، يقول : قوم منعوا الناس عن أنفسهم بالسيف لمنع الرياح وضربها في أنوف. الجمال ، أو في أعالى الجبال ، أو كمنع السقاة إبل غيرهم عن إبلهم في السقي ، أو كمنع الأنهار لبعد مائها الإبل العطاش أو الطيور العطاش عن الشرب ، لأن الطيور تخاف الغرق فيه.
ويروى : عن أنوف الحوايم. وفيه تشبيه الأعداء بالعطاش وأصحاب السيوف ، أو السيوف بالرياح ضمنا.

(2). قال محمود : «أى ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة ... الخ» قال أحمد : جميع الفصل مرضى ، لكن في هذه الخاتمة نظر ، لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة يتقاصر عن إعجازه ، لو قدر منزلا بكل لسان ، حتى إنه لو ينزل بجميع اللغات لبلغ من الوضوح إلى حد يكاد أن يكون إلجاء إلى الايمان به ، وهذا فيه نظر ، والقول به غير متعين ، لأن المعجز يفيد العلم بصدق من ظهر على يده ، ومتى حصل العلم لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح ، فلو نزل القرآن بجميع اللغات ، لكان العلم الحاصل منه وقد نزل بلغة واحدة ، هو العلم الحاصل منه ولو نزل بالجميع ، لا تفاوت ولا ترجيح بين العلمين ، هذا هو التحقيق ، والله أعلم. والزمخشري يبنى في كثير من كلامه على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلى وأجلى ، وهو من الحق بمعزل ، وإنما ظن ذلك طائفة ظاهرية ، والله الموفق.

ولا يقولوا : لم نفهم ما خوطبنا به ، كما قال وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ.

فإن قلت : لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعاً قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً بل إلى الثقلين ، وهم على ألسنة مختلفة ، فإن لم تكن للعرب حجه فلغيرهم الحجة وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية ، لم تكن للعرب حجة أيضاً. قلت : لا يخلو إمّا أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة ، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل، فبقى أن ينزل بلسان واحد ، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ، لأنهم أقرب إليه ، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر. قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمّة من أمم العجم ، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة ، والأقطار المتنازحة ، «1» والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة ، على كتاب واحد ، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه ، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها - مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلا بصفة الإعجاز في كل واحد منها ، وكلم الرسول العربىّ كل أمّة بلسانها كما كلم أمّته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء. ومعنى بِلِسانِ قَوْمِهِ بلغة قومه. وقرئ : بلسن قومه. واللسن واللسان : كالريش والرياش ، بمعنى اللغة. وقرئ : «بلَسن قومه» بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة ، وهو جمع لسان ، كعماد وعمد وعمد على التخفيف. وقيل : الضمير في قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ورووه عن الضحاك. وأن الكتب كلها نزلت بالعربية ، ثم أدّاها كل نبىّ بلغة قومه، وليس بصحيح ، لأنّ قوله لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ضمير القوم وهم العرب ، فيؤدّى إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب ، وهذا معنى فاسد فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ كقوله فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ لأنّ الله لا يضلّ إلا من يعلم أنه لن يؤمن.

ولا يهدى إلا من يعلم أنه يؤمن. والمراد بالإضلال : التخلية ومنع الألطاف «2» ، وبالهداية : التوفيق واللطف ، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان وَهُوَ الْعَزِيزُ فلا يغلب على مشيئته الْحَكِيمُ فلا يخذل إلا أهل الخذلان ، ولا يلطف إلا بأهل اللطف.

---

(1). قوله «و الأقطار المتنازحة» أى المتباعدة جداً. أفاده الصحاح. (ع)

(2). قوله «و المراد بالإضلال التخلية ومنع الألطاف» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فخلق الضلال في القلب ، لأن الله لا يخلق الشر عند المعتزلة ، ويخلقه كالخير عند أهل السنة. (ع)

[سورة إبراهيم (14) : آية 5]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

أَنْ أَخْرِجْ بمعنى أى أخرج ، لأنّ الإرسال فيه معنى القول ، كأنه قيل : أرسلناه وقلنا له أخرج. ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل ، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر ، لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر ، وغيره سواء في الفعلية. والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل : قولهم أو عز إليه بأن افعل ، فأدخلوا عليها حرف الجر.

وكذلك التقدير بأن أخرج قومك وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم : قوم نوح وعاد وثمود. ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها ، كيوم ذى قار ، ويوم الفجار ، ويوم قضة وغيرها ، وهو الظاهر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : نعماؤه وبلاؤه.

فإهلاك القرون لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ يصبر على بلاء اللّه ويشكر نعماءه ، فإذا سمع بما أنزل اللّه من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم ، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر.

وقيل : أراد لكل مؤمن ، لأنّ الشكر والصبر من سجاياهم ، تنبيهاً عليهم.

[سورة إبراهيم (14) : آية 6]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6)

إِذْ أَنْجاكُمْ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام ، أى إنعامه عليكم ذلك الوقت. فإن قلت : هل يجوز أن ينتصب بعليكم؟ قلت : لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى الإنعام ، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطية ، فإذا كان صلة لم يعمل فيه ، وإذا كان غير صلة بمعنى اذكروا نعمة اللّه مستقرّة عليكم عمل فيه ، ويتبين «1» الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت : نعمة اللّه عليكم ، فإن جعلته صلة لم يكن كلاماً حتى تقول فائضة أو نحوها ، وإلا كان كلاما. ويجوز أن يكون «إذ» بدلا من نعمة اللّه ، أى : اذكروا وقت إنجائكم ، وهو من بدل الاشتمال. فإن قلت : في سورة البقرة يُذَبِّحُونَ وفي الأعراف يُقَتِّلُونَ وهاهنا وَيُذَبِّحُونَ مع الواو ، فما الفرق؟ قلت : الفرق أنّ التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له ، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أو في على جنس العذاب ،

(1). قوله «و يتبين» لعله : وتبيين. (ع)

وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر. فإن قلت : كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ قلت : تمكينهم وإمهالهم ، حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من اللّه. ووجه آخر وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم ، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ، قال تعالى وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وقال زهير :

فَأَبْلَاهُمَا خَيرَ البَلَاءِ الذِى يَبْلُوا «1»

[سورة إبراهيم (14) : آية 7]

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (7)

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ من جملة ما قال مومى لقومه ، وانتصابه للعطف على قوله نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ كأنه قيل : وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة اللّه عليكم ، واذكروا حين تأذن ربكم.

ومعنى تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ : أذن ربكم. ونظير تأذن وأذن : توعد وأوعد ، تفضل وأفضل. ولا بدّ في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل ، كأنه قيل : وإذ أذن ربكم إيذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبه. والمعنى : وإذ تأذن ربكم فقال لَئِنْ شَكَرْتُمْ أو أجرى تَأَذَّنَ مجرى ، قال ، لأنه ضرب من القول. وفي قراءة ابن مسعود : «و إذ قال ربكم لئن شكرتم» ، أى لئن شكرتم يا بنى إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح لَأَزِيدَنَّكُمْ نعمة إلى نعمة ، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ وغمطتم «2» ما أنعمت به عليكم إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ لمن كفر نعمتي.

[سورة إبراهيم (14) : آية 8]

وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)

وَقالَ مُوسى إن كفرتم أنتم يا بنى إسرائيل والناس كلهم ، فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بدّ لكم منه وأنتم إليه محاويج ، اللَّهَ لَغَنِيٌّ عن شكركم حَمِيدٌ مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه ، وإن لم يحمده الحامدون.

[سورة إبراهيم (14) : آية 9]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 208 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قوله «و غمطتم ما أنعمت به عليكم» في الصحاح «غمط الشي ء» بطره وحقره. (ع)

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جملة من مبتدإ وخبر ، وقعت اعتراضا : أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح. ولا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ اعتراض. والمعنى : أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا اللّه. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : كذب النسابون ، يعنى أنهم يدّعون علم الأنساب ، وقد نفى اللّه علمها عن العباد فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ فعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل «1» ، كقوله عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ أو ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه. أو وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ أى هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره ، إقناطاً لهم من التصديق. ألا ترى إلى قوله فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وهذا قول قوى. أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء : أطبقوا أفواهكم واسكتوا. أو ردّوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت. أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون. وقيل : الأيدى ، جمع يد وهي النعمة بمعنى الأيادى ، أى : ردوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم ، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها ، فكأنهم ردوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ من الإيمان باللّه. وقرئ : «تدعونا» ، بإدغام النون مُرِيبٍ موقع في الريبة أو ذى ريبة ، من أرابه ، وأراب «2» الرجل ، وهي قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر.

[سورة إبراهيم (14) : آية 10]

قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (10)

أَفِي اللَّهِ شَكٌّ أدخلت همزة الإنكار على الظرف ، لأن الكلام ليس في الشك ، إنما هو في المشكوك فيه ، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ،

(1). قال محمود : «معناه عضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل ... الخ» قال أحمد : وأقوى هذه الوجوه هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة ، وإنما كان كذلك لأن إقناطهم الرسل من الايمان قولا وفعلا بوضع اليد في الفم ، هو المناسب لحسدهم في الكفر. وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد وليس السياق بمناسب الضحك ولا الغيظ ولا لتصميت الرسل كمناسبته لاقناطهم من القبول. ألا ترى أنهم لما أعادوا للرسل القول ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة ، دل على أنهم لم يسكتوهم أولا ، ولا كان غرضهم ذلك ، واللّه أعلم.
(2). قوله «و أراب الرجل» لعله : أو أراب. (ع)

أى يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أو يدعوكم لأجل المغفرة كقوله : دعوته لينصرنى ، ودعوته ليأكل معى ، وقال :

دَعَوْتُ لِمَا نَابَنِى مِسْوَرا فَلَبَّى فَلَبَّى يَدَىْ مِسْوَرِ «1»

فإن قلت : ما معنى التبعيض في قوله : من ذنوبكم؟ قلت : ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين ، كقوله وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وقال في خطاب المؤمنين : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ إلى أن قال يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء ، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد. وقيل : أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين اللّه ، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى وقت قد سماه اللّه وبين مقداره ، يبلغكموه إن آمنتم ، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت إِنْ أَنْتُمْ ما أنتم إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا لا فضل بيننا وبينكم ، ولا فضل لكم علينا ، فلم تخصون بالنبوّة «2» دوننا ، ولو أرسل اللّه إلى البشر رسلا لجعلهم من

(1). لأعرابى من بنى أسد. ولبى : بمعنى أجاب ، ورسمه ابن حبيب بالألف وإن كان يائيا للفرق بينه وبين المثنى بعده. ولبى من الأسماء اللازمة للاضافة إلى الضمير ، وشذ إضافته للظاهر كما هنا ، من لب بالمكان لبا أقام به والمراد ملازمة إجابته إجابة بعد إجابة لا اثنين فقط ، وهو منصوب على المصدرية بفعل محذوف. هذا مذهب سيبويه. وزعم يونس أنه مفرد مقصور ، قلبت ألفه مع الضمير ياء كلدى وعلى ، فرد عليه سيبويه بأنه لو كان كذلك لم تنقلب ألفه مع الظاهر ياء كلدى وعلى ، لكنهم لما أضافوه للظاهر قلبوها ياء كما في البيت. يقول : دعوت مسورا لما أصابنى ، فأجابنى فلبى يديه ، أى أجاب اللّه دعاءه بعد إجابة ، وأقحم اليدين لأنهما يرفعان عند الدعاء ، فكأنهما المجابتان ، أو لأن نصره حصل بهما ، ففيه إشارة إلى أنه أنقذه. وقيل : إنه دعاه ليغرم عنه الدية ، فأجابه ، فذكر يديه لأنه بذل بهما. قيل : وكانت عادة العرب ذلك فنهى عنه. وروى عن رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم أنه قال. إذا دعا أحدكم أخاه فقال : لبيك ، فلا يقولن لبى يديك ، وليقل أجابك اللّه بما تحب.
(2). عاد كلامه. قال : «و قولهم إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا : معناه فلم تخصون بالنبوة دوننا؟ ولو أرسل اللّه إلى البشر رسلا لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة»؟ قال أحمد : ومن تهالكه على الانتصار لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر ، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون كمعتقد القدرية في تفضيل الملك على الرسول ، لأنه يدعى ذلك أمراً مركوزاً في الطباع معلوما ضرورة ، واللّه الموفق. [.....]
(3). قوله «لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» هذا على مذهب المعتزلة ، أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل. (ع)

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 11 إلى 12]

قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)

إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ تسليم لقولهم ، وأنهم بشر مثلهم ، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها ، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم ، ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم ، واقتصروا على قولهم وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ بالنبوّة ، لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها ، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا ، وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة اللّه وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل ، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا وأمروها به ، كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على اللّه في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجرى علينا منكم. ألا ترى إلى قوله وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ومعناه : وأىّ عذر لنا في أن لا نتوكل عليه وَقَدْ هَدانا وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه ، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين ، فإن قلت : كيف كرّر الأمر بالتوكل «1»؟ قلت : الأول لاستحداث التوكل ، وقوله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ معناه فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدّم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 12 إلى 14]

وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (14)

لَنُخْرِجَنَّكُمْ ، أَوْ لَتَعُودُنَّ ليكونن أحد الأمرين لا محالة ، إما إخراجكم وإما عودكم حالفين «2» على ذلك. فإن قلت : كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها. قلت : معاذ اللّه ، ولكن العود بمعنى الصيرورة ، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ، ولكن عاد ، ما عدت أراه عاد لا يكلمني ، ما عاد لفلان مال.

(1). قال محمود : «إن قلت كيف كرر ذلك بعد قوله وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ... الخ» قال أحمد : وبهذا يخرج عن وادى «من قتل قتيلا فله سلبه» واللّه أعلم.
(2). قوله «حالفين» حال من فاعل قال. وعبارة النسفي «و حلفوا». (ع)

أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به ، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ حكاية تقتضي إضمار القول ، أو إجراء الإيحاء مجرى القول ، لأنه ضرب منه. وقرأ أبو حيوة : «ليهلكنّ» ، و«ليسكننكم» بالياء اعتباراً لأوحى ، وأن لفظه لفظ الغيبة ، ونحوه قولك : أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن.

والمراد بالأرض. أرض الظالمين وديارهم ، ونحوه وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا ، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من آذى جاره ورثه الله داره «1»» ولقد عاينت هذا في مدة قريبة : كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذيني فيه ، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته ، فنظرت يوما إلى أبناء خالي يتردّدون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحدّثتهم به ، وسجدنا شكراً لله ذلِكَ إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين إسكان المؤمنين ديارهم ، أى ذلك الأمر حق لِمَنْ خافَ مَقامِي موقفي وهو موقف الحساب ، لأنه موقف الله الذي يقف «2» فيه عباده يوم القيامة ، أو على إقحام المقام. وقيل : خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله. والمعنى أنّ ذلك حق للمتقين ، كقوله وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 15 إلى 17]

وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (17)

وَاسْتَفْتَحُوا واستنصروا الله على أعدائهم إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ أو استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة ، كقوله تعالى رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وهو معطوف على فَأَوْحى إِلَيْهِمْ وقرئ : «و استفتحوا» ، بلفظ الأمر. وعطفه على لَنُهْلِكَنَّ أى : أوحى إليهم ربهم وقال لهم لنهلكنّ وقال لهم استفتحوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا ، وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، وهم قومهم. وقيل : واستفتح الكفار على الرسل ، ظنا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل ، وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ منهم ولم يفلح باستفتاحه مِنْ وَرائِهِ من بين يديه.

(1). لم أجده.
(2). قوله «يقف فيه عباده» في الصحاح : يتعدى ولا يتعدى. (ع)

قال : عَسَى الْكَرْبُ الَّذِى أَمْسَيْتَ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ «1»

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا ، لأنه مرصد لجهنم ، فكأنها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف. فان قلت : علام عطف وَيُسْقى ؟ قلت : على محذوف تقديره : من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد ، كأنه أشد عذابها فخصص بالذكر مع قوله وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ. فإن قلت : ما وجه قوله تعالى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ؟ قلت : صديد عطف بيان لماء ، قال وَيُسْقى مِنْ ماءٍ فأبهمه إبهاما ثم بينه بقوله صَدِيدٍ وهو ما يسيل من جلود أهل النار يَتَجَرَّعُهُ يتكلف جرعه وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ دخل كاد للمبالغة. يعنى : ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون الإساغة ، كقوله لَمْ يَكَدْ يَراها أى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ كأنّ أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه «2» وأحاطت به من جميع الجهات ، تفظيعا لما يصيبه من الآلام. وقيل مِنْ كُلِّ مَكانٍ من جسده حتى من إبهام رجله. وقيل : من أصل كل شعرة وَمِنْ وَرائِهِ ومن بين يديه عَذابٌ غَلِيظٌ أى في كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشدّ مما قبله وأغلظ. وعن الفضيل : هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد. ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أى استمطروا - والفتح المطر - في سنى القحط التي أرسالات عليهم بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسقوا ، فذكر سبحانه ذلك ، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء آخر ، وهو صديد أهل النار. وَاسْتَفْتَحُوا - على هذا التفسير - :

(1) يؤرقنى اكتئاب أبى نمير فقلبي من كآبته كئيب
فقلت له هداك الله مهلا وخير القول ذو اللب المصيب
عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب
لهدبة بن خشرم العذرى. ويروى : خرشم. وكان مسجونا للقتل. والتأريق : التسهير ، والاكتئاب : الانكسار وتغير اللون من الحزن ، والكآبة كذلك. وأبو نمير كان صديقا له ، فزاره لك السجن وحزن عليه. ومهلا : مصدر بدل من اللفظ بفعله. وخبر القول : جملة اعتراضية في أثناء مقول القول. واللب : العقل. وعسى الكرب : تتمة مقول القول. ويروى : أمسيت ، بالضم والفتح. وقال الجوهري «وراء» يأتى بمعنى خلف ، وقد يأتى بمعنى قدام ، فهو من الأضداد اه ، لأنه ما وراء الشخص بجرمه عن نفسه أو عن غيره ، ومواراته عن نفسه لا يمكن إلا في الخلف ، فكثر فيه. أو هو مكان المواراة مطلقا ، وهو في الخلف أكثر. واسم «يكون» ضميرالكرب ، ووراءه متعلق بمحذوف خبر ليكون ، و«فرج» فاعل بالظرف. ويجوز أن «فرج» مبتدأ و«وراءه» متعلق بمحذوف خبر له ، والجملة خبر ليكون ، ويجب كون المحذوف كونا تاما لا ناقصا ، لئلا يحتاج إلى تقدير محذوف أيضا ، فيتسلسل التقدير ، ولم يجعل «فرج» مرفوع بيكون ، لأن خبر أفعال المقاربة لا يرفع الأجنبى عن أسمائها. وجملة «يكون» خبر ليس «و تجريد خبرها من «أن» قليل أى عسى أن يحصل الفرج بعد الكرب.
(2). قوله «قد تألبت عليه» أى تجمعت. أفاده الصحاح. (ع)

كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم.

[سورة إبراهيم (14) : آية 18]

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (18)

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه ، تقديره : وفيما يقص عليك مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم؟ فقيل : أعمالهم كرماد. ويجوز أن يكون المعنى : مثل أعمال الذين كفروا بربهم. أو هذه الجملة خبرا للمبتدإ ، أى صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد ، كقولك صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول ، أو يكون أعمالهم بدلا من مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا على تقدير : مثل أعمالهم ، وكرماد : الخبر. وقرئ : الرياح فِي يَوْمٍ عاصِفٍ جعل العصف لليوم ، وهو لما فيه ، وهو الريح أو الرياح ، كقولك : يوم ماطر وليلة ساكرة. وإنما السّكور لريحها «1» وقرئ : في يوم عاصف ، بالإضافة. وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم ، من صلة الأرحام وعتق الرقاب ، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف ، وإغاثة الملهوفين ، والإجازة ، وغير ذلك من صنائعهم ، شبهها في حبوطها وذهابها هباء منثورا لبنائها على غير أساس من معرفة اللّه والإيمان به ، وكونها لوجهه : برماد طيرته الريح العاصف لا يَقْدِرُونَ يوم القيامة مِمَّا كَسَبُوا من أعمالهم عَلى شَيْءٍ أى لا يرون له أثرا من ثواب ، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب بِالْحَقِّ بالحكمة والغرض الصحيح «2» والأمر العظيم ، ولم يخلقها عبثا ولا شهوة

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 19 إلى 20]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ(20)

وقرئ : خالق السموات والأرض إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أى هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم ، إعلاما منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم ، يقدر على الشيء وجنس ضده وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ بمتعذر ،

(1). قوله «و إنما السكور لريحها» في الصحاح : سكرت الريح ، تسكر سكورا : سكنت بعد الهبوب. (ع)
(2). قال محمود : «معناه خلقها بالحكمة والغرض الصحيح ... الخ» قال أحمد : وهذا من اعتزاله الخفي وقد تقدمت أمثاله.

بل هو هين عليه يسير «1» ، لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف ، تكوّن من غير توقف : كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف. وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر باللّه ، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة وأنه هو الحقيق بأن يعبد ، ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

[سورة إبراهيم (14) : آية 21]

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (21)

وَبَرَزُوا لِلَّهِ ويبرزون يوم القيامة. وإنما جيء به بلفظ الماضي ، لأنّ ما أخبر به عزّ وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد ، ونحوه وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ ، وَنادى أَصْحابُ النَّارِ ونظائر له. ومعنى بروزهم للّه - واللّه تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له - أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ، ويظنون أن ذلك خاف على اللّه ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا للّه عند أنفسهم وعلموا أنّ اللّه لا يخفى عليه خافية. أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب اللّه وحكمه. فإن قلت : لم كتب «الضعفؤا» بواو قبل الهمزة؟ قلت : كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو. ونظيره «علموا بنى إسرائيل» والضعفاء : الأتباع والعوام. والذين استكبروا : ساداتهم وكبراؤهم ، الذين استتبعوهم واستغووهم وصدورهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم تَبَعاً تابعين : جمع تابع على تبع ، كقولهم : خادم وخدم وغائب وغيب «2» أو ذوى تبع. والتبع : الأتباع ، يقال :

(1). عاد كلامه. قال : معناه وما ذلك على اللّه بعزيز ، أى : هين عليه ، لأنه قادر بالذات الخ ... قال أحمد : وهذا اعتزال صراح لهم يتقنع في إبرازه ، وما أبشع قوله عن اللّه جل جلاله ، خلص له الداعي وأمضى الصارف ، وما أنباه عن سمع المحققين العارفين بآداب اللّه تعالى وبما يجب في حق جلاله ، وقد تقدم ما فيه كفاية.
(2). قوله «خادم وخدم وغائب وغيب» في الصحاح : وإنما ثبتت فيه الياء في التحريك ، لأنه شبه بصيد وإن كان جمعا ، وصيد مصدر قولك «بعير أصيد» لأنه يجوز أن ينوى به المصدر. (ع)

فإن قلت : فما معنى قوله لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ؟ قلت الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخا لهم «1» وعتابا على استتباعهم واستغوائهم. وقولهم فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا من باب التبكيت ، لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم ، فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم : بأن اللّه لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلوهم ، إما موركين الذنب «2» في ضلالهم وإضلالهم على اللّه ، كما حكى اللّه عنهم وقالوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا، لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا. ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْ ءٍ. وإما أن يكون المعنى : لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان. وقيل : معناه لو هدانا اللّه طريق النجاة من العذاب لهديناكم ، أى : لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا مستويان علينا الجزع والصبر. والهمزة وأم للتسوية. ونحوه : فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ وروى أنهم يقولون : تعالوا نجزع ، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم ، فيقولون : تعالوا نصبر ، فيصبرون كذلك ثم يقولون : سواء علينا. فإن قلت : كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله؟ قلت : اتصاله به من حيث أنّ عتابهم لهم كان جزعا مما هم فيه ، فقالوا : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، يريدون أنفسهم وإياهم ، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها ، يقولون : ما هذا الجزع والتوبيخ ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطمّ. أو لما قالوا لو هدانا اللّه طريق النجاة لأغنينا عنكم وأنجيناكم ، أتبعوه الإقناط من النجاة فقالوا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ أى منجى ومهرب ، جزعنا أم صبرنا. ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً ، كأنه قيل : قالوا جميعا سواء علينا ، كقوله ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ والمحيص يكون مصدراً ، كالمغيب والمشيب. ومكانا ، كالمبيت والمصيف. ويقال : حاص عنه وجاض ، بمعنى واحد.

(1). قال محمود : «الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخا لهم ... الخ» قال أحمد : لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة المشتملة على أن اللّه تعالى مهما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأن هد آية المشركين مما لم يشأه ، ولو شاءها لاهتدوا. وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق حين حقت لهم الحقائق وانكشف الغطاء. والمقصود من اقتصاصه : إنذار أمثالهم في الدنيا ، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة إذا حق عليهم العذاب واعترفوا بالحق وقالوا القول المذكور ، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى ، فلما فطن الزمخشري لذلك شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة كما خطأهم في الدنيا ، ليتم له اعتقاد أن اللّه يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ، ومن ذلك هد آية الكفار فان اللّه تعالى يشاؤها في الدنيا ، لكنها لم تكن. وأنى له ذلك ، وسياق الآية يصوب الكلام المذكور وينذر الغافلين عنه في الدنيا ، ويحذرهم من التورط فيما يؤدى إلى هذا الندم ، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة ، إذ لا ينجع ، كما أورد كلام الشيطان عقيب ذلك حين يعترف بالحق في دار الحق ، وحيث لا ينفعه إيمانه ، فيقول : إن اللّه وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ... الخ. وإنما سيق تحذيراً وإنذارا اتفاقا ، واللّه الموفق.
(2). قوله «موركين الذنب» في الصحاح : ورك فلان ذنبه على غيره ، أى : قرفه به اه ، أى : اتهمه به. (ع)

[سورة إبراهيم (14) : آية 22]

وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (22)

لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ لما قطع الأمر وفرغ منه ، وهو الحساب ، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار. وروى أنّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً «1» في الأشقياء من الجنّ والإنس فيقول ذلك إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم وَوَعَدْتُكُمْ خلاف ذلك فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ من تسلط وقهر فأقسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني ، وليس الدعاء من جنس السلطان ، ولكنه كقولك : ما تحيتهم إلا الضرب. فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ حيث اغتررتم بى وأطعتمونى إذ دعوتكم ، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم. وهذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه ، «2» وليس من اللّه إلا التمكين ، ولا من

(1). قال محمود : «روى أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا ... الخ» قال أحمد : قد حمل قول الكفار في الآية الأولى على إبطال الانتحال ، لأنه لا يلائم معتقده ، واستشهد على أن الكذب حينئذ غير ممتنع ولا متعذر بقول تعالى فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده ، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه وإن كان قائله الشيطان ، كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه وأية سلك. ونحن معاشر أهل السنة الملقبين عنده بالمجبرة نقول : إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير راد له ، ولا مخطئ فيه الشيطان ، كما اقتص كلام الكفار في الآية الأولى كذلك. ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف وأما الله تعالى فمقدس عن ذلك.
وحجته البالغة ، وقضاؤه الحق. وذلك أنا نعترف بما خلقه الله تعالى للعبد من الاختيار الذي يجده من نفسه عند تجاذب طرفى الأفعال الارادية ضرورة ، وبذلك قامت الحجة له على خلقه ، وإن سلبنا عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل ، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف ، والله الموفق. [.....]
(2). قوله «يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه» هذا مذهب المعتزلة ، وقوله «المجبرة» يعنى أهل السنة ، ومذهبهم أن الله هو الخالق لأسباب السعادة وأسباب الشقاوة ، لكن العبد له فيها الكسب. ومن هذا يتوجه عليه اللوم ، خلافا للمعتزلة في قولهم : إن العبد هو الخالق لها ، وهو الذي يحصل لنفسه. وتحقيقه في علم التوحيد. (ع)

قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به. قلت : لو كان هذا القول منه باطلا لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره ، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام : ألا ترى إلى قوله إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ كيف أتى فيه بالحق والصدق ، وفي قوله وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ وهو مثل قول الله تعالى : إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ ، ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ لا ينجى بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه. والإصراخ : الإغاثة. وقرئ : بمصرخي ، بكسر الياء وهي ضعيفة ، واستشهدوا لها ببيت مجهول :

قَالَ لَهَا هَلْ لَكِ يَا تَافِيِّ قَالَتْ لَهُ مَا أَنْتَ بِالمَرْضِى «1»

وكأنه قدّر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة ، فحرّكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ، ولكنه غير صحيح ، لأنَّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة ، حيث قبلها ألف في نحو عصاي ، فما بالها وقبلها ياء؟ فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام ، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن ، فحرّكت بالكسر على الأصل.

قلت : هذا قياس حسن ، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات.
«ما» في بِما أَشْرَكْتُمُونِ مصدرية ، ومِنْ قَبْلُ متعلقة بأشركتمونى ، يعنى : كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم ، أى في الدنيا ، كقوله تعالى وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ومعنى كفره بإشراكهم إياه : تبرؤه منه واستنكاره له ، كقوله تعالى إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وقيل : مِنْ قَبْلُ يتعلق بكفرت.
وما موصولة ، أى : كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو الله عز وجل ، تقول : شركت زيداً ، فإذا نقلت بالهمزة قلت : أشركنيه فلان ، أى : جعلني له شريكا.
ونحو «ما» هذه «ما» في قولهم : سبحان ما سخركنّ لنا.

(1) قال لها هل لك يا تافىّ قالت له ما أنت بالمرضى
ماض إذا ما هم بالمضي
قائله مجهول. وتا : اسم إشارة ، أى : هل لك يا هذه المرأة رغبة في. وأصل ياء المتكلم السكون ، فان حركت فبالفتح ، لكن لما التقت هنا ساكنة مع الياء قبلها ساغ كسرها ، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين.
وقالت : استئناف ، كأنه قيل له : فما ذا قالت؟ فقال : قالت له لست مرضيا ، فإنك رجل ماض في كل أمرتهمّ فيه ، فماض : خبر لمبتدإ محذوف. والجملة : استئناف جواب للسؤال عن علة عدم الرضا. وعبر بضمير الغيبة في قوله : هم نظراء للخير. ويجوز تقدير المبتدأ لفظ «هو» فيكون التفاتا من الخطاب إلى الغيبة ، دلالة على الاعراض عنه ، وذكر السبب لغيره.

ومعنى إشراكهم الشيطان بالله : طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها ، وهذا آخر قوله إبليس. وقوله إِنَّ الظَّالِمِينَ قول الله عزّ وجلّ. ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس ، وإنما حكى الله عزّ وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت ، ليكون لطفا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه ، وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم. وقرئ : فلا يلومونى ، بالياء على طريقة الالتفات ، كقوله تعالى حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ.

[سورة إبراهيم (14) : آية 23]

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ(23)

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : وأدخل الذين آمنوا ، «1» على فعل المتكلم ، بمعنى : وأدخل أنا وهذا دليل على أنه من قول اللّه ، لا من قوله إبليس بِإِذْنِ رَبِّهِمْ متعلق بأدخل ، أى : أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن اللّه وأمره. فإن قلت : فبهم يتعلق في القراءة الأخرى ، وقولك : وأدخلهم أنا بإذن ربهم ، كلام غير ملتئم؟ قلت : الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله : بِإِذْنِ رَبِّهِمْ بما بعده ، أى تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ بإذن ربهم ، يعنى : أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 24 إلى 25]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)

قرئ أَلَمْ تَرَ ساكنة الراء ، كما قرئ : من يتق ، وفيه ضعف ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا اعتمد مثلا ووضعه. وكَلِمَةً طَيِّبَةً نصب بمضمر ، أى : جعل كلمة طيبة كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ وهو تفسير لقوله ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كقولك : شرّف الأمير زيداً : كساه حلة ، وحمله على فرس.

(1). قال محمود : «و قرأ الحسن وعمرو بن عبيد : وأدخل الذين آمنوا على فعل المتكلم ... الخ» قال أحمد :
فان قلت : ما الذي صرف الزمخشري عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، وألجأه إلى تعليقه بما بعده ، وقد كانت له في ذلك مندوحة ، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض. ألا ترى إلى قوله تعالى طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى ثم قال تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ولم يقل تنزيلا منا. قلت : لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه ، وهو أن ظاهر أُدْخِلَ بلفظ المتكلم ، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة ، بل من اللّه تعالى مباشرة ، وظاهر الاذن يشعر باضافة الدخول إلى الواسطة ، فبينهما تنافر ، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين ، والخلود غير الدخول ، فلا تنافر ، واللّه أعلم.

ويجوز أن ينتصب مَثَلًا وكَلِمَةً بضرب ، أى : ضرب كلمة طيبة مثلا ، بمعنى : جعلها مثلا ثم قال كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ على أنها خبر مبتدأ محذوف ، بمعنى هي كشجرة طيبة أَصْلُها ثابِتٌ يعنى في الأرض ضارب بعروقه فيها وَفَرْعُها وأعلاها ورأسها فِي السَّماءِ ويجوز أن يريد : وفروعها ، على الاكتفاء بلفظ الجنس. وقرأ أنس بن مالك: كشجرة طيبة ثابت أصلها فإن قلت : أىّ فرق بين القراءتين؟ قلت : قراءة الجماعة أقوى معنى ، لأنّ في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة ، وإذا قلت : مررت برجل أبوه قائم ، فهو أقوى معنى من قولك : مررت برجل قائم أبوه ، لأنّ المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل. والكلمة الطيبة : كلمة التوحيد. وقيل : كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة. وعن ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا اللّه. وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة النمار ، كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمّان وغير ذلك. وعن ابن عمر أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال ذات يوم : «إن اللّه ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبرونى ما هي» «1» فوقع الناس في شجر البوادي ، وكنت صبيا ، فوقع في قلبي أنها النخلة ، فهبت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم. وروى : فمنعني مكان عمرو استحييت ، فقال لي عمر : يا بنىّ لو كنت قلتها لكانت أحبّ إلىّ من حمر النعم ، ثم قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ألا إنها النخلة» وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : شجرة في الجنة وقوله فِي السَّماءِ معناه في جهة العلوّ والصعود ، ولم يرد المظلة ، كقولك في الجبل : طويل في السماء تريد ارتفاعه وشموخه تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ تعطى ثمرها كل وقت وقته اللّه لإثمارها بِإِذْنِ رَبِّها بتيسير خالقها وتكوينه لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

[سورة إبراهيم (14) : آية 26]

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (26)

كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ كمثل شجرة خبيثة ، أى : صفتها كصفتها. وقرئ : ومثل كلمة بالنصب ، عطفا على كلمة طيبة. والكلمة الخبيثة : كلمة الشرك. وقيل : كل كلمة قبيحة. وأمّا الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوث «2» ونحو ذلك. وقوله اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ في مقابلة قوله أَصْلُها ثابِتٌ ومعنى اجْتُثَّتْ استؤصلت. وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها ما لَها مِنْ قَرارٍ أى استقرار.

(1). متفق عليه وله ألفاظ.
(2). قوله «و الكشوث» في الصحاح الكشوث نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض.
قال الشاعر :
هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر (ع)

يقال : قرّ الشيء قراراً ، كقولك : ثبت ثباتا ، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة ، فهو داحض غير ثابت والذي لا يبقى إما يضمحل عن قريب لبطلانه ، من قولهم : الباطل لجلج «1». وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء : ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال : ما أعلم لها في الأرض مستقراً ، ولا في السماء مصعداً ، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها القيامة.

[سورة إبراهيم (14) : آية 27]

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (27)

بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ الذي ثبت بالحجة «2» والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه ، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه. وتثبيتهم به في الدنيا : أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا ، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود ، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما. وتثبيتهم في الآخرة. أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم ، لم يتلعثموا ولم يبهتوا ، ولم تحيرهم أهوال الحشر. وقيل معناه الثبات عند سؤال القبر. وعن البراء ابن عازب رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال «ثم يعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له : من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

فيقول : ربى اللّه ، ودينى الإسلام ، ونبيي محمد ، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فذلك قوله : يثبت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت» «3» وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم ، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم ، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أوّل شيء ، وهم في الآخرة أضل وأذل وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ أى ما توجبه الحكمة ، لأن مشيئة اللّه تابعة للحكمة ،

(1). قوله «من قولهم الباطل لجلج» في الصحاح : الحق أبلج ، والباطل لجلج ، أى : يردد من غير أن ينفذ. (ع)
(2). قوله «القول الثابت الذي ثبت بالحجة» لما فسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد والخبيثة بكلمة الشرك ، فالمتجه تفسير القول الثابت بقول «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه» وإضلال الظالمين بابقائهم على كلمة الشرك، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وأما التمسك بالحجة وتقليد الشيوخ فبعيد عن السياق. وفيه رد على أهل السنة المكتفين بالتقليد في تحقق الايمان. (ع)
(3). هذا طرف من حديث له طويل أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبى شيبة وأبو يعلى من رواية سعد بن عبيدة عند البخاري مرفوعا في قوله يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ قال : نزلت في عذاب القبر. يقال له : من ربك ومن نبيك؟ فيقول : ربى اللّه. ونبى محمد صلى اللّه عليه وسلم. وذلك قوله تعالى يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ... الآية.

من تثبيت المؤمنين وتأييدهم ، وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم ، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم ، والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 28 إلى 30]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30)

بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ أى شكر نعمة اللّه كُفْراً لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلا ، ونحوه وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ أى شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه. ووجه آخر : وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفراً على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر ، حاصلا لهم الكفر بدل النعمة. وهم أهل مكة : أسكنهم اللّه حرمه ، وجعلهم قوّام بيته ، وأكرمهم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، فكفروا نعمة اللّه بدل ما لزمهم من الشكر العظيم. أو أصابهم اللّه بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ، فضربهم بالقحط سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقا في أعناقهم. وعن عمر رضى اللّه عنه : هم

وقيل : هم متنصرة العرب : جبلة بن الأيهم وأصحابه وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ممن تابعهم على الكفر دارَ الْبَوارِ دار الهلاك. وعطف جَهَنَّمَ على دار البوار عطف بيان. قرئ لِيُضِلُّوا بفتح الياء وضمها. فإن قلت : الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد ، فما معنى اللام؟

قلت : لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد ، كما كان الإكرام في قولك : جئتك لتكرمنى ، نتيجة المجيء ، دخلته اللام وإن لم يكن غرضا ، على طريق التشبيه والتقريب تَمَتَّعُوا إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر ، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه ، مأمورون به ، قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه ، وهو أمر الشهوة.

والمعنى : إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحوه قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ.

[سورة إبراهيم (14) : آية 31]

قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ(31)

المقول محذوف ، «1» لأن جواب قُلْ يدل عليه ، وتقديره قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا ، بمعنى : ليقيموا ولينفقوا ، ويكون هذا هو المقول ، قالوا : وإنما جاز حذف اللام ، لأنّ الأمر الذي هو قُلْ عوض منه ، ولو قيل : يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام، لم يجز.

فإن قلت : علام انتصب سِرًّا وَعَلانِيَةً؟ قلت : على الحال ، أى : ذوى سرّ وعلانية ، بمعنى : مسرين ومعلنين. أو على الظرف ، أى وقتى سر وعلانية ، أو على المصدر ، أى : إنفاق سر وإنفاق علانية ، المعنى : إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب : والخلال : المخالة.

فإن قلت : كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ؟ «2» قلت : من قبل أنّ الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات ، فيعطون بدلا ليأخذوا مثله ، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها. وأمّا الإنفاق لوجه اللّه خالصا كقوله وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص ، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال ، أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة ، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه اللّه. وقرئ : لا بيع فيه ولا خلال ، بالرفع.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 32 إلى 33]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ(33)

(1). قال محمود : «المقول محذوف ... الخ» قال أحمد : وفي هذا الإعراب نظر ، لأن الجواب حينئذ يكون خبراً من اللّه تعالى ، بأنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا ، لكنهم قد قيل لهم فلم يمتثل كثير منهم ، وخبر اللّه تعالى يجل عن الخلف ، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الإعراب من تبادره فيما ذكر بادى الرأى ، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق ، ويقوى بوجهين لطيفين ، أحدهما : أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالايمان الحق المنوه بإيمانه عند الأمر ، كهذه الآية وكقوله وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ الثاني : تكرر مجيئه للموصوفين بأنهم عباد اللّه المشرفون باضافتهم إلى اسم اللّه ، وقد قالوا إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين ، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف ، فالحاصل من ذلك أن المأمور في هذه الآي من هو بصدد الامتثال وفي حيز المسارعة للطاعة ، فالخبر في أمثالهم حق وصدق ، إما على العموم إن أريد ، أو على الغالب ، واللّه أعلم.

(2). قوله «بأنه لا بيع فيه ولا خلال» هذه القراءة بالبناء على الفتح. (ع)

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 32 إلى 34]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (33) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

اللَّهُ مبتدأ ، والَّذِي خَلَقَ خبره ، ومِنَ الثَّمَراتِ بيان للرزق ، أى : أخرج به رزقا هو ثمرات. ويجوز أن يكون مِنَ الثَّمَراتِ مفعول أخرج ، ورِزْقاً حالا من المفعول ، أو نصباً على المصدر من أخرج ، لأنه في معنى رزق بِأَمْرِهِ بقوله كن دائِبَيْنِ يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات ، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم «1» وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ من للتبعيض ، أى آتاكم بعض جميع ما سألتموه ، نظراً في مصالحكم. وقرئ من كلّ بالتنوين ، وما سألتموه نفى ومحله النصب على الحال أى : آتاكم من جميع ذلك غير سائليه ، ويجوز أن تكون ما موصولة ، على : وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به ، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال لا تُحْصُوها لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها ، هذا إذا أَرادوا أَن يعدوها على الإجمال. وأمّا التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا اللّه لَظَلُومٌ يظلم النعمة بإغفال شكرها كَفَّارٌ شديد الكفران لها. وقيل ظلوم في الشدّة يشكو ويجزع ، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس ، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 35 إلى 36]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36)

هَذَا الْبَلَدَ يعنى البلد الحرام ، زاده اللّه أَمناً ، وكفاه كل باغ وظالم ، أَجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام آمِناً ذا أمن. فإن قلت : أَى فرق بين قوله اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وبين قوله اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً؟ قلت : قد سأل في الأوّل أَن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف ، فاجعله آمناً وَاجْنُبْنِي وقرئ : وأجنبنى ، وفيه ثلاث لغات : جنبه الشر ، وجنبه ، وأجنبه ، فأهل الحجاز يقولون : جنبني شره بالتشديد ، وأهل نجد جنبني وأجنبنى ،

(1). قوله «و سباتكم» في الصحاح : السبات النوم ، وأصله الراحة ، ومنه قوله تعالى وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً. (ع)

والمعنى : ثبتنا وأدمنا على اجتناب عبادتها وَبَنِيَّ أراد بنيه من صلبه. وسئل ابن عيينة : كيف عبدت العرب الأصنام؟ فقال : ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنما ، واحتج بقوله وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم ، قالوا : البيت حجر ، فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت ، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار ، فاستحب أن يقال : طاف بالبيت ، ولا يقال : دار بالبيت إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فأعوذ بك أن تعصمني «1» وبنىّ من ذلك ، وإنما جعلن مضلات ، لأنّ الناس ضلوا بسببهنّ ، فكأنهنّ أضللنهم ، كما تقول : فتنتهم الدنيا وغرّتهم ، أى افتتنوا بها واغتروا بسببها فَمَنْ تَبِعَنِي على ملتي وكان حنيفا مسلما مثلي فَإِنَّهُ مِنِّي أى هو بعضى لفرط اختصاصه بى وملابسته لي ، وكذلك قوله «من غشنا فليس منا» «2» أى ليس بعض المؤمنين ، على أنّ الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي. وقيل : معناه ومن عصاني فيما دون الشرك.

[سورة إبراهيم (14) : آية 37]

رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لعلهم يَشْكُرُونَ (37)

مِنْ ذُرِّيَّتِي بعض أولادى وهم إسماعيل ومن ولد منه بِوادٍ هو وادى مكة غَيْرِ ذِي زَرْعٍ لا يكون فيه شيء من زرع قط ، كقوله قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج ، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت المحرم ، لأنّ اللّه حرم التعرض له والتهاون به ، وجعل ما حوله حرما لمكانه ، أو لأنه لم يزل ممنعا عزيزا يهابه كل جبار ، كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب ، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه ،

(1). قوله «فأعوذ بك أن تعصمني» لعله أن لا تعصمني. (ع)
(2). أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وابن حبان من حديث ابن مسعود وإسحاق والبزار من حديث ابن عمر. والبخاري في التاريخ. والطبراني في الأوسط من حديث البراء. والبزار من حديث عائشة. وابن أبى شيبة من حديث أبى الحمراء. والحاكم من رواية عمير بن سعيد النخعي وابن أبي شيبة من رواية جميع بن عمير عن خالد بن برزة والطبراني من حديث أبى موسى والبيهقي في الشعب من طريق حسين بن عبد الله بن ضمرة عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، كذلك أخرجه البيهقي في الشعب ، وأخرجه الطبراني من هذا الوجه. فلم يذكر عليا. وأخرجه أبو نعيم عن أنس وعن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن أبى ربيعة عن جده به.

ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك ، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع ، مستسعدين بجوارك الكريم ، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك ، والطواف به ، والركوع والسجود حوله ، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ أفئدة من أفئدة الناس ، ومن للتبعيض ، ويدل عليه ما روى عن مجاهد : لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم ، وقيل : لو لم يقل مِنْ لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند. ويجوز أن يكون مِنْ للابتداء ، كقولك : القلب منى سقيم ، تريد قلبي ، فكأنه قيل : أفئدة ناس ، وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة ، لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة. وقرى : آفدة ، بوزن عاقدة. وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون من القلب كقولك : آدر ، في أدؤر. والثاني : أن يكون اسم فاعلة من أفدت الرحلة إذا عجلت ، أى ، جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم. وقرئ: أفدة ، وفيه وجهان : أن تطرح الهمزة للتخفيف ، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين. وأن يكون من أفد تَهْوِي إِلَيْهِمْ تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقا ونزاعا من قوله :

يَهْوِى مَخَارِمَهَا هُوِىَّ الأَجْدَلِ «1»

وقرئ : تهوى إليهم ، على البناء للمفعول ، من هوى إليه وأهواه غيره. وتهوى إليهم ، من هوى يهوى إذا أحب، ضمن معنى تنزع فعدّى تعديته وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ مع سكناهم واديا ما فيه شيء منها ،

(1) فإذا نبذت له الحصاة رأيته ينزو لوقعتها طمور الأخبل
وإذا يهب من المنام رأيته كرتوب كعب الساق ليس بزمل
وإذا رميت به الفجاج رأيته يهوى مخارمها هوى الأجدل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتبلل
لأبى كبير الهذلي ، يصف تأبط شراً بالتيقظ والشجاعة ، يقول : إذا رميت له الحصاة مجرباً له هل هو نائم أو صاح ، ينزو : أى يثب بسرعة ، طمور الأخيل : أى وثوب الأخيل ، أى ينهض كنهوضه : وهو طير تتشاءم منه العرب ، وأصله من التخيل ، وقيل من الخيلاء. ورتب رتوباً : انتصب انتصاباً وارتفع ارتفاعاً ، أى : رأيته يرتفع عن الأرض كارتفاع كعب الساق. والزمل والزمال والزميل - بتشديد الميم فيها - : هو الضعيف الملتف بثيابه ، ثم قال :
وإذا قذفته في نواحي الأمكنة المتسعة ، رأيته يهوى مخارمها ، أى : يسرع في سلوك مسالكها الضيقة ، كهوى الأجدل وهو الصقر ، أى كاسراعه في الطيران. ويروى : الجندل وهو الحجر. والأسرة : خطوط الجبهة جمع سرار. والعارض : السحاب المعترض في الأفق. والمتهلل : اللامع ، أو المرتفع الذي سيمطر. وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت قاعدة أغزل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخصف نعله ، فنحضر جبينه عرفا ، فتولد في عينى نوراً ، فجعلت أنظر إليه فقال : ما تنظرين؟ فقلت له ذلك ، وقلت : أما والله لو رآك الهذلي لعلم أنك أحق بشعره ، فقال : وما قال : قلت : وإذا نظرت ... البيت. فوضع ما في يده وقام فقبل ما بين عينى وقال :
جزاك الله خيرا ، ما سررت كسرورى بكلامك. [.....]

بأن تجلب إليهم من البلاد لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم «1» ولا شجر ولا ماء لا جرم أن الله عز وجلّ أجاب دعوته فجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنه ، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا ، وفي أى بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بواد غير ذى زرع ، وهي اجتماع البواكير والفواكه «2» المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد ، وليس ذلك من آياته بعجيب ، متعنا الله بسكنى حرمه ، ووفقنا لشكر نعمه ، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام ، ورزقنا طرفا من سلامة ذلك القلب السليم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 38 إلى 39]

رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (39)

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى اللّه تعالى إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ تعلم السرَّ كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه ، لأنّ غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك. والمعنى : أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا ، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها ، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب ، وإنما ندعوك إظهارا للعبودية لك ، وتخشعا لعظمتك ، وتذللا لعزتك ، وافتقارا إلى ما عندك ، واستعجالا لنيل أياديك ، وولهاً إلى رحمتك ، وكما يتملق العبد بين يدي سيده ، ورغبة في إصابة معروفه ، مع توفر السيد على حسن الملكة. وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح ، فأراد أن يذكره فقال : مثلك لا يذكر استقصارا ولا توهما للغفلة عن حوائج السائلين ، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها. وقيل : ما نخفى من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة ، وما نعلن من البكاء والدعاء. وقيل : ما نخفى من كآبة الافتراق ، وما نعلن : يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع : إلى من تكلنا؟ قال : إلى اللّه أكلكم. قالت : آللّه أمرك بهذا؟ قال : نعم. قالت : إذن لا نخشى ، تركتنا إلى كاف وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ من كلام اللّه عز وجل تصديقا لإبراهيم عليه السلام ، كقوله وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ أو من كلام إبراهيم ، يعنى : وما يخفى على اللّه الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان. «و من» للاستغراق ، كأنه قيل : وما يخفى عليه شيء ما.

(1). قوله «في واد يباب ليس فيه نجم» أى خراب. والنجم : نبات لا ساق له ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). قوله «و هي اجتماع البواكير والفواكه» الباكورة : أول الفاكهة ، كما في الصحاح. (ع)

عَلَى في قوله عَلَى الْكِبَرِ بمعنى مع ، كقوله :

إِنِّى عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِى أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ «1»

وهو في موضع الحال ، معناه : وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر. روى أنّ إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد له إسحاق وهو ابن مائة وثنتى عشرة سنة ، وقد روى أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين. وإسحاق لتسعين. وعن سعيد بن جبير : لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة ، وإنما ذكر حال الكبر لأنّ المنة بهبة الولد فيها أعظم ، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة. والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر ، ولأنّ الولادة في تلك السنّ العالية كانت آية لإبراهيم إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ كان قد دعا ربه وسأله الولد ، فقال : رب هب لي من الصالحين ، فشكر للّه ما أكرمه به من إجابته فإن قلت : اللّه تعالى يسمع كل دعاء ، أجابه أو لم يجبه. قلت : هو من قولك : سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله. ومنه : سمع اللّه لمن حمده. وفي الحديث «2» «ما أذن اللّه لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن «3»» فإن قلت : ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟ قلت : إضافة الصفة إلى مفعولها ، وأصله لسميع الدعاء. وقد ذكر سيبويه فعيلا في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل ، كقولك : هذا ضروب زيداً ، وضراب أخاه ، ومنحار إبله ، وحذر أموراً ، ورحيم أباه ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله ، ويجعل دعاء اللّه سميعا على الإسناد المجازى.

والمراد سماع اللّه.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 40 إلى 41]

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (41)

وَمِنْ ذُرِّيَّتِي وبعض ذرّيتى ، عطفا على المنصوب في اجعلنى ، وإنما بعض لأنه علم بإعلام اللّه أنه يكون في ذرّيته كفار ، وذلك قوله لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ. وَتَقَبَّلْ دُعاءِ أى عبادتي وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ في قراءة أبىّ : ولأبوىّ. وقرأ سعيد بن جبير :

(1). ترين : أصله ترأيين كتفعلين ، نقلت فتحة الهمزة إلى الراء ، ثم حذفت وحذفت الياء الأولى بعد قلبها ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها. يقول. إنى مع ما تنظرينه من كبرى وهرمى الموجب للخرف عادة ، عارف بالأمور متيقظ لها. وكنى عن ذلك بقوله : أعرف من أين تؤكل الكتف ، أى : أعرف جواب هذا الاستفهام ، ويروى :
من حيث ، فلعل من زائدة. قال بعضهم : تؤكل الكتف من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها ، وهو مثل يضرب للجرب المتفطن للأمور.
(2). متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(3). قوله «كاذنه لنبي يتغنى بالقرآن» في الصحاح : كاذنه لمن يتغنى ... الخ. (ع)

ولوالدي ، على الإفراد ، يعنى أباه. وقرأ الحسن بن على رضى الله عنهما : ولولدىّ ، يعنى إسماعيل وإسحاق. وقرئ : لولدي ، بضم الواو. والولد بمعنى الولد ، كالعدم والعدم. وقيل : جمع ولد ، كأسد في أسد. وفي بعض المصاحف : ولذرّيتى. فإن قلت : كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟ قلت : هو من مجوّزات العقل «1» لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف. وقيل : أراد بوالديه آدم وحواء. وقيل : بشرط الإسلام. ويأباه قوله إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحا لا مقال فيه ، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ أى يثبت ، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل ، والدليل عليه قولهم : قامت الحرب على ساقها. ونحوه قولهم : ترجلت الشمس : إذا أشرقت وثبت ضوؤها ، كأنها قامت على رجل. ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازيا ، أو يكون مثل وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ وعن مجاهد : قد استجاب الله له فيما سأل ، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته ، وجعل البلد آمنا ، ورزق أهله من الثمرات. وجعله إماما ، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة ، وأراه مناسكه ، وتاب عليه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كانت الطائف من أرض فلسطين ، فلما قال إبراهيم رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ الآية، رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 42 إلى 43]

وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (43)

فإن قلت : يتعالى الله عن السهو والغفلة ، فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الناس به غافلا حتى قيل وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا؟ قلت : إن كان خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان. أحدهما التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا ، كقوله وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ، كما جاء في الأمر يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ والثاني : أنّ المراد بالنهى عن حسبانه غافلا ، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون ، لا يخفى عليه منه شيء ، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله : وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ يريد الوعيد. ويجوز أن يراد : ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ،

(1). قوله «هو من مجوزات العقل» يعنى على مذهب المعتزلة أن العقل قد يدرك الحكم بدون شرع ، ومذهب أهل السنة أن لا حكم قبل الشرع حتى يدرك بدونه ، فافهم. (ع)

ولكن معاملة الرقيب عليهم ، المحاسب على النقير والقطمير ، وإن كان خطابا لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلا ، لجهله بصفاته ، فلا سؤال فيه. وعن ابن عيينة : تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، فقيل له. من قال هذا؟ فغضب وقال : إنما قاله من علمه. وقرئ : يؤخرهم ، بالنون والياء تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ أى أبصارهم لا تقرّ في أماكنها من هول ما ترى مُهْطِعِينَ مسرعين إلى الداعي. وقيل : الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ رافعيها لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم ، أى : لا يطرفون ، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان. أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. الهواء : الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ، فوصف به فقيل : قلب فلان هواء إذا كان جبانا لا قوّة في قلبه ولا جرأة. ويقال للأحمق أيضا : قلبه هواء. قال زهير :

مِنَ الظُّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ «1»

لأنّ النعام مثل في الجبن والحمق. وقال حسان :

فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخْبٌ هَوَاءُ «2»

(1) كأن الرحل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء
أصك مصلم الأذنين أجنى له بالسن تنوم وآء
لزهير بن أبى سلمى يصف ناقته. والصعل : المنجرد شعر الرأس والصغير الرأس. والظلمان : جمع ظليم وهو ولد النعام ، والجؤجؤ: الصدر. والهواء : الخالي الفارغ ، وجعل صدره فارغا ليكون أسرع في السير إلى طعامه. والأصك :
الذي تصطك ركبتاه عند المشي لطول رجليه. وصلمه : قطعه. والتصليم : مبالغة. ويقال : أجنى الثمر إذا أدرك ، وأجنت الأرض : كثر كلؤها وخصيها. والسن ، المكان المستوى واسم موضع بعينه. والتنوم - وزن تنور - :
شجر تنفلق كمامه عن حب صغير تأكله أهل البادية ، يغلب على لونه السواد. قيل : وهو شجر الشهدانج. والآء : جنس من الشجر واحده آءة. وقيل : ثمر ذلك الشجر يطلق على نوع من الصوت : والتنوم : فاعل أجنى ، أى كثر له في ذلك المكان هذان النوعان.
(2) ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركت عبيداً وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند اللّه في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
أمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء
فان أبى ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
لحسان يهجو أبا سفيان قبل إسلامه. وألا التنبيه ، والمأمور بالابلاغ غير معين ، وكان الظن أن يقول : فانه ، أى : أبا سفيان ، لكن خاطبه بالذم لأنه أغيظ. ويجوز أن المأمور أبو سفيان ، فهو منادى بحذف حرف النداء.
والمجوف والنخب والهواء : خالي الجوف ، أو فارغ القلب من العقل والشجاعة. وروى بدل هذا الشطر «مغلغلة فقد برح الخفاء» والمغلغلة : الحارة من الغلة بالضم ، وهي شدة العطش والحرارة. وقيل. المنقولة من مكان لآخر ، وبرح كسمع : ذهب وزال. وقيل : ظهر واتضح من براح الأرض وهو البارز منها ، فالخفا بمعنى التستر أو السر.
وإسناد الترك للسيوف مجاز عقلى ، لأنها آلة للفعل. وعبيد بالتصغير قبيلة ، وكذلك عبد الدار ، وسادتها مبتدأ.
والإماء خبره ، والجملة في محل المفعول الثاني لتركت ، أى صيرت عبيداً لا سادة لها إلا النساء ، وصيرت عبد الدار كذلك ، يعنى : أننا أفنينا رجالهما الرؤساء الأشراف ، فأشرافهما النساء لا غير ، بل يجوز أنهم سواء الحرائر أيضاً ، فلم يبق إلا الرقائق. وأتهجوه : استفهام توبيخي ، والواو بعده للحال ، أى : لا ينبغي ذلك شر وخير ، من قبيل أفعل التفضيل ، واختصا بحذف همزتهما تخفيفاً لكثرة استعمالهما ، لكن المراد بهما هنا أصل الوصف لا الزيادة فيه والشر أبو سفيان ، والجملة دعائية ، دعا عليه بأن يكون فداء الرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأبرزه في صورة الإبهام لأجل الانصاف في الكلام ، ولذلك لما سمعه الحاضرون قالوا : هذا نصف بيت قالته العرب ، فعليك بالانصاف وأمن يهجو : استفهام إنكارى ، أى ليس من يهجوه منكم ومن يمدحه وينصره منا مستويين. ويحتمل أن الهمزة للتنبيه ، أو للنداء ، والمنادى محذوف ، أى : يا قوم أبى سفيان إن الذي يهجو رسول اللّه منكم والذي يمدحه وينصره منكم مستويان في عدم الاكتراث بهما وروى : فمن ، ولا بد من تقدير ، أى : من يهجوه ويخذله منكم ليقابل الخذلان النصر كالهجو والمدح، ثم إن في هذا دليلا على جواز حذف الموصول ، وقد أجازه الكوفيون والأخفش ، وتبعهم أبو مالك ، وشرط كونه معطوفا على موصول آخر كما هنا. وقوله : ووالده ، أى والد أمى. ويروى :
ووالدتي. والوقاء : ما يتوقى به المكروه ، كالترس وزن الحزام والرباط للمفعول به الفعل ، فهو إما بمعنى اسم مفعول أو اسم الآلة ، ورأيت في كلام الزمخشري ما يفيد تسمية هذا الوزن باسم المفعول. وفي الهمع ما يفيد أنه جاء شاذا من أوزان الآلة ، كأراث لما تؤرث به النار ، أى تضرم به ، وسراد لما يسرد به ، أى يحزز به. ولما سمع صلى اللّه عليه وسلم قوله «و عند اللّه في ذلك الجزاء» قال : جزاك اللّه الجنة بإحسان. ولما سمع قوله «فان أبى» قال : وقال اللّه حر النار بإحسان. وتقريره صلى اللّه عليه وسلم على المكافأة بالذم ، يدل على الجواز.

وعن ابن جريج أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ صفر من الخير خاوية منه. وقال أبو عبيدة : جوف لا عقول لهم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 44 إلى 47]

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (46) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ (47)

يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ مفعول ثان لأنذر وهو يوم القيامة. ومعنى أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ردّنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب ، نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة

دعوتك واتباع رسلك. أو أريد باليوم : يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ، أو يوم موتهم معذبين بشدّة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى ، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب ، كقوله لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ. أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ على إرادة القول ، وفيه وجهان : أن يقولوا ذلك بطرا وأشرا ، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه ، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنوا شديداً وأمّلوا بعيداً. وما لَكُمْ جواب القسم ، وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله أَقْسَمْتُمْ ولو حكى لفظ المقسمين لقيل : ما لنا مِنْ زَوالٍ والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء. وقيل. لا تنتقلون إلى دار أخرى يعنى كفرهم بالبعث ، كقوله وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ يقال : سكن الدار وسكن فيها. ومنه قوله تعالى وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا

وقرئ : ونبين لكم ، بالنون وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم ، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ أى مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ لا يخلوا إمّا أن يكون مضافا إلى الفاعل كالأوّل ، على معنى : ومكتوب عند اللّه مكرهم ، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه ، أو يكون مضافا إلى المفعول على معنى : وعند اللّه مكرهم الذي يمكرهم «2» به ، وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة ، فضرب زوال الجبال منه مثلا لتفاقمه وشدته ، أى : وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال. معداً لذلك ، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها ، كقوله تعالى وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم ، على أنّ الجبال مثل لآيات اللّه وشرائعه ، لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً.

(1). قوله «و يجوز أن يكون سكنوا» لعله : سكنتم. (ع)
(2). قوله «و عند اللّه مكرهم الذي يمكرهم به» الذي في الصحاح المكر : الاحتيال والخديعة ، وقد مكر به.
والمكر أيضاً : المغرة ، وقد مكره فامتكر ، أي خضبه فاختضب اه ، وهو يفيد أن المكر بمعنى الاحتيال لا يتعدى بنفسه ، فتدبر. (ع)

وتنصره قراءة ابن مسعود : وما كان مكرهم. وقرئ : لتزول ، بلام الابتداء ، على : وإن كان مكرهم من الشدّة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها. وقرأ علي وعمر رضى اللّه عنهما : وإن كاد مكرهم مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ يعنى قوله إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا ، كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي. فإن قلت : هلا قيل : مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المفعول الثاني على الأوّل «1»؟ قلت : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا ، كقوله إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ثم قال رُسُلَهُ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً - وليس من شأنه إخلاف المواعيد - كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟

وقرئ : مخلف وعده رسله ، بجرّ الرسل ونصب الوعد. وهذه في الضعف كمن قرأ «قتل أولادهم شركائهم». عَزِيزٌ غالب لا يماكر ذُو انتِقامٍ لأوليائه من أعدائه.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 48 إلى 51]

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (49) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (51)

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ انتصابه على البدل من يوم يأتيهم. أو على الظرف للانتقام.

والمعنى : يوم تبدّل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة ، وكذلك السموات. والتبديل : التغيير ، وقد يكون في الذوات كقولك : بدّلت الدراهم دنانير. ومنه بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها وبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ وفي الأوصاف ، كقولك : بذلت الحلقة خاتماً ، إذا أذبتها وسويتها خاتماً ، فنقلتها من شكل إلى شكل. ومنه قوله تعالى فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ واختلف في تبديل الأرض والسموات ، فقيل : تبدّل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها. وتسوّى فلا يرى فيها عوج ولا أمت. وعن ابن عباس : هي تلك الأرض وإنما تغير ، وأنشد :

(1). قال محمود : «إن قلت لم قدم المفعول الثاني على الأول ... الخ»؟ قال أحمد : وفيما قاله نظر ، لأن الفعل متى تقيد بمفعول انقطع إطلاقه ، فليس تقديم الوعد في الآية دليلا على إطلاق الفعل باعتبار الموعود ، حتى يكون ذكر الرسل بائناً كالأجنبى من الإطلاق الأول ، ولا فرق في المعنى الذي ذكره بين تقديم ذكر الرسل وتأخيره ولا يفيد تقديم المفعول الثاني إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم والأمر بهذه المثابة في الآية ، لأنها وردت في سياق الانذار والتهديد للظالمين بما توعدهم اللّه تعالى به على ألسنة الرسل ، فالمهم في التهديد ذكر الوعيد. وأما كونه على ألسنة الرسل فذلك أمر لا يقف التخويف عليه ولا بد ، حتى لو فرض التوعد من اللّه تعالى على غير لسان رسول ، لكان الخوف منه حسبياً كافياً ، واللّه أعلم.

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتَهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِى كُنْتَ تَعْلَمُ «1»

وتبدّل السماء بانتثار كواكبها ، وكسوف شمسها ، وخسوف قمرها ، وانشقاقها ، وكونها أبوابا.

وقيل : يخلق بدلها أرض وسموات أخر. وعن ابن مسعود وأنس : يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة. وعن على رضى اللّه عنه : تبدّل أرضا من فضة ، وسموات من ذهب.

وعن الضحاك : أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف. وقرئ : يوم نبدّل الأرض ، بالنون «2».

فإن قلت : كيف قال الْواحِدِ الْقَهَّارِ؟ قلت : هو كقوله لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ لأنّ الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعازّ فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار ، كان الأمر في غاية الصعوبة والشدّة مُقَرَّنِينَ قرن بعضهم مع بعض. أو مع الشياطين.

أو قرنت أيديهم ألى أرجلهم مغللين. وقوله فِي الْأَصْفادِ إمّا أن يتعلق بمقرّنين ، أى :

يقرنون في الأصفاد. وإمّا أن لا يتعلق به ، فيكون المعنى : مقرّنين مصفدين. والأصفاد :

القيود : وقيل الأغلال ، وأنشد لسلامة بن جندل :

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لَاقَى صِفَاداً بَعَضُّ بِسَاعِدٍ وَبِعَظْمِ سَاقِ «3»

القطران : فيه ثلاثة لغات : قطران ، وقطران ، وقطران : بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء ، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ ، فتهنأ به الإبل الجربي ، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته ، والجلد ، وقد تبلغ حرارته الجوف ، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار ، وقد يستسرج به ، وهو أسود اللون منتن الريح ، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص ، لتجتمع عليهم الأربع : لذع القطران. وحرقته ، وإسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ، ونتن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين ، وكل ما وعده اللّه أو وعد به في الآخرة ، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه من لا يقادر قدره ، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى والمسميات ثمة ، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه ، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه.

وقرئ : من قطران ، والقطر : النحاس أو الصفر المذاب. والآنى : المتناهي حرّه وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ كقوله تعالى أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ

(1). يقول : ليس الناس اليوم هم الناس الذين عهدتهم سابقا ، لفناء الأحياء من بينهم ، وليست الدار اليوم هي الدار التي كنت تعلمها ، لتبدل أحوالها وتغير أوصافها.
(2). قوله «و قرئ نبدل الأرض بالنون» لعله ونصب الأرض والسماوات ، فلتحرر. القراءة. (ع)
(3). لسلامة بن جندل. وزيد الخيل : هو الذي سماه النبي صلى اللّه عليه وسلم زيد الخير. قد لاقى : أى نال من أعدائه صفادا ، أى قيدا وغلا. واستعار العض لقرص الصفاد اليابس الصلب على طريق التصريحية ، والباء للإلصاق ، وأقحم لفظ العظم للمبالغة في العض حتى وصل العظم. [.....]

لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب في باطنه ، ولذلك قال تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ وقرئ : وتغشى وجوههم ، بمعنى تتغشى : أى يفعل بالمجرمين ما يفعل لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مجرمة ما كَسَبَتْ أو كل نفس من مجرمة ومطيعة لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم على أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

[سورة إبراهيم (14) : آية 52]

هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (52)

هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ كفاية في التذكير والمواعظة ، يعنى بهذا ما وصفه من قوله فَلا تَحْسَبَنَّ إلى قوله سَرِيعُ الْحِسابِ. وَلِيُنْذَرُوا معطوف على محذوف ، أى لينصحوا ولينذروا بِهِ بهذا البلاغ. وقرئ : ولينذروا ، بفتح الياء ، من نذر

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة إبراهيم أُعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد» «2»

(1). قوله «من نذر به إذا علمه» في الصحاح : نذر القوم بالعدو - بكسر الذال - إذا علموا. (ع)
(2). يأتى إسناده في آخر الكتاب.

سورة الحجر

(مكية [إلا آية 87 فمدنية] وهي تسع وتسعون آية [نزلت بعد سورة يوسف])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحجر (15) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1)

تِلْكَ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والكتاب ، والقرآن المبين : السورة.

وتنكير القرآن للتفخيم. والمعنى : تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأى قرآن مبين ، كأنه قيل : الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

[سورة الحجر (15) : الآيات 2 إلى 3]

رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3)

قرئ : ربما ، وربتما. بالتشديد. وربما ، وربما : بالضم والفتح مع التخفيف. فإن قلت : لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي؟ قلت : لأن المترقب في إخبار اللّه تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه ، فكأنه قيل : ربما ودّ. فإن قلت : متى تكون ودادتهم؟ قلت : عند الموت ، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين. وقيل : إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار ، وهذا أيضاً باب من الودادة. فإن قلت : فما معنى التقليل؟ «1»

(1). قال محمود : «إن قلت : ما معنى تقليل ودادتهم ... الخ»؟ قال أحمد : لا شك أن العرب تعبر عن المعنى بما يؤدى عكس مقصوده كثيراً ، ومنه قوله :
قد أترك القرآن مصفراً أنامله
وإنما يمتدح بالإكثار من ذلك ، وقد عبر بقد المفيدة للتقليل ، ومنه واللّه أعلم. وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ والمقصود توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام على توفر علمهم برسالته ومناصحته لهم ، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك ، فمنهم من وجهه بما ذكره الزمخشري آنفا من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية حتى كاد أن يرجع إلى الضد ، وذلك شأن كل ما انتهى لنهايته أن يعود إلى عكسه. وقد أفصح أبو الطيب ذلك بقوله :
ولجدت حتى كدت تنخل حائلا للمنتهى ومن السرور بكاء
وكلا هذين الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها ، والعمدة في ذلك على سياق الكلام ، لأنه إذا اقتضى مثلا تكثيراً، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل استيقظ السامع بأن المراد المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين ، واللّه أعلم.

قلت : هو وارد على مذهب العرب في قولهم : لعلك ستندم على فعلك ، وربما ندم الإنسان على ما فعل ، ولا يشكون في تندمه ، ولا يقصدون تقليله ، ولكنهم أرادوا : لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل ، لأنّ العقلاء يتحرّزون من التعرّض للغم المظنون ، كما يتحرّزون من المتيقن ومن القليل منه ، كما من الكثير ، وكذلك المعنى في الآية : لو كانوا يودّون الإسلام مرة واحدة ، فبالحرى أن يسارعوا إليه ، فكيف وهم يودّونه في كل ساعة لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ حكاية ودادتهم ، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم ، كقولك : حلف باللّه ليفعلنّ. ولو قيل : حلف باللّه لأفعلنّ ، ولو كنا مسلمين ، لكان حسناً سديداً. وقيل : تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين ، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكوتهم تمنوا ، فلذلك قال ذَرْهُمْ يعنى اقطع طمعك من ارعوائهم ، ودعهم عن النهى عما هم عليه والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة ، وخلهم يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا بدنياهم «1» وتنفيذ شهواتهم ، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال، وأن لا يلقوا في العاقبة إلا خيراً فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ سوء صنيعهم.

والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان ، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه ، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك ، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته ، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندما في العاقبة. وفيه إلزام

[سورة الحجر (15) : الآيات 4 إلى 5]

وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (4) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (5)

وَلَها كِتابٌ جملة واقعة صفة لقرية ، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، كما يقال في الحال : جاءني زيد عليه ثوب ، وجاءني وعليه ثوب. كتاب مَعْلُومٌ مكتوب معلوم ،

(1). قوله «و يتمتعوا بدنياهم» في الصحاح : سميت الدنيا لدنوها ، والجمع دنى ، مثل الكبرى والكبر ، والصغرى والصغر. (ع)

وهو أجلها الذي كتب في اللوح وبين ، ألا ترى إلى قوله ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها في موضع كتابها ، وأنث الأمّة أوّلا ثم ذكرها آخرا ، حملا على اللفظ والمعنى : وقال وَما يَسْتَأْخِرُونَ بحذف «عنه» لأنه معلوم.

[سورة الحجر (15) : آية 6]

وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6)

قرأ الأعمش : يا أيها الذي ألقى عليه الذكر ، «1» وكأن هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء ، كما قال فرعون إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ وكيف يقرّون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون. والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع. وقد جاء في كتاب اللّه في مواضع ، منها فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ وقد يوجد كثيراً في كلام العجم ، والمعنى : إنك لتقول قول المجانين حين تدعى أنّ اللّه نزل عليك الذكر.

[سورة الحجر (15) : آية 7]

لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7)

«لو» ركبت مع «لا» و«ما» لمعنيين : معنى امتناع الشيء لوجود غيره ، ومعنى التحضيض ، وأما «هل» فلم تركب إلا مع «لا» وحدها للتحضيض : قال ابن مقبل :

لَوْ مَا الْحَيَاءُ وَلَوْ مَا الدّينُ عِبْتُكُمَا بِبَعْضِ مَا فِيكُمَا إِذْ عِبْتُمَا عَوَرِى «2»

والمعنى : هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك ، كقوله تعالى لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أو : هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقا كما كانت تأتي الأمم المكذبة برسلها؟.

[سورة الحجر (15) : آية 8]

ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (8)

قرئ : تنزل ، بمعنى تتنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل ، وننزل الملائكة : بالنون ونصب الملائكة إِلَّا بِالْحَقِّ إلا تنزلا ملتبساً بالحكمة والمصلحة ، ولا حكمة في أن تأتيكم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى اللّه عليه وسلم ، لأنكم حينئذ مصدّقون عن اضطرار. ومثله قوله تعالى وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وقيل :

(1). قوله «الذي ألقى عليه الذكر» لعله : إليه. (ع)
(2). لابن مقبل ، ولولا ولو ما : أصلهما «لو» التي تفيد امتناع الشيء لامتناع غيره ، فركبت مع «لا» و«ما» النافيتين. فأفادت معهما امتناع الشيء لوجود غيره ، لأن نفى النفي إثبات ، فان لم يكن لها جواب أفادت معهما في المضارع التحضيض ، وفي غيره

الحق الوحى أو العذاب. وإذاً جواب وجزاء ، لأنه جواب لهم وجزاء لشرط مقدر تقديره :

ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم.

[سورة الحجر (15) : آية 9]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (9)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ رد لإنكارهم واستهزائهم «1» في قولهم يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ولذلك قال : إنا نحن ، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات ، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد صلى اللّه عليه وسلم وبين يديه ومن خلفه رصد ، حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ، بخلاف الكتب المتقدمة ، فإنه لم يتول حفظها. وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فكان التحريف ولم يكل القرآن إلى غير حفظه. فإن قلت : فحين كان قوله إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ رداً لإنكارهم واستهزائهم ، فكيف اتصل به قوله وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ؟ قلت : قد جعل ذلك دليلا على أنه منزل من عنده آية ، لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه. وقيل : الضمير في لَهُ لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كقوله تعالى وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ.

[سورة الحجر (15) : الآيات 10 إلى 11]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (11)

فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ في فرقهم وطوائفهم. والشيعة : الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة. ومعنى أرسلناه فيهم : نبأناه فيهم وجعلناه رسولا فيما بينهم وَما يَأْتِيهِمْ حكاية حال ماضية ، لأنّ «ما» لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال ، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

[سورة الحجر (15) : الآيات 12 إلى 13]

كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13)

يقال : سلكت الخيط في الإبرة ، وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته. وقرئ : نسلكه ،

(1). قال محمود : «هذا رد لانكارهم واستهزائهم ... الخ» قال أحمد : ويحتمل أن يراد حفظه مما يشينه من تناقض واختلاف لا يخلو عنه الكلام المفترى ، وذلك أيضا من الدليل على أنه من عند اللّه ، كما قال تعالى في آية أخرى وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً.

للذكر ، أى : مثل ذلك السلك ، ونحوه : نسلك الذكر في قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ على معنى أنه يلقيه في قلوبهم «1» مكذباً مستهزأً به غير مقبول ، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللئام ، تعنى مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية. ومحل قوله لا يُؤْمِنُونَ بِهِ النصب على الحال ، أى غير مؤمن به. أو هو بيان لقوله كَذلِكَ نَسْلُكُهُ. سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ طريقتهم التي سنها اللّه في إهلاكهم حين كذبوا برسلهم وبالذكر المنزل عليهم ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 14 إلى 15]

وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ(15)

قرئ يَعْرُجُونَ بالضم والكسر. وسُكِّرَتْ حيرت أو حبست من الإبصار ، من السكر أو السكر. وقرئ : سكرت بالتخفيف «2» أى حبست كما يحبس النهر من الجري. وقرئ : سكرت من السكر ، أى حارت كما يحار

(1). قال محمود : «معناه يلقيه في قلوبهم مكذبا به ... الخ» قال أحمد : والمراد والله أعلم إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويدائها ، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين ، فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء كل على علم وفهم ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الاعجاز كما فهمها من آمن ، فأعلمهم الله تعالى من الآن وهم في مهلة وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين غير معذورين ، والله أعلم. ولذلك عقبه الله تعالى بقوله وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ أى هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه ، وولج ذلك في قلوبهم ووقر ، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وشيمتهم اللدد ، حتى لو سلك بهم أوضح السبيل وأدعاها إلى الايمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يفتح لهم بابا في السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منه نهارا. وإلى ذلك الاشارة بقوله فَظَلُّوا لأن الظلول إنما يكون نهارا ، لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف :
إنما سكرت أبصارنا وسحرنا محمد ، وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها ، فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب من عدم سماع ووعى ووصول إلى القلوب ، وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين لأن ذلك كله حاصل لهم وإنما بهم العناد واللدد والإصرار لا غير والله أعلم.
(2). قوله : وقرئ سُكِّرَتْ بالتخفيف : لعل هذا من السكر بالفتح كما أن ما يأتى من السكر بالضم. (ع)

[سورة الحجر (15) : الآيات 16 إلى 20]

وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (17) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (20)

مَنِ اسْتَرَقَ في محل النصب على الاستثناء. وعن ابن عباس : أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات ، فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد منعوا من السموات كلها شِهابٌ مُبِينٌ ظاهر للمبصرين مَوْزُونٍ وزن بميزان الحكمة ، وقدّر بمقدار تقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان ، أو له وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة. وقيل : ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها مَعايِشَ بياء صريحة ، بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما ، فإن تصريح الياء فيها خطأ ، والصواب الهمزة ، أو إخراج الياء بين بين. وقد قرئ : معايش ، بالهمزة على التشبيه وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ عطف على معايش ، أو على محل لكم ، كأنه قيل : وجعلنا لكم فيها معايش ، وجعلنا لكم من لستم له برازقين ، أو : وجعلنا لكم معايش ولمن لستم له برازقين. وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون ، فإنّ الله هو الرزاق ، يرزقهم وإياهم ، ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة ، مما الله رازقه ، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرازقون. ولا يجوز أن يكون مجرورا عطفاً على الضمير المجرور في لَكُمْ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور.

[سورة الحجر (15) : آية 21]

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21)

ذكر الخزائن تمثيل. والمعنى : وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به ، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له ، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور.

[سورة الحجر (15) : آية 22]

وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (22)

لَواقِحَ فيه قولان ، أحدهما : أنّ الريح لا قح إذا جاءت بخير ، من إنشاء سحاب ماطر كما قيل التي لا تأتى بخير: ريح عقيم. والثاني : أن اللواقح بمعنى الملاقح ، كما قال :

وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ «1»

يريد المطاوح جمع مطيحة. وقرئ : وأرسلنا الريح ، على تأويل الجنس فَأَسْقَيْناكُمُوهُ فجعلناه لكم سقيا وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ كأنه قال : نحن الخازنون للماء ، على معنى : نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها ، وما أنتم عليه بقادرين : دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 23 إلى 25]

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)

وَنَحْنُ الْوارِثُونَ أى الباقون بعد هلاك الخلق كله. وقيل للباقي «وارث» استعارة من وارث الميت ، لأنه يبقى بعد فنائه. ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم في دعائه «و اجعله الوارث منا» «2» وَلَقَدْ عَلِمْنَا من استقدم ولادة وموتاً ، ومن تأخر من الأوّلين والآخرين.

أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد. أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة ومن تأخر.

(1) ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح
لضرار بن نهشل يرثى أخاه يزيد بن نهشل. وقيل : غير ذلك. وليبك : مبنى للمفعول ، واللام للطلب ، ويزيد نائب الفاعل ، وضارع فاعل لفعل محذوف ، وفي الكلام سؤال مقدر ، كأنه قيل : من يبكيه؟ فقيل يبكيه ضارع وهو الدليل ، ومختبط وهو السائل ، كأنه يختبط أبواب المسئولين. وما مصدرية ، وتطيح تهلك. وقال الجوهري : طوحته الطوايح قذفته القواذف ، ولا يقال : المطوحات ، وهو من النوادر ، والقياس المطيحات من أطاح. أو المطوحات من طوح.
وقال الأصمعى : هو جمع طائحة. يقال : ذهبت طائحة من العرب أى طائفة منها. أى : يبكيه المختبط من أجل إهلاك الطوائح ماله ، فما متعلق بمختبط. وقيل : يجوز تعلقه بالفعل المقدر ، كقوله الخصومة. ونقل العصام عن العارف الرومي : أن يزيد منادى ، وحرف النداء محذوف ، وضارع نائب الفاعل ، لأن الضارع والمختبط أحق بالبكاء عليهما بعد يزيد الذي كان يغيثهما. وروى ليبك يزيد بالبناء للفاعل ونصب يزيد ، فضارع فاعل للفعل المذكور ، ولو ضم يزيد على النداء لجاز هنا أيضا ، أى : ليبك عليك يا يزيد ضارع ومختبط.
(2). أخرجه الترمذي والنسائي والبزار. والحاكم من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما قال «فلما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات : اللهم اقسم لنا من خشيتك - الحديث» وفيه «و اجعله الوارث منا» قال الترمذي : حديث حسن وقال البزار : تفرد به عبد اللّه بن رواحة. وهو واهى الحديث ، وأخرج من رواية حبيب بن أبى ثابت عن عروة عن عائشة «أنه صلى اللّه عليه وسلم كان يقول : اللهم عافني في جسدي ، وعافني في بصرى ، واجعله الوارث منى» وأخرجه أبو يعلى أيضا ، وفي الترمذي والحاكم من حديث أبى هريرة قال «كان من دعاء النبي صلى اللّه عليه وسلم : اللهم متعني بسمعي وبصرى واجعلهما الوارث منى» وفي الطبراني والأوسط عن على رضى اللّه عنه قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يدعو - فذكر مثله.

وقيل : المستقدمين في صفوف الجماعة والمستأخرين. وروى أن امرأة حسناء كانت في المصليات خلف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فكان بعض القوم يستقدم لئلا ينظر إليها ، وبعض يستأخر ليبصرها فنزلت «1» هُوَ يَحْشُرُهُمْ أى هو وحده القادر على حشرهم ، والعالم بحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ باهر الحكمة واسع العلم ، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب ، وقد أحاط علماً بكل شيء.

[سورة الحجر (15) : الآيات 26 إلى 27]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (27)

الصلصال : الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ ، وإذا طبخ فهو فخار. قالوا : إذا توهمت في صوته مدّا فهو صليل ، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة. وقيل : هو تضعيف «صل» إذا أنتن. والحمأ : الطين الأسود المتغير. والمسنون : المصوّر ، من سنة الوجه «2» ، وقيل : المصبوب المفرغ ، أى : أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها. وقيل : المنتن ، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به ، فالذي يسيل بينهما سنين ، ولا يكون إلا منتنا مِنْ حَمَإٍ صفة لصلصال ، أى : خلقه من صلصال كائن من حمأ وحق مَسْنُونٍ بمعنى مصور ، أن يكون صفة لصلصال ، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل ، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر وَالْجَانَّ للجن كآدم للناس. وقيل : هو إبليس. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : والجأن ، بالهمز مِنْ نارِ السَّمُومِ من نار الحرّ الشديد النافذ في المسام. قيل : هذه السموم جزء من سبعين جزأ من سموم النار التي خلق اللّه منها الجانّ.

[سورة الحجر (15) : الآيات 28 إلى 44]

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32)

قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (35) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37)إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)

(1). أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وأبو يعلى وأحمد والبزار والطبري وابن أبى حاتم من رواية أبى الجوزاء أوس بن عبد الله عن ابن عباس. قال «كانت امرأة حسناء من أحسن الناس تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لأن لا يراها أو يستأخر بعضهم حتى يكون في الصف الآخر. فإذا ركع نظر من تحت إبطه. فأنزل الله هذه الآية. قال البزار : لا نعلم رواه ابن عباس ولا له طريق إلا هذه. وقال الترمذي : روى عن أبى الجوزاء مرسلا ، وهو أشبه اه.
(2). قوله «من سنة الوجه» في الصحاح : سنة الوجه صورته. (ع)

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ واذكر وقتقوله سَوَّيْتُهُ عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها. ومعنى وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وأحييته ، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه. واستثنى إبليس من الملائكة ، لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود ، فغلب اسم الملائكة ، ثم استثنى بعد التغليب كقولك : رأيتهم إلا هنداً. وأَبى استئناف على تقدير قول قائل يقول : هلا سجد؟ فقيل : أبى ذلك واستكبر عنه. وقيل : معناه ولكن إبليس أبى. حرف الجر مع «أن» محذوف. وتقديره «مالك» في أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ بمعنى أىّ غرض لك في إبائك السجود. وأى داع لك إليه. اللام في لِأَسْجُدَ لتأكيد النفي.

ومعناه : لا يصحّ منى وينافي حالى. ويستحيل أن أسجد لبشر رَجِيمٌ شيطان من الذين يرجمون بالشهب ، أو مطرود من رحمة الله ، لأن من يطرد يرجم بالحجارة. ومعناه : ملعون ، لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في مِنْها راجع إلى الجنة أو السماء ، أو إلى جملة الملائكة. وضرب يوم الدين حداً للعنة ، إما لأنه غاية يضربها الناس في كلامهم ، كقوله ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ في التأبيد. وإما أن يراد أنك مذموم مدعوّ عليك باللعن في السموات والأرض إلى يوم الدين ، من غير أن تعذب ، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه. ويَوْمِ الدِّينِ ويَوْمِ يُبْعَثُونَ ويَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ في معنى واحد ، ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة. وقيل : إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت ، لأنه لا يموت يوم البعث أحد ، فلم يجب إلى ذلك ، وأُنظر إلى آخر أيام التكليف بِما أَغْوَيْتَنِي الباء للقسم. و«ما» مصدرية وجواب القسم لَأُزَيِّنَنَّ المعنى : أقسم بإغوائك إياى لأزينن لهم. ومعنى إغوائه إياه : تسبيبه لغيه ، بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام ، فأفضى ذلك إلى غيه. وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله ، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك ، والله تعالى بريء من غيه «1» ومن إرادته والرضا به ، ونحو قوله بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ : قوله فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ في أنه إقسام ، إلا أن أحدهما إقسام بصفته والثاني إقسام بفعله ، وقد فرق الفقهاء بينهما. ويجوز أن لا يكون قسما ، ويقدر قسم محذوف ، ويكون المعنى : بسبب تسبيبك لإغوائى أقسم لأفعلنّ بهم نحو ما فعلت بى من التسبيب لإغوائهم ، بأن أزين لهم المعاصي وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم فِي الْأَرْضِ في الدنيا التي هي دار الغرور ، كقوله تعالى أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ أو أراد أنى أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء ، فأنا علىّ التزيين لأولاده في الأرض أقدر. أو أراد : لأجعلنّ مكان التزيين عندهم الأرض ، ولأوقعن تزييني فيها ، أى : لأزيننها في أعينهم ولأحدّثنهم بأنّ الزينة في الدنيا وحدها ، حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها دونها. ونحوه : يَجْرَحْ فِى عَرَاقِيبِهَا نَصْلِى «2»

(1). قوله «و الله تعالى بريء من غيه» هذا على مذهب المعتزلة : أن الله لا يريد الشر ولا يخلقه. ومذهب أهل السنة : أن كل كائن فهو يخلقه تعالى وإرادته ، خيراً كان أو شرا ، وإن كان لا يرضى الشر من العبد ، وتفصيله في التوحيد. (ع) [.....]
(2) وما لام من يوم أخ وهو صادق إخالى ولا اعتلت على ضيفها إبلى
إذا كان فيها الرسل لم تأت دونه فصالى ولو كانت عجافا ولا أهلى
وإن تعتذر بالمحل عن ذى ضروعها إلى الضيف يجرح في عراقيبها نصلى
لذي الرمة يمدح نفسه ، والإخاء مصدر آخاه ، كالوفاق مصدر وافقه ، والصحاب مصدر صاحبه ، وزنا ومعنى.

يقول : وما لام أخ من يوم أى في يوم. وعبر بمن لإشعارها بالاستغراق. أى : لم يلم ، والحال أنه صادق في لومه ، أو في أخوته مصاحبة لي معه ، وقصر الإخاء للوزن ، وضمن لام معنى عاب ، فعداه إليه. ويجوز أن إيقاع اللوم عليه مجاز عقلى ، لأن الإخاء كأنه محل اللوم ، ولا اعتلت أى أبدت لضيفها علة في التأخر عن قراه ، وإسناد الفعل للإبل وإضافة الضيف إليها لأنها محل قراه ، وذلك كناية عن غاية كرمه ، ويجوز أن إسناد الفعل إليها مجاز عقلى ، لأنها سبب في اعتلال صاحبها للضيف عنها إذا كان بخيلا ، وإضافة الضيف إليها ترشيح لذلك. ويحتمل أنه شبه الإبل بالكرماء على طريق المكنية ، فذلك تخييل ، وبين عدم الاعتلال بقوله «إذا كان فيها الرسل» وهو اللبن القليل ، ويطلق على الجمل السهل ، لم تأت دونه : أى قريبا من اللبن.
فصالى : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة. ونفى قربها كناية عن نفى ارتضاعها له ، ولو كانت عجافا : أى مهازيل ، ولا أهلى : ولا جياعا ، وإن تعتذر الإبل بالمحل والجدب ، عن ذى ضروعها : كناية عن اللبن ، لأنه ملازم للضروع يجرح نصلى : أى سيفي أو سهمي في عراقيبها ، وهي بمنزلة الركب للإنسان ، وإسناد الاعتذار إليها مجاز ، وكذلك إسناد الجرح للنصل ، لأنه آلته. ومعنى الجرح في العراقيب : أنه يجعلها مكانا معداً له ، ولو قال : يجرح عراقيبها ، لفات ذلك المعنى. وقيل : ضمنه معنى يعثو أى يفد ، وكانت عادة العرب أن يفصدوا الإبل ويجمعوا دماءها ويضعوها على النار فتصير كالكبد ، ويقرون بها الضيفان في الجدب ، فحرمه اللّه : ويجوز أنه كناية عن نحرها ، لأنهم كانوا يعقرون الجمل الصعب قبل نحره ليسهل عليهم ، وهذا هو الذي يقتضيه مقام المدح.

استثنى المخلصين ، لأنه علم أنّ كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه. أى هذا طريق حق عَلَيَّ أن أراعيه ، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي ، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته : وقرئ علىّ ، وهو من علو الشرف والفضل لَمَوْعِدُهُمْ الضمير للغاوين. وقيل : أبواب النار أطباقها وأدراكها ، فأعلاها للموحدين ، والثاني لليهود ، والثالث للنصارى ، والرابع للصابئين ، والخامس للمجوس ، والسادس للمشركين ، والسابع للمنافقين. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : إن جهنم لمن ادعى الربوبية ، ولظى لعبدة النار ، والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود، والسعير للنصارى ، والجحيم للصابئين ، والهاوية للموحدين. وقرئ : جزء ، بالتخفيف والتثقيل. وقرأ الزهري: جزّ ، بالتشديد ، كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاى ، كقولك : خبّ في خبء ، ثم وقف عليه بالتشديد ، كقولهم : الرجل ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

[سورة الحجر (15) : الآيات 45 إلى 48]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (47) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (48)

المتقى على الإطلاق : من يتقى ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما :

اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها ادْخُلُوها على إرادة القول.

وقرأ الحسن : أدخلوها بِسَلامٍ سالمين أو مسلما عليكم : تسلم عليكم الملائكة. الغل : الحقد الكامن في القلب ، من انغل في جوفه وتغلغل ، أىً : إن كان لأحدهم في الدنيا غلّ على آخر نزع اللّه ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم. وعن علىّ رضى اللّه عنه : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. وعن الحرث الأعور : كنت جالساً عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له علىّ : مرحبا بك يا ابن أخى. أما واللّه إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال اللّه تعالى وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فقال له قائل : كلا ، اللّه أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد ، فقال : فلمن هذه الآية لا أمّ لكَ «1»؟ وقيل : معناه طهر اللّه قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ، ونزع منها كل غل ، وألقى فيها التوادّ والتحاب. وإِخْواناً نصب على الحال. وعَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ كذلك. وعن مجاهد. تدور بهم الأسرة حيثما داروا ، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين.

[سورة الحجر (15) : الآيات 49 إلى 50]

نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (50)

لما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه نَبِّئْ عِبادِي تقريراً لما ذكر وتمكيناً له في النفوس.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : غفور لمن تاب ، وعذابه لمن لم يتب. وعطف وَنَبِّئْهُمْ على نبئ عبادي ، ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط اللّه وانتقامه من المجرمين ، ويتحققوا عنده أنّ عذابه هو العذاب الأليم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 51 إلى 56]

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (53) قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (55) قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (56)

سَلاماً أى نسلم عليك سلاماً ، أو سلمت سلاماً وَجِلُونَ خائفون ، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل. وقيل : لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت. وقرأ الحسن : لا توجل ، بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه. وقرئ : لا تأجل. ولا تواجل ، من واجله بمعنى أوجله.

وقرئ نُبَشِّرُكَ بفتح النون والتخفيف إِنَّا نُبَشِّرُكَ استئناف في معنى التعليل للنهى عن الوجل :

(1). أخرجه الطبراني في الأوسط والعقيلي وابن سعد من طريق الحارث الأعور قال : كنت عند على بن أبى طالب إذ جاءه عمران بن طلحة فذكره - وفيه «فقال الحرث - يعنى الراوي - : الله أجل وأعدل من ذلك وله طريق أخرى أخرجها الحاكم من طريق ربعي بن خراش قال «إنى لعند على جالس إذ جاءه ابن طلحة ، فسلم عليه فرحب به ، فقال : ترحب بى يا أمير المؤمنين ، وقد قلت والدي ، وأخذت مالى؟ قال : أما مالك فهو معزول في بيت المال ، أعد إليه فخذه. وأما أبوك فانى أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ الآية فقال رجل من همدان ، فذكره. ورواه الحاكم أيضا والطبري من طريق أبى حبيبة مولى طلحة قال : دخل عمران بن طلحة على على رضى الله عنه. وذكر نحوه.

أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل. يعنى أَبَشَّرْتُمُونِي مع مس الكبر ، بأن يولد لي. أى : أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر فَبِمَ تُبَشِّرُونَ هي ما الاستفهامية ، دخلها معنى التعجب ، كأنه قال : فبأى أعجوبة تبشروني. أو أراد : أنكم تبشروننى بما هو غير متصوّر في العادة ، فبأى شيء تبشرون ، يعنى : لا تبشروننى في الحقيقة بشيء ، لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء. ويجوز أن لا يكون صلة لبشر ، ويكون سؤالا عن الوجه والطريقة يعنى : بأى طريقة تبشروننى بالولد ، والبشارة به لا طريقة لها في العادة. وقوله بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ يحتمل أن تكون الباء فيه صلة ، أى : بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه ، أو بشرناك بطريقة هي حق وهي قول الله ووعده ، وأنه قادر على أن يوجد ولداً من غير أبوين ، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر. وقرئ : تبشرون ، بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع ، والأصل تبشرونن ، وتبشرونِّ «1» بإدغام نون الجمع في نون العماد. وقرئ : من القنطين ، من قنط يقنط. وقرئ : ومن يقنط ، بالحركات الثلاث في النون ، أراد : ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب ، أو إلا الكافرون ، كقوله لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ يعنى : لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته ، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها الله.

[سورة الحجر (15) : الآيات 57 إلى 60]

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (60)

فإن قلت قوله تعالى : إِلَّا آلَ لُوطٍ استثناء متصل أو منقطع؟ «2». قلت ، لا يخلو من من أن يكون استثناء من قوم ، فيكون منقطعاً ، لأنّ القوم موصوفون بالإجرام ، فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين ، فيكون متصلا ، كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم ، كما قال فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. فإن قلت : فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟ قلت : نعم ، وذلك أنّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال ، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلا. ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين ، كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمىّ. في أنه في معنى التعذيب

(1). قوله «و تبشرون» بكسر النون والتشديد. قاله النسفي. (ع)
(2). قال محمود : «إن قلت هل الاستثناء الأول متصل ... الخ» قال أحمد : وجعله الأول منقطعاً أولى وأمكن ، وذلك أن في استثنائهم من الضمير العائد على قوم منكرين بعداً ، من حيث أن موقع الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل المستثنى في حكم الأول ، وهذا الدخول متعذر من التنكير ، ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى منها إلا في سياق نفى ، لأنها حينئذ أعم ، فيتحقق الدخول لولا الاستثناء ، ومن ثم لم يحسن رأيت قوماً إلا زيداً وحسن ما رأيت أحداً إلا زيداً ، والله أعلم.

والإهلاك ، كأنه قيل : إنا أهلكنا قوما مجرمين ، ولكن آل لوط أنجيناهم. وأمّا في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال ، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء ، فلا يكون الإرسال مخلصا

فقوله إِلَّا امْرَأَتَهُ ممّ استثنى ، وهل هو استثناء من استثناء؟ قلت : استثنى من الضمير المجرور في قوله لَمُنَجُّوهُمْ وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء ، لأنّ الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، وأن يقال : أهلكناهم إلا آل لوط ، إلا امرأته ، كما اتحد الحكم في قول المطلق : أنت طالق ثلاثاً ، إلا اثنتين ، إلا واحدة. وفي قول المقرّ : لفلان عليّ عشرة دراهم ، إلا ثلاثة ، إلا درهما. فأمّا في الآية فقد اختلف الحكمان ، لأنّ إِلَّا آلَ لُوطٍ متعلق بأرسلنا ، أو بمجرمين.

وإِلَّا امْرَأَتَهُ قد تعلق بمنجوهم ، فأنى يكون استثناء من استثناء. وقرئ لَمُنَجُّوهُمْ بالتخفيف والتثقيل. فإن قلت : لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ «2» والتعليق من خصائص أفعال القلوب؟ قلت : لتضمن فعل التقدير معنى العلم ، ولذلك فسر العلماء تقدير اللّه أعمال العباد بالعلم. فإن قلت : فلم أسند الملائكة فعل التقدير - وهو للّه وحده - إلى أنفسهم ، ولم يقولوا : قدّر اللّه؟ قلت : لما لهم من القرب والاختصاص باللّه الذي ليس لأحد غيرهم ، كما يقول خاصة الملك : دبرنا كذا وأمرنا بكذا ، والمدبر والآمر هو الملك لا هم ، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه. وقرئ : قدرنا ، بالتخفيف.

(1). قوله «فلا يكون الإرسال مخلصا» لعله : مختصا. (ع)
(2). عاد كلامه. قال محمود : «فان قلت لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ الخ» قال أحمد : وهذه أيضاً من دفائنه الاعتزالية في جحد القضاء والقدر ، واعتقاد أن الأمر أنف ، لأنهم لا يعتقدون أن اللّه تعالى مريد لأكثر أفعال عبيده من معصية ومباح ونحوهما ولا مقدر لها على العبيد ، بمعنى أنه مريد ولكنه عالم بما سيفعلونه على خلاف مشيئته وإرادته. فالتقدير عندهم هو العلم لا الارادة ، ثم استدل على أن التقدير هو العلم بتقدير فعله عن العمل ، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته ، فانظر إلى بعد غوره ودقة فطنته في ابتغاء آية يلفقها ويعاند بها البراهين الواضح فلقها ، وفي كلامه شاهد على رده ، فان التقدير عنده مضمن معنى العلم ، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر : أن يبقى على معناه الأصلى ، مضافا إليه المعنى الطارئ فيفيدهما جميعاً ، فالتقدير إذاً كما أفاد العلم الطارئ يفيد الارادة أصلا ووضعاً. واللّه أعلم ، على أن من الناس من جعل قوله تعالى قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ من كلامه تعالى غير محكي عن الملائكة ، وهو الظاهر ، فان الذي يجعله من قول الملائكة يحتاج في نسبتهم التقدير إلى أنفسهم إلى تأويل ، ويجعله من باب قول خواص الملك : دبرنا كذا ، وأمرنا بكذا ، وإنما يعنون دبر الملك وأمر ، وبذلك أولة الزمخشري. وإن كان أصله لا يحتاج معه إلى التأويل ، لأنه إذا جعل قدرنا بمعنى علمنا إنها لمن الغابرين ، فلا غرو في علم الملائكة ذلك باخبار اللّه تعالى إياهم به ، وإنما يحتاج إلى التأويل : من جعل قدرنا بمعنى أردنا وقضينا وجعله من قول الملائكة ، واللّه أعلم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 61 إلى 66]

فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66)

مُنْكَرُونَ أى تنكركم نفسي وتنفر منكم ، فأخاف أن تطرقوني بشرّ ، بدليل قوله بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ أى ما جئناك بما تنكرنا لأجله ، بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوّك ، وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله ، فيمترون فيه ويكذبونك بِالْحَقِّ باليقين من عذابهم وَإِنَّا لَصادِقُونَ في الإخبار بنزوله بهم. وقرئ: فأسر ، بقطع الهمزة ووصلها ، من أسرى وسرى. وروى صاحب الإقليد : فسر ، من السير والقطع في آخر الليل. قال : افْتَحِي الْبَابَ وَانْظُرِي فِي النُّجُومِ كَمْ عَلَيْنَا مِن قِطعِ لَيْلٍ بَهِيمِ «1»

وقيل : هو بعد ما يمضى شيء صالح من الليل. فإن قلت : ما معنى أمره باتباع أدبارهم «2» ونهيهم عن الالتفات؟ قلت قد بعث اللّه الهلاك على قومه ، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم ، وخرج مهاجراً فلم يكن له بدّ من الاجتهاد في شكر اللّه وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك ، فأمر بأن يقدّمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم ، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب ،

(1). يقول لصاحبته وكان يحب طول الليل ويدعيه : افتحي باب البيت وانظري وتأملى في النجوم ، أمالت جهة الغرب أم لا؟ وكم : يحتمل أنها خبرية التكثير ، ويحتمل أنها استفهامية ، ثم يحتمل أنها مستأنفة ، ويحتمل أن الفعل قبلها معلق عن العمل في لفظها لأن لها الصدارة. والمراد من هذا الأمر طلب إخباره بما تعلمه بعد النظر من جواب الاستفهام المذكور. وقطع الليل : ظلمته. وقال في الصحاح : ظلمة آخره ، والمراد به هنا جزء الليل.
والبهيم : شديد الظلام لانبهام الأشياء فيه ، ووصفه بذلك ملائم للمقام.

(2). قال محمود : «إن قلت : ما معنى أمره باتباع أدبارهم ... الخ» قال أحمد : ولبعض هذه المقاصد عاتب الله تعالى نبيه موسى عليه السلام حيث تقدم قومه فقال وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى والله أعلم.

وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدّم سربه ويفوت به ، ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب «1» فيرقوا لهم ، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة «2» ويطيبوها عن مساكنهم ، ويمضوا قدماً «3» غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوى إليه أخادعه ، كما قال :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَىّ حَتّي وَجَدتُنِى وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعَا «4»

أو جعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف ، لأنّ من يلتفت لا بدّ له في ذلك من أدنى وقفة حَيْثُ تُؤْمَرُونَ قيل : هو مصر ، وعدّى وَامْضُوا إلى حَيْثُ تعديته إلى الظرف المبهم ، لأن حَيْثُ مبهم في الأمكنة ، وكذلك الضمير في تُؤْمَرُونَ وعدى قَضَيْنا بإلى لأنه ضمن معنى : أوحينا ، كأنه قيل : وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً. وفسر ذلِكَ الْأَمْرَ بقوله أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له. وقرأ الأعمش : إن ، بالكسر على الاستئناف ،

(1). عاد كلامه. قال : «و إنما نهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب ... الخ» قال أحمد :
ولقد شملت هذه الآية على وجازتها آداب المسافرين لمهم دينى أو دنيوى ، من الآمر والمأمور والتابع والمتبوع ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ.
(2). قوله «و ليوطنوا نفوسهم عل المهاجرة ويطيبوها عن مساكنهم» لعل فيه تقديما ، والأصل : على المهاجرة عن مساكنهم ويطيبوها ، فليحرر. (ع)
(3). قوله «و يمضوا قدما» في الصحاح «مضى قدماء بضم الدال : لم يعرج ولم ينثن. (ع)
(4) ولما رأيت البشر أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنن نزعا
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا
للصمة بن عبد الله بن طفيل بن الحرث ، والبشر : السرور وما به السرور ، وأعرض : ظهر أمامنا ، وحالت - بالمهملة - أى صارت حائلا بيننا وبين البشر ومنعتنا عنه ، وبكت : جواب لما ، وخص اليسرى أولا ، لأنه كان أعور. ويروى : جالت ، بالجيم أى حامت خواطر القلب الناشئة من الشوق في قلبي ، حال كونها نحن إلى المحبوبة ، نازعات شائقات إليها ، يقال : نزع نزوعا إذا مال قلبه واشتاق إلى حبه. والنزع : جمع نازع ، فشبه الخواطر بالبنات على طريق التصريحية ، لتولدها من الشوق وإثبات الجولان والحنين ، والنزوع ترشيح ، لأن الأول خاص بالمحسوس ، والأخيران بالمدرك. وإسناد الحنين والنزوع إليها مجاز عقلى ، لأنهما في الحقيقة لمحلها وهو القلب ، بل الشخص وهو سببها. والجهل ضد الحلم. أسبلتا : سالت دموعهما ، وإسناد البكاء للعين مجازاً ، ومعناه دمعت عينى ، فيجوز تشبيهها بالإنسان على طريق المكنية ، وزجرها ترشيح ، وجهلها وحلمها تخييل ، وتلفت : أى أكثرت الالتفات جهة الحي ، حتى وجع ليتى وأخدعى. يقال : وجع وجعا كتعب تعبا. والليت - بالكسر - : صفحة العنق. والأخدع : عرق فيها ، وهما تمييزان محولان عن الفاعل ، وذلك مبالغة في كثرة التلفت.

كأن قائلا قال : أخبرنا عن ذلك الأمر ، فقال : إنّ دابر هؤلاء. وفي قراءة ابن مسعود : وقلنا إنّ دابر هؤلاء. ودابرهم : آخرهم ، يعنى : يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

[سورة الحجر (15) : الآيات 67 إلى 77]

وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (69) قالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (70) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

أَهْلُ الْمَدِينَةِ أهل سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور ، مستبشرين بالملائكة فَلا تَفْضَحُونِ بفضيحة ضيفي ، لأنّ من أساء إلى ضيفه أو جاره فقد أساء إليه ، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم وَلا تُخْزُونِ ولا تذلون بإذلال ضيفي ، من الخزي وهو الهوان. أو ولا تشوّروا «1» بى ، من الخزاية وهي الحياء عَنِ الْعالَمِينَ عن أن تجير منهم أحداً ، أو تدفع عنهم ، أو تمنع بيننا وبينهم ، فإنهم كانوا يتعرّضون لكل أحد ، وكان يقوم صلى الله عليه وسلم بالنهى عن المنكر ، والحجر بينهم وبين المتعرّض له ، فأوعدوه وقالوا : لئن لم تنته يا لوط لتكوننّ من المخرجين. وقيل : عن ضيافة الناس وإنزالهم ، وكانوا نهوه أن يضيف أحداً قط هؤُلاءِ بَناتِي إشارة إلى النساء ، لأنّ كل أمّة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته ، فكأنه قال لهم : هؤلاء بناتي فانكحوهنّ ، وخلوا بنىّ فلا تتعرضوا لهم إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ شك في قبولهم لقوله ، كأنه قال : إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل : إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرّم لَعَمْرُكَ على إرادة القول ، أى قالت

(1). قوله «و لا تشوروا بى» في الصحاح «الشوار» فرج المرأة والرجل. ومنه قيل : شور به ، أى كأنه أبدى عورته (ع)

فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك. وقيل : الخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له ، والعمرو العمر واحد ، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه ، وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم ، ولذلك حذفوا الخبر ، وتقديره : لعمرك مما أقسم به ، كما حذفوا الفعل في قولك : باللّه. وقرئ : في سكرهم وفي سكراتهم الصَّيْحَةُ صيحة جبريل عليه السلام مُشْرِقِينَ داخلين في الشروق وهو بزوع الشمس مِنْ سِجِّيلٍ قيل : من طين ، عليه كتاب من السجل. ودليله قوله تعالى :

حِجارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ أى معلمة بكتاب لِلْمُتَوَسِّمِينَ للمتفرّسين المتأملين.

وحقيقة المتوسمين النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء. يقال : توسمت في فلان كذا ، أى عرفت وسمه فيه. والضمير في عالِيَها سافِلَها لقرى قوم لوط وَإِنَّها وإنّ هذه القرى يعنى آثارها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد ، وهم يبصرون تلك الآثار ، وهو تنبيه لقريش كقوله وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ.

[سورة الحجر (15) : الآيات 78 إلى 79]

وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (79)

أَصْحابُ الْأَيْكَةِ قوم شعيب وَإِنَّهُما يعنى قرى قوم لوط والأيكة. وقيل : الضمير للأيكة ومدين ، لأنّ شعيباً كان مبعوثاً إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ لبطريق واضح ، والامام اسم لما يؤتم به ، فسمى به الطريق ومطمر البناء واللوح الذي يكتب فيه ، لأنها مما يؤتم به.

[سورة الحجر (15) : الآيات 80 إلى 84]

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (81) وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (84)

أَصْحابُ الْحِجْرِ ثمود ، والحجر واديهم ، وهو بين المدينة والشأم الْمُرْسَلِينَ يعنى بتكذيبهم صالحاً ، لأنّ من كذب واحداً منهم فكأنهما كذبهم جميعاً ، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين ، كما قيل : الخبيبون في ابن الزبير وأصحابه. وعن جابر : مررنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم «1» على الحجر،

(1). لم أجده من حديث جابر ، وهو في الصحيح من حديث ابن عمر بهذا اللفظ دون قوله «ناقته» وفي رواية:
أن ذلك كان في غزوة تبوك. [.....]

فقال لنا «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ، حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء» ثم زجر النبي صلى اللّه عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها آمِنِينَ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تتهدم ويتداعى بنيانها ، ومن نقب اللصوص ومن الأعداء وحوادث الدهر. أو آمنين من عذاب اللّه يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه ما كانُوا يَكْسِبُونَ من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد.

[سورة الحجر (15) : آية 85]

وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85)

إِلَّا بِالْحَقِّ إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة ، لا باطلا وعبثاً. أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ وإنّ اللّه ينتقم لك فيها من أعدائك ، ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم ، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك فَاصْفَحِ فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلا بحلم وإغضاء. وقيل : هو منسوخ بآية السيف.

ويجوز أن يراد به المخالقة «1» فلا يكون منسوخاً.

[سورة الحجر (15) : آية 86]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86)

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الذي خلقك وخلقهم ، وهو الْعَلِيمُ بحالك وحالهم ، فلا يخفى عليه ما يجرى بينكم وهو يحكم بينكم. أو إن ربك هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم ، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح. وفي مصحف أبىّ وعثمان : إن ربك هو الخالق وهو يصلح للقليل والكثير ، والخلاق للكثير لا غير ، كقولك : قطع الثياب ، وقطع الثوب والثياب.

[سورة الحجر (15) : آية 87]

وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87)

سَبْعاً سبع آيات وهي الفاتحة. أو سبع سور وهي الطوال ، واختلف في السابعة فقيل : الأنفال وبراءة ، لأنهما في حكم سورة واحدة ، ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية. وقيل سورة يونس. وقيل : هي آل حم ، أو سبع صحائف وهي الأسباع. والْمَثانِي من التثنية وهي التكرير ، لأن الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها ، أو من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله ، الواحدة مثناة أو مثناة أو مثنية صفة للآية. وأمّا السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير

(1). قوله «يراد به المخالقة» أى المعاملة بحسن الخلق. وفي الصحاح : يقال خالص المؤمن ، وخالق الفاجر اه (ع)

القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ، ولما فيها من الثناء ، كأنها تثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى. و«من» إما للبيان أو للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال ، وللبيان إذا أردت الأسباع. ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثاني ، لأنها تثنى عليه ، ولما فيها من المواعظ المكررة ، ويكون القرآن بعضها ، فإن قلت : كيف صح عطف القرآن العظيم على السبع ، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟ قلت : إذا عنى بالسبع للفاتحة أو الطوال ، فما وراءهنّ ينطلق عليه اسم القرآن ، لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل. ألا ترى إلى قوله بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ يعنى سورة يوسف ، وإذا عنيت الأسباع فالمعنى : ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم ، أى : الجامع لهذين النعتين ، وهو الثناء أو التثنية والعظم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 88 إلى 89]

لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89)

أى : لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمنّ له إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ أصنافاً من الكفار. فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله؟ «1» قلت : يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة ، وهي القرآن العظيم ، فعليك أن تستغني به ، ولا تمدّن عينيك إلى متاع الدنيا. ومنه الحديث «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ، «2» وحديث أبى بكر «من أوتى القرآن فرأى أن أحداً أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ، فقد صغر عظيما وعظم صغيراً «3»» وقيل : وافت من بصرى وأذرعات :

(1). قال محمود : «إن قلت كيف وصل هذا بما قبله ... الخ»؟ قال أحمد : وهذا هو الصواب في معنى الحديث ، وقد حمله كثير من العلماء على الغناء ، وادعى هؤلاء أن «تغنى» إنما يبنى من الغناء الممدود لا من الغنى المقصور ، وأن فعله استغنى خاصة ، وقد وجدت بناء تغنى من الغنى المقصور في الحديث الصحيح في الخيل. وأما التي هي ستر فرجل ربطها تغنيا وتعففا ، وإنما هذا من الغنى المقصور قطعا واتفاقا ، وهو مصدر تعنى ، فدل ذلك على أنه مستعمل من البناءين جميعاً على خلاف دعوى المخالف ، والله الموفق.

(2). أخرجه البخاري من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة وفي الباب عن سعد وأبى لبابة عند أبى داود. قال المخرج ذهل النووي وقبله المذرى ، ثم الطيبي فعزوه لأبى داود ولم يعزوه للبخاري وأخطأ القرطبي فعزاه لمسلم لا للبخاري ، ولم يذكره صاحب جامع الأصول ، وعزاه الحاكم للشيخين والذي في الصحيحين حديث أبى هريرة «ما أذن الله لشيء كاذنه لنبي يتغنى بالقرآن يجهر به»

(3). لم أجده عن أبى بكر ، وأخرجه ابن عدى في ترجمة حمزة النصيبي عن زيد بن رفيع عن أبى عبيدة عن ابن مسعود رفعه «من تعلم القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد حقر عظيما وعظم صغيرا» وحمزة اتهموه بالوضع.
وأخرجه إسحاق والطبري من حديث عبد اللّه بن عمر بلفظ «من أعطى القرآن فرأى أن أحدا أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما صغر اللّه وصغر ما عظم اللّه - الحديث»

سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير ، فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الأمتعة ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها ، ولأنفقناها في سبيل اللّه ، فقال لهم اللّه عز وعلا : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أى لا تتمنّ أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوّى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون ، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم ، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء وَقُلْ لهم إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أنذركم ببيان وبرهان أنّ عذاب اللّه نازل بكم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 90 إلى 91]

كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)

فإن قلت : بم تعلق قوله كَما أَنْزَلْنا؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يتعلق بقوله : وَلَقَدْ آتَيْناكَ أى أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ حيث قالوا بعنادهم وعدوانهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما ، فاقتسموه إلى حق وباطل ، وعضوه «1». وقيل : كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم : سورة البقرة لي ، ويقول الآخر : سورة آل عمران لي. ويجوز أن يراد بالقرآن : ما يقرءونه من كتبهم ، وقد اقتسموه بتحريفهم ، وبأنّ اليهود أقرّت ببعض التوراة وكذبت ببعض ، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض ، وهذه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم ، وقولهم سحر وشعر وأساطير ، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم. والثاني أن يتعلق بقوله : وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أى : وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين ، يعنى اليهود ، وهو ما جرى على قريظة والنضير ، جعل المتوقع بمنزلة الواقع ، وهو من الإعجاز ، لأنه إخبار بما سيكون وقد كان. ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير ، أى : أنذر المعضين الذين يجزءون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير ، مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم ، فقعدوا في كل مدخل متفرّقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، يقول بعضهم : لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر.

ويقول الآخر : كذاب ، والآخر : شاعر ، فأهلكهم اللّه يوم بدر وقبله بآفات ، كالوليد بن المغيرة ،

(1). قوله «و عضوه» في الصحاح : عضيت الشاة تعضية ، إذا جزأتها أعضاء. وعضيت الشيء تعضية ، إذا فرقته. (ع)

والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب وغيرهم ، أو مثل ما أنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه السلام ، والاقتسام بمعنى التقاسم. فإن قلت : إذا علقت قوله : كَما أَنْزَلْنا بقوله : وَلَقَدْ آتَيْناكَ فما معنى توسط لا تَمُدَّنَّ إلى آخره بينهما؟ قلت : لما كان ذلك تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم ، اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية. من النهى عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم ، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين عِضِينَ أجزاء ، جمع عضة ، وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء. قال رؤبة :

وَلَيْسَ دِينُ اللَّهِ بِالْمَعْضِي

وقيل : هي فعلة ، من عضهته إذا بهته «1». وعن عكرمة : العضة السحر ، بلغة قريش ، يقولون للساحرة عاضهة. ولعن النبي صلى اللّه عليه وسلم العاضهة «2» والمستعضهة ، نقصانها على الأوّل واو ، وعلى الثاني هاء.

[سورة الحجر (15) : الآيات 92 إلى 93]

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (93)

لَنَسْئَلَنَّهُمْ عبارة عن الوعيد. وقيل. يسألهم سؤال تقريع. وعن أبى العالية : يسأل العباد عن خلتين : عما كانوا يعبدون ، وما ذا أجابوا المرسلين.

[سورة الحجر (15) : آية 94]

فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94)

فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ فاجهر به وأظهره. يقال : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً ، كقولك : صرح بها ، من الصديع وهو الفجر ، والصدع في الزجاجة : الإبانة. وقيل : فَاصْدَعْ فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر ، والمعنى : بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجارّ ، كقوله :

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ «3»

(1). قوله «إذا بهته» أى اتهمته. (ع)
(2). أخرجه أبو يعلى وابن عدى من حديث ابن عباس. وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام ، وهما ضعيفان. وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء.
(3) فقال لي قول ذى رأى ومقدرة محرر نزه خال من الريب
أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نشب
لخفاف بن ندبة ، وقيل : لعباس بن مرداس. وقيل : لعمرو بن معديكرب. وقيل : لا ياس بن موسى ، والمقدرة : مثلث الدال : القوة ، والمحرر النزه - كحذر - : الخالص من الغش. والريب ، أى الشبه ، وهو نعت لذي رأى.
ولو جعلته نعتا للرأى لكان فيه الفصل بين النعت والمنعوت بالعطف. ويجوز رفعه على أنه نعت مقطوع للقول.
والنشب : المال الأصل صامتا أو ناطقا ، فهو من عطف الخاص على العام. ويروى : ذا نسب ، بالمهملة : أى نسب عظيم ، وأمر : يتعدى للثاني بالباء. ويقال : أمرتك الخير على التوسع ، أو تضمين التكليف ، وجمعهما الشاعر في البيت.

ويجوز أن تكون بِما مصدرية ، أى بأمرك مصدر من المبنى للمفعول.

[سورة الحجر (15) : الآيات 95 إلى 96]

إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)

عن عروة بن الزبير في المستهزئين : هم خمسة نفر ذوو أسنان وشرف : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحرث بن الطلاطلة.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : ماتوا كلهم قبل بدر. قال جبريل عليه السلام للنبي صلى اللّه عليه وسلم : أمرت أن أكفيكهم ، فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم ، فلم ينعطف تعظماً لأخذه ، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات ، وأومأ إلى أحمص العاص بن وائل ، فدخلت فيها شوكة ، فقال : لدغت لدغت وانتفخت رجله ، حتى صارت كالرحى ومات ، وأشار إلى عينى الأسود بن المطلب ، فعمى وأشار إلى أنف الحرث بن قيس ، فامتخط قيحاً فمات ، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات «1».

[سورة الحجر (15) : الآيات 97 إلى 99]

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

بِما يَقُولُونَ من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن فَسَبِّحْ فافزع فيما نابك إلى اللّه. والفزع إلى اللّه : هو الذكر الدائم وكثرة السجود ، يكفك ويكشف عنك الغم.

(1). لم أجده بهذا السياق. وأخرجه الطبراني في معجميه. وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل لهما. وابن مردويه كلهم من طريق جعفر بن إياس عن سعيد عن ابن عباس في قوله تعالى إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ قال : هم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب وأبو زمعة والحرث بن عيطل السهمي قال أتاه جبريل فشكاهم إليه. فأراه الوليد بن المغيرة فأومأ جبريل إلى أكحله. فقال : ما صنعت؟ قال : كفيته. فساق الحديث. قال : فأما الوليد بن المغيرة فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلا له فأصاب أكحله فقطعها. وأما الأسود ابن المطلب فعمى. وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها ، وأما العاص بن

ودم على عبادة ربك حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ أى الموت ، أى ما دمت حياً فلا تخل بالعبادة. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة «1».

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار ، والمستهزئين بمحمد صلى اللّه عليه وسلم» «2»

سورة النحل

(مكية ، غير ثلاث آيات في آخرها وتسمى سورة النعم ، وهي مائة وثمان وعشرون آية [نزلت بعد سورة الكهف])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النحل (16) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1)

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر ، استهزاء وتكذيباً بالوعد ، فقيل لهم أَتى أَمْرُ اللَّهِ الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ روى أنه لما نزلت اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما تأخرت قالوا : ما نرى شيئاً ، فنزلت اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ فأشفقوا وانتظروا قربها ، فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمد ، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به ، فنزلت أَتى أَمْرُ اللَّهِ فوثب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم ، فنزلت فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ فاطمأنوا وقرئ : تستعجلوه ، بالتاء والياء سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ تبرأ عز وجل عن أن يكون له شريك ، وأن تكون آلهتهم له شركاء. أو عن إشراكهم ، على أنّ «ما» موصولة أو مصدرية.

---

(1). تقدم في البقرة.
(2). رواه الثعلبي من طريق أبى الخليل عن على بن زيد عن زر بن حبيش عن أبى بن كعب. وقد تقدمت أسانيده في آخر آل عمران.

فإن قلت : كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قلت : لأنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك. وقرئ : تشركون ، بالتاء والياء.

[سورة النحل (16) : آية 2]

يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (2)

قرئ يُنَزِّلُ بالتخفيف والتشديد. وقرئ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ أى تنزل بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ بما يحيى القلوب الميتة بالجهل من وحيه ، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ، وأَنْ أَنْذِرُوا بدل من الروح ، أى ينزلهم بأن أنذروا. وتقديره : بأنه أنذروا ، أى : بأن الشأن أقول لكم أنذروا. أو تكون «أن» مفسرة ، لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول.

ومعنى أنذروا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا أعلموا بأنّ الأمر ذلك ، من نذرت بكذا إذا علمته. والمعنى : يقول لهم أعلموا الناس قولي لا إله إلا أنا فَاتَّقُونِ.

[سورة النحل (16) : الآيات 3 إلى 4]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4)

ثم دلّ على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر ، مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وما يصلحه ، وما لا بدّ له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجرّ أثقاله وسائر حاجاته ، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه ، ومثله متعال عن أن يشرك به غيره. وقرئ : تشركون ، بالتاء والياء فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ فيه معنيان ، أحدهما : فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة ، بعد ما كان نطفة من منىّ جماداً لا حس به ولا حركة ، دلالة على قدرته. والثاني : فإذا هو خصيم لربه ، منكر على خالقه، قائل : من يحيى العظام وهي رميم ، وصفاً للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل ، والتمادي في كفران النعمة.

وقيل نزلت في أبىّ بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا محمد ، أترى اللّه يحيى هذا بعد ما قد رمّ؟ «1»

[سورة النحل (16) : آية 5]

وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (5)

الْأَنْعامَ الأزواج الثمانية ، وأكثر ما تقع على الإبل ، وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر ،

(1). يأتى في صورة يس.

كقوله وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ ويجوز أن يعطف على الإنسان ، أى : خلق الإنسان والأنعام ، ثم قال خَلَقَها لَكُمْ أى ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان. والدفء : اسم ما يدفأ به ، كما أنّ الملء اسم ما يملأ به ، وهو الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر. وقرئ : دفّ ، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء وَمَنافِعُ هي نسلها ودرّها وغير ذلك. فإن قلت : تقديم الظرف في قوله وَمِنْها تَأْكُلُونَ مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من غيرها. قلت : الأكل منها هو الأصل «1» الذي يعتمده الناس في معايشهم. وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتدّ به وكالجارى مجرى التفكه. ويحتمل أن طعمتكم منها ، لأنكم تحرثون بالبقر فالحبّ والثمار التي تأكلونها منها وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها.

[سورة النحل (16) : آية 6]

وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6)

منّ اللّه بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها ، لأنه من أغراض أصحاب المواشي ، بل هو من معاظمها ، لأنّ الرعيان إذا روّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة - فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء «2» - أنست أهلها وفرحت أربابها ، وأجلتهم في عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس. ونحوه لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً ، يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً. فإن قلت : لم قدّمت الإراحة على التسريح؟ قلت : لأنّ الجمال في الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرأ عكرمة: حينا تريحون وحينا تسرحون ، على أن تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وصف للحين. والمعنى : تريحون فيه وتسرحون فيه ، كقوله تعالى يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ.

[سورة النحل (16) : آية 7]

وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (7)

قرئ : بشق الأنفس ، بكسر الشين وفتحها. وقيل : هما لغتان في معنى المشقة ، وبينهما فرق : وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقا ، وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع.

(1). قال محمود : «إن قلت لم قدم المجرور وأجاب بأن الأكل منها هو الأصل ... الخ»؟ قال أحمد :
ومدار هذا التقرير على أن تقديم معمول الفعل يوجب حصره فيه فكأنه قال وإنما تأكلون منها.
(2). قوله «و تجاوب فيها الثغاء والرغاء» الثغاء صوت الشاء والمعز وما شاكلهما. والرغاء صوت ذوات الخف ، كذا في الصحاح. [.....]

وأما الشق فالنصف ، كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد. فإن قلت : ما معنى قوله : لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ كأنهم كانوا زمانا يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم. قلت : معناه وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم ، لا أنهم لم يكونوا بالغيه في الحقيقة. فإن قلت : كيف طابق قوله : لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ قوله : وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ وهلا قيل : لم تكونوا حامليها إليه «1»؟ قلت : طباقه من حيث أن معناه : وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة ، فضلا أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم. ويجوز أن يكون المعنى : لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس. وقيل : أثقالكم أجرامكم. وعن عكرمة : البلد مكة لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.

[سورة النحل (16) : آية 8]

وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (8)

وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ عطف على الأنعام ، أى : وخلق هؤلاء للركوب والزينة ، وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة ، ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام. فإن قلت : لم انتصب وَزِينَةً؟ قلت : لأن مفعول له ، وهو معطوف على محل لتركبوها. فإن قلت : فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد «2»؟ قلت : لأنّ الركوب فعل المخاطبين ، وأما الزينة ففعل الزائن وهو الخالق. وقرئ : لتركبوها زينة ، بغير واو ، أى : وخلقها زينة لتركبوها. أو تجعل زينة حالا منها ، أى : وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ يجوز أن يريد به : ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفاصيله ويمنّ علينا بذكره كما منّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته. ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به ، ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك ، وإن طوى عنا علمه لحكمة

(1). قال محمود : «إن قلت كيف طابق قوله لم تكونوا بالغيه قوله وتحمل أثقالكم ... الخ»؟ قال أحمد :
ويحتمل أن يكون المراد تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس واستغنى بذكر البلوغ عن ذكر حملها لأن العادة أن المسافر لا يستغنى عن أثقال يستصحبها والمعنى الأول أعلى ، والله أعلم.
(2). قال محمود : «إن قلت هلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد ... الخ»؟ قال أحمد : يعنى فجاز أن ينتصب مجرداً من لام التعليل لأنه فعل فاعل الفعل الأول ، ويعينه اقتران الركوب باللام لأنه فعل المخاطبين ، ومتى لم يتحد الفاعل تعين لحاق اللام، وفي هذا الجواب نظر ، فان لقائل أن يقول : كان من الممكن مجيئهما معا باللام فيأتيان على سنن واحد. ولا غرو في ذلك فالسؤال قائم ، والجواب العتيد عنه : أن المقصود المعتبر الأصلى في هذه الأصناف هو الركوب. وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب «فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة التعليل ، تنبيها على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين وتجرد التزين منها تنبيها على تبعيته أو قصوره عن الركوب ، والله أعلم

له في طيه ، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار ، مما لم يبلغه وهم أحد ، ولا خطر على قلبه.

[سورة النحل (16) : آية 9]

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (9)

المراد بالسبيل : الجنس ، ولذلك أضاف إليها القصد وقال وَمِنْها جائِرٌ. والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد. يقال : سبيل قصد وقاصد ، أى : مستقيم ، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه. ومعنى قوله وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ أنّ هداية الطريق الموصل «1» إلى الحق واجبة عليه ، «2» كقوله إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى . فإن قلت : لم غير أسلوب الكلام في قوله وَمِنْها جائِرٌ؟ قلت : ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة «3» لقيل : وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر. وقرأ عبد الله : ومنكم جائر ، يعنى : ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره ، والله بريء منه وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ قسراً وإلجاء «4».

[سورة النحل (16) : الآيات 10 إلى 11]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11)

(1). قال محمود : «و معناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة ... الخ» قال أحمد : أين يذهب به عن تتمة الآية. وذلك قوله تعالى وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لكان الكلام : وقد هداكم أجمعين. وما كأنهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب ويكافرون ببعض ، فان ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقسر والإلجاء ، فما كأنهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه. وأما المخالفة بين الأسلوبين ، فلأن سياق الكلام لاقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بين السبيل القاصد والجائر ، وهدى قوما اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم. وقد تقدم في غير ما موضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران ، هو من حيث كونه موجوداً مخلوق لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار ، وهو من حيث كونه مقترنا باختيار العبد له وبتأتيه له وتيسره عليه يضاف إلى العبد ، وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل ، فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها ، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له ، والحاصل أنه ذكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر ، ليناسب ذلك إقامة الحجة قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ والله الموفق للصواب.
(2). قوله «الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه» هذا مذهب المعتزلة ولا وجوب عليه تعالى عند أهل السنة ، بل ذلك فضل منه تعالى ، لكن الكريم يبرز الوعد بالخير في صورة الواجب. (ع)

(3). قوله «و لو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل : وعلى اللّه قصد السبيل» يعنى أهل السنة من أنه تعالى يخلق الشر كالخير. وقوله «لقيل» الخ : الملازمة ممنوعة لأن الكريم يحب الخير دون الشر ، وإن كان كل منهما من عنده قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. (ع)
(4). قوله «و لو شاء لهداكم أجمعين قسراً وإلجاء» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فانه لو شاء لهدى الكل اختياراً ، وذلك أن المعتزلة أوجبوا على اللّه الصلاح ، وهداية الكل صلاح ، فظاهر الآية يخالف مذهبهم. ولذا قالوا : إنه أراد هداية الكل ، لكن إرادة لا تنافى تخيير العبد ، لئلا يبطل تكليفه. وهذه الارادة لا تستلزم وقوع المراد. وأهل السنة لم يوجبوا على اللّه تعالى شيئا ، وكل ما أراده اللّه لا بد من وقوعه. وهذه الارادة لا تنافى اختيار العبد عندهم لما تقرر له من الكسب ، كما بين في علم التوحيد. (ع)

لَكُمْ متعلق بأنزل ، أو بشراب ، خبراً له. والشراب ما يشرب شَجَرٌ يعنى الشجر الذي ترعاه المواشي. وفي حديث عكرمة : لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت «1». يعنى الكلأ تُسِيمُونَ من سامت الماشية إذا رعت ، فهي سائمة ، وأسامها صاحبها ، وهو من السومة وهي العلامة ، لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض. وقرئ : ينبت ، بالياء والنون. فإن قلت : لم قيل وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ؟ قلت : لأنّ كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة ، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة يَتَفَكَّرُونَ ينظرون فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته.

والآية : الدلالة الواضحة. وعن بعضهم : ينبت ، بالتشديد. وقرأ أبىّ بن كعب : ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، بالرفع.

[سورة النحل (16) : آية 12]

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12)

قرئت كلها بالنصب على : وجعل النجوم مسخرات. أو على أنّ معنى تسخيرها للناس : تصييرها نافعة لهم ، حيث يسكنون بالليل ، ويبتغون من فضله بالنهار ، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر ، ويهتدون بالنجوم. فكأنه قيل : ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره. ويجوز أن يكون المعنى : أنه سخرها أنواعا من التسخير جمع مسخر ، بمعنى تسخير ، من قولك : سخره اللّه مسخراً ، كقولك : سرحه مسرحاً ، كأنه قيل : وسخرها لكم تسخيرات بأمره. وقرئ بنصب الليل والنهار وحدهما ، ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر.

وقرئ : والنجوم مسخرات ، بالرفع. وما قبله بالنصب ، وقال إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ فجمع الآية. وذكر العقل ، لأنّ الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة ، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة.

[سورة النحل (16) : آية 13]

وَما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13)

(1). أخرجه أبو عبيد في الأحوال عنه موقوفا. وزاد نحوه. وروى عبد الرزاق من طريق وهب بن منبه قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «اتقوا السحت قالوا : وما السحت؟ قال : بيع الشجر ، وثمن الخمر ، وإجارة الأمة المساحقة.

وَما ذَرَأَ لَكُمْ معطوف على الليل والنهار. يعنى : ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيئات والمناظر.

[سورة النحل (16) : آية 14]

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14)

لَحْماً طَرِيًّا هو السمك ، ووصفه بالطراءة ، «1» لأنّ الفساد يسرع إليه ، «2» فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه. فإن قلت : ما بال الفقهاء قالوا : إذا حلف الرجل لا يأكل لحماً ، فأكل سمكا ، لم يحنث. واللّه تعالى سماء لحماً كما ترى؟ قلت : مبنى الإيمان على العادة ، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه : اشتر بهذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك ، كان حقيقاً بالإنكار. ومثاله أن اللّه تعالى سمى الكافر دابة في قوله : إنّ شرّ الدواب عند اللّه الذين كفروا ، فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث. حِلْيَةً هي اللؤلؤ والمرجان».

والمراد بلبسهم : لبس نسائهم ، لأنهنّ من جملتهم ، ولأنهنّ إنما يتزينّ بها من أجلهم ، فكأنها زينتهم ولباسهم. المخر : شق الماء بحيزومها. وعن الفراء : هو صوت جرى الفلك بالرياح. وابتغاء الفضل : التجارة.

[سورة النحل (16) : الآيات 15 إلى 16]

وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلاماتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16)
أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ كراهة أن تميل بكم وتضطرب. والمائد : الذي يدار به إذا ركب البحر.

قيل : خلق اللّه الأرض فجعلت تمور ، فقالت الملائكة : ما هي بمقرّ أحد على ظهرها ، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ، لم تدر الملائكة ممّ خلقت وَأَنْهاراً وجعل فيها أنهاراً ، لأن أَلْقى فيه معنى : جعل. ألا ترى إلى قوله أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَالْجِبالَ أَوْتاداً. وَعَلاماتٍ

(1). قوله «بالطراءة» في الصحاح : طرو اللحم. وطرى طراوة وطراء وطراة. (ع)
(2). عاد كلامه. قال : «هو السمك ، ووصفه بالطراءة لأن الفساد يسرع إليه ... الخ» قال أحمد : فكأن ذلك تعليم لأكله وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طريا. والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون ، واللّه أعلم.
(3). قال محمود : «الحلية هي اللؤلؤ والمرجان ... الخ» قال أحمد : وللّه در مالك رضى اللّه عنه حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها ، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل ، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهن ، حتى جعل المرأة من مالها وزينتها حلية له ، فعبر عن حظه في لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظها سواء ، مؤيدا بالحديث المروي في الباب ، واللّه أعلم.

هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك. والمراد بالنجم : الجنس ، كقولك. كثر الدرهم في أيدى الناس. وعن السدى : هو الثريا ، والفرقدان ، وبنات نعش ، والجدى. وقرأ الحسن : وبالنجم ، بضمتين ، وبضمة وسكون ، وهو جمع نجم ، كرهن ورهن ، والسكون تخفيف. وقيل حذف الواو من النجوم تخفيفاً. فإن قلت : قوله وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ مخرج عن سنن الخطاب ، مقدم فيه بِالنَّجْمِ ، مقحم فيه هُمْ ، كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون ، فمن المراد ب هُمْ؟ قلت : كأنه أراد قريشاً : كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم ، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم ، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا.

[سورة النحل (16) : آية 17]

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (17)

فإن قلت : كَمَنْ لا يَخْلُقُ أريد به الأصنام ، «1» فلم جيء بمن الذي هو لأولى العلم؟ قلت : فيه أوجه ، أحدها : أنهم سموها آلهة وعبدوها ، فأجروها مجرى أولى العلم. ألا ترى إلى قوله على أثره وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ والثاني : المشاكلة بينه وبين من يخلق. والثالث : أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بما لا علم عنده ، كقوله أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها يعنى أنّ الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب ، لأنّ هؤلاء أحياء وهم أموات ، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصحّ أن يعبدوا. فإن قلت : هو إلزام للذين عبدوا الأوثان «2» وسموها آلهة تشبيهاً باللّه ، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فكان حق الإلزام أن يقال لهم : أفمن لا يخلق كمن يخلق؟ قلت: حين جعلوا غير اللّه مثل اللّه في تسميته باسمه والعبادة له وسوّوا بينه وبينه ، فقد جعلوا اللّه تعالى من جنس المخلوقات وشبيهاً بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ

[سورة النحل (16) : الآيات 18 إلى 19]

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ (19)

(1). قال محمود : «إن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام ... الخ» قال أحمد : هو تحوم على أن العباد يخلقون أفعالهم ، وأن المراد إظهار التفاوت بين من يخلق منهم ومن لا يخلق كالعاجزين والزمنى ، حتى يثبت التفاوت بين من يخلق منهم وبين الأصنام بطريق الأولى ، ولقد تمكن منه الطمع حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لأفعاله بتنزيله الآية على هذه التأويل ، ويتمنى لو تم له ذلك.
وما كل ما يتمنى المرء يدركه
(2). عاد كلامه. قال : «فان قلت هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً باللّه تعالى وكان من حق الإلزام ... الخ» قال أحمد : وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله تعالى وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى فجدد بها عهدا.

لا تُحْصُوها لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم ، فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر ، أتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهاً على أنّ وراءها ما لا ينحصر ولا ينعدّ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة ، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم ، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ من أعمالكم ، وهو وعيد.

[سورة النحل (16) : الآيات 20 إلى 21]

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(21)
وَالَّذِينَ يَدْعُونَ والآلهة الذين يدعوهم الكفار مِنْ دُونِ اللَّهِ وقرئ بالتاء. وقرئ : يدعون ، على البناء للمفعول. نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث ، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب. ومعنى أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات ، أى غير جائز عليها الموت كالحىّ الذي لا يموت وأمرهم على العكس من ذلك. والضمير في يُبْعَثُونَ للداعين ، أى لا يشعرون متى تبعث عبدتهم. وفيه تهكم بالمشركين وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم. وفيه دلالة على أنه لا بدّ من البعث وأنه من لوازم التكليف. ووجه آخر : وهو أن يكون المعنى أن الناس يخلقونهم بالنحت والتصوير ، وهم لا يقدرون على نحو ذلك ، فهم أعجز من عبدتهم أموات جمادات لا حياة فيها ، غير أحياء يعنى أنَّ من الأموات ما يعقب موته حياة ، كالنطف التي ينشئها اللّه حيوانا ، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها. وأمّا الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة ، وذلك أعرق في موتها وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ أى وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكما بحالها ، لأنّ شعور الجماد محال ، «1» فكيف بشعور ما لا يعلمه حىّ إلا الحىّ القيوم سبحانه. ووجه ثالث : وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة ، وكان ناس منهم يعبدونهم ، وأنهم أموات : أى لا بدّ لهم من الموت ، غير أحياء : غير باقية حياتهم. وما يشعرون : ولا علم لهم بوقت بعثهم. وقرئ : إيان ، بكسر الهمزة.

(1). قوله «لأن شعور الجماد محال» أى شعوره بما يشعر به الحيوان محال ، فكيف بشعوره بما لا يعلمه حيوان وإنما يعلمه الحي القيوم ، وهو وقت البعث. ولعل في عبارة المصنف سقطاً تقديره : شعور الجماد بما يشعر به الحيوان. (ع)

[سورة النحل (16) : الآيات 22 إلى 23]

إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23)

إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ يعنى أنه قد ثبت بما تقدّم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره ، وأنها له وحده لا شريك له فيها ، فكان من نتيجة ثبات الوحدانية ووضوح دليلها : استمرارهم على شركهم ، وأنّ قلوبهم منكرة للوحدانية ، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سرّهم وعلانيتهم فيجازيهم ، وهو وعيد إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعنى المشركين. ويجوز أن يعمّ كل مستكبر ، ويدخل هؤلاء تحت عمومه.

[سورة النحل (16) : الآيات 24 إلى 25]

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (25)

ما ذا منصوب بأنزل ، بمعنى : أى شيء أَنْزَلَ رَبُّكُمْ أو مرفوع بالابتداء ، بمعنى : أىّ شيء أنزله ربكم ، فإذا نصبت فمعنى أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ما يدّعون نزوله أساطير الأوّلين ، وإذا رفعته فالمعنى : المنزل أساطير الأوّلين، كقوله ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ فيمن رفع. فإن قلت : هو كلام متناقض ، لأنه لا يكون منزل ربهم وأساطير؟ قلت : هو على السخرية كقوله : إنّ رسولكم «1» وهو كلام بعضهم لبعض ، أو قول المسلمين لهم. وقيل : هو قول المقتسمين : الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، قالوا أحاديث الأوّلين وأباطيلهم لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ أى قالوا ذلك إضلالا للناس وصدّاً عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فحملوا أوزار ضلالهم كامِلَةً وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم ، وهو وزر الإضلال ، لأن المضلّ والضال شريكان : هذا يضله ، وهذا يطاوعه على إضلاله ، فيتحاملان الوزر. ومعنى اللام التعليل من غير أن يكون غرضاً ، كقولك : خرجت من البلد مخافة الشر بِغَيْرِ

(1). قوله «على السخرية كقوله إن رسولكم» لعله : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. (ع) [.....]

[سورة النحل (16) : الآيات 26 إلى 29]

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

القواعد : أساطين البناء التي تعمده. وقيل : الأساس. وهذا تمثيل ، يعنى : أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا «1» بها اللّه ورسوله ، فجعل اللّه هلاكهم في تلك المنصوبات ، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين «فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت ، فسقط عليهم السقف وهلكوا. ونحوه : من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا. وقيل : هو نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع. وقيل فرسخان ، فأهب اللّه الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان اللّه : إتيان أمره مِنَ الْقَواعِدِ من جهة القواعد مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرئ : فأتى اللّه بيتهم. فخرّ عليهم السقف ، بضمتين يُخْزِيهِمْ بذلهم بعذاب الخزي رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ يعنى هذا لهم في الدنيا ، ثم العذاب في الآخرة شُرَكائِيَ على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم ، ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم تُشَاقُّونَ فِيهِمْ تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم. وقرئ : تشاقون ، بكسر النون ، بمعنى : تشاقوننى ، لأنّ مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة اللّه قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم ، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم ، يقولون ذلك شماتة بهم وحكى اللّه ذلك من قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه. وقيل : هم الملائكة. قرئ : تتوفاهم ، بالتاء والياء.

وقرئ : الذين توفاهم ، بإدغام التاء في التاء فَأَلْقَوُا السَّلَمَ فسالموا وأخبتوا ، وجاءوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر ، وقالوا : ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان ، فردّ عليهم أولو العلم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فهو يجازيكم عليه ، وهذا أيضاً من الشماتة وكذلك فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ.

(1). قوله «ليمكروا بها اللّه ورسوله» لعل تعدية فعل المكر إلى مفعول لتضمنه معنى الخديعة. (ع)

[سورة النحل (16) : الآيات 30 إلى 32]

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32)

خَيْراً أنزل خيراً. فإن قلت : لم نصب هذا ورفع الأول؟ قلت : فصلا بين جواب المقرّ وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا ، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال ، فقالوا خيراً : أى أنزل خيراً ، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا : هو أساطير الأوّلين ، وليس من الإنزال في شيء. وروى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فإذا جاء الواقد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا : إن لم تلقه كان خيراً لك ، فيقول : أنا شرّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه ، فيلقى أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيخبرونه بصدقه ، وأنه نبىّ مبعوث ، فهم الذين قالوا خيراً. وقوله لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا وما بعده بدل من خيراً ، حكاية لقوله الذين اتقوا ، أى : قالوا هذا القول ، فقدّم عليه تسميته خيراً ثم حكاه.

ويجوز أن يكون كلاما مبتدأ عدة للقائلين ، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم وبحمدوا عليه حَسَنَةٌ مكافأة في الدنيا بإحسانهم ، ولهم في الآخرة ما هو خير منها ، كقوله فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ. وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ دار الآخرة ، فحذف المخصوص بالمدح لتقدّم ذكره. وجَنَّاتُ عَدْنٍ خبر مبتدإ محذوف. ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح طَيِّبِينَ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي ، لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم يَقُولُونَ

[سورة النحل (16) : الآيات 33 إلى 34]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (34)

تِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ قرئ بالتاء والياء ، يعنى : أن تأتيهم لقبض الأرواح. ومْرُ رَبِّكَ العذاب المستأصل ، أو القيامة ذلِكَ أى مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب عَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ بتدميرهم لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا جزاء سيئات أعمالهم. أو هو كقوله وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها.

[سورة النحل (16) : آية 35]

وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (35)

هذا من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم ، من شركهم باللّه وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج وإنكار البعث واستعجاله ، استهزاء منهم به وتكذيبهم الرسول ، وشقاقهم ، واستكبارهم عن قبول الحق ، يعنى : أنهم أشركوا باللّه وحرّموا ما أحل اللّه ، من البحيرة والسائبة وغيرهما ، ثم نسبوا فعلهم إلى اللّه وقالوا : لو شاء لم نفعل ، وهذا مذهب المجبرة بعينه «1» كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى أشركوا وحرموا حلال اللّه «2» ،

(1). قوله «و قالوا لو شاء اللّه لم نفعل ، وهذا مذهب المجبرة بعينه» يعنى أهل السنة ، وليس كما قال ، بل قاله المشركون استهزاء ، وأهل السنة اعتقادا ، كما أفاده النسفي. وكل ما شاء ، اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن ، شرا كان أو خيرا. وكل أمر بقضائه تعالى وقدره ، شرا كان أو خيراً. وهو الخالق لأفعال العباد وإن كانت بكسبهم واختيارهم ، خلافا للمعتزلة في جميع ذلك ، كما أطال به فيما سيأتى هنا انتصارا للمعتزلة. (ع)

(2). قال محمود : «يعنى أنهم أشركوا باللّه وحرموا ما أحل اللّه ... الخ» قال أحمد : قد تكرر منه مثل هذا الفصل في أخت الآية المتقدمة في سورة الأنعام ، وقد قدمنا حينئذ ما فيه مقنع إن شاء اللّه ، والذي زاده هنا يثبت معتقده على زعمه بقوله تعالى وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ووجه تمسكه به أن اللّه تعالى قسم العبادة إلى قسمين : مأمور به ومنهى عنه. والأمر والنهى عند المصنف راجعان إلى المشيئة بناء على زعم القدرية في إنكار كلام النفس وحمل الاقتضاء على الارادة ، فالحاصل حينئذ من هذه التتمة أن اللّه شاء عبادة الخلق له وشاء اجتنابهم عبادة الطاغوت ، ولم يشأ منهم أن يشركوا به ، وأخبر بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى أمة من الأمم ، فجاءت التتمة مترجمة عن معنى صدر الآية ، مؤكدة بمقتضاها. هذا هو الذي زاده المصنف هاهنا ، وقد بينا أن مبناه على إنكار كلام النفس الثابت قطعا ، فهو باطل جزما. والعجب أن اللّه تعالى أوضح في الآيتين جميعاً أن الذي أنكره من القائلين لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا إنما هو احتجاجهم على اللّه تعالى بمشيئته التي لا حجة لهم فيها ، مع ما خلق لهم من الاختيار بقوله هاهنا فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ وبقوله في آخر آية الأنعام فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ فتبين فيهما أنه هو الذي شاء منهم الاشراك والضلالة ، ولو شاء هدايتهم أجمعين لاهتدوا عن آخرهم. وحصل من هذا البيان : صرف الإنكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة للّه تعالى ، وذلك هو الذي قدمناه في إقامتهم الحجة على اللّه بمشيئته ، مع أن حجتهم في ذلك داحضة ، وللّه عليهم الحجة البالغة الواضحة ، واللّه الموفق.

فلما نبهوا على قبح فعلهم ورّكوه على ربهم «1» فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلا أن يبلغوا الحق ، وأن اللّه لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان ، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة اللّه تعالى من أفعال العباد ، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم ، واللّه تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له ، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.

[سورة النحل (16) : آية 36]

وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36)

ولقد أمدّ إبطال قدر السوء ومشيئة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولا يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة اللّه ، وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ أى لطف به لأنه عرفه من أهل اللطف وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ أى ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف ، لأنه عرفه مصمما على الكفر

[سورة النحل (16) : آية 37]

إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (37)

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على إيمانهم ، وعرّفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة ، وأنه لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ أى لا يلطف بمن يخذل ، لأنه عبث ، واللّه تعالى متعال عن العبث ، لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه. وقرئ : لا يهدى «2» ، أى : لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله اللّه. وقوله وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ دليل على أنّ المراد بالإضلال : الخذلان الذي هو نقيض النصرة. ويجوز أن يكون لا يَهْدِي بمعنى لا يهتدى. يقال : هداه اللّه فهدى. وفي قراءة أبىّ : فإنّ اللّه لا هادى لمن يضل ، ولمن أضلّ «3» ، وهي معاضدة لمن قرأ لا يَهْدِي على البناء للمفعول. وفي قراءة عبد اللّه : يهدى ، بإدغام تاء يهتدى ، وهي معاضدة للأولى. وقرئ «يضل» بالفتح. وقرأ النخعي : إن تحرص ، بفتح الراء ، وهي لغية.

(1). قوله «وركوه على ربهم» أى اتهموه به. (ع)
(2). قوله «و قرئ لا يهدى» أى بالبناء المجهول ، كما أفاده النسفي. (ع)
(3). قوله «و في قراءة أبى : فان اللّه لا هادى لمن يضل ولمن أضل» ظاهره أن هذه قراءة أخرى لأبى ، فليحرر. (ع)

[سورة النحل (16) : الآيات 38 إلى 39]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (39)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ معطوف على وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان ، حقيقتان بأن تحكيا وتدوّنا : تَوريك ذنوبهم على مشيئة «1» اللّه ، وإنكارهم البعث مقسمين عليه. وبَلى إثبات لما بعد النفي ، أى : بلى يبعثهم. ووعد اللّه : مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى. لأن يبعث موعد من اللّه ، وبين أنّ الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أنهم يبعثون أو أنه وعد واجب «2» على اللّه ، لأنهم يقولون : لا يجب على اللّه شيء ، لا ثواب عامل ولا غيره من مواجب الحكمة لِيُبَيِّنَ لَهُمُ متعلق بما دل عليه «بلى» أى يبعثهم ليبين لهم. والضمير لمن يموت ، وهو عام للمؤمنين والكافرين ، والذي اختلفوا فيه هو الحق وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كذبوا في قولهم : لو شاء اللّه ما عبدنا من دونه من شيء ، وفي قولهم : لا يبعث اللّه من يموت. وقيل : يجوز أن يتعلق بقوله وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أى بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه ، وأنهم كانوا على الضلالة قبله ، مفترين على اللّه الكذب.

[سورة النحل (16) : آية 40]

إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)

قَوْلُنا مبتدأ ، وأَنْ نَقُولَ خبره. كُنْ فَيَكُونُ من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود ، أى : إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له : أحدث ، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف ، وهذا مثل لأنّ مراداً لا يمتنع عليه ، وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف ، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل ، ولا قول ثم ، والمعنى : أنّ إيجاد كل مقدور على اللّه تعالى بهذه السهولة ، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات. وقرئ : فيكون ، عطفاً على نَقُولَ.

[سورة النحل (16) : الآيات 41 إلى 42]

وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42)

(1). قوله «توريك ذنوبهم على مشيئة اللّه» أى نسبة ذنوبهم إلى مشيئته تعالى واتهامها بها. (ع)

(2). قوله «أو أنه وعد واجب على اللّه ... الخ» الكلام في الكفار. وعرض فيه المصنف بأهل السنة تعصبا للمعتزلة في قولهم بوجوب الصلاح عليه تعالى فافهم. (ع)

وَالَّذِينَ هاجَرُوا هم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه ، ظلمهم أهل مكة ففرّوا بدينهم إلى اللّه ، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين. ومنهم من هاجر إلى المدينة. وقيل : هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكلما خرجوا تبعوهم فردّوهم : منهم بلال ، وصهيب ، وخباب ، وعمار. وعن صهيب أنه قال لهم : أنا رجل كبير ، إن كنت معكم لم أنفعكم ، وإن كنت عليكم لم أضرّكم ، فافتدى منهم بماله وهاجر ، فلما رآه أبو بكر رضى اللّه عنه قال له : ربح البيع يا صهيب. وقال له عمر : نعم الرجل صهيب ، لو لم يخف اللّه لم يعصه ، وهو ثناء عظيم : يريد لو لم يخلق اللّه ناراً لأطاعه «1» ، فكيف فِي اللَّهِ في حقه ولوجهه حَسَنَةً صفة للمصدر ، أى لنبو أنهم تبوئة حسنة. وفي قراءة على رضى اللّه عنه : لنثوّينهم. ومعناه : أثوأة حسنة. وقيل : لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة ، وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم ، وعلى العرب قاطبة ، وعلى أهل المشرق والمغرب. وعن عمر رضى اللّه عنه أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال : خذ بارك اللّه لك فيه ، هذا ما وعدك ربك في الدنيا ، وما ذخر لك في الآخرة أكثر. وقيل : لنبوّأنهم مباءة حسنة وهي المدينة ، حيث آواهم أهلها ونصروهم لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الضمير للكفار ، أى : لو علموا أنّ اللّه يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة ، لرغبوا في دينهم. ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين ، أى : لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم الَّذِينَ صَبَرُوا على: هم الذين صبروا. أو أعنى الذين صبروا ، وكلاهما مدح ، أى : صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم اللّه المحبوب في كل قلب ، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم ، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل اللّه.

[سورة النحل (16) : الآيات 43 إلى 44]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)

قالت قريش : اللّه أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فقيل وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ على ألسنة الملائكة فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ وهم أهل الكتاب ، ليعلموكم أن اللّه لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً. فإن قلت : بم تعلق قوله بِالْبَيِّناتِ؟ قلت : له متعلقات شتى ، فاما أن يتعلق مما أرسلنا داخلا تحت حكم الاستثناء مع رجالا أى: وما أرسلنا إلا رجالا بالبينات ،

(1). قوله «لو لم يخلق اللّه ناراً لأطاعه فكيف» أى فكيف لا يطيعه. وقد خلقها لمن عصى. (ع)

كقولك : ما ضربت إلا زيداً بالسوط ، لأن أصله : ضربت زيداً بالسوط وإما برجالا ، صفة له : أى رجالا ملتسين بالبينات. وإما بأرسلنا مضمراً ، كأنما قيل : بم أرسلوا؟ فقلت بالبينات ، فهو على كلامين ، والأوّل على كلام واحد. وإما بيوحى ، أى : يوحى إليهم بالبينات. وإما بلا تعلمون ، على أن الشرط في معنى التبكيت والإلزام ، كقول الأجير : إن كنت عملت لك فأعطنى حقي. وقوله فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ اعتراض على الوجوه المتقدّمة ، وأهل الذكر : أهل الكتاب. وقيل للكتاب الذكر ، لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ يعنى ما نزل اللّه إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

[سورة النحل (16) : الآيات 45 إلى 47]

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (47)

مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أى المكرات السيئات ، وهم أهل مكة ، وما مكروا به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «1» فِي تَقَلُّبِهِمْ متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم عَلى تَخَوُّفٍ متخوفين ، وهو أن يهلك قوما قبلهم فيتخوّفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون متوقعون ، وهو خلاف قوله مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ وقيل : هو من قولك : تخوفنه وتخونته ، إذا تنقصته :

قال زهير :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعة السَّفَنُ «2»

أى يأخذهم على أن يتنقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا. وعن عمر رضى اللّه عنه. أنه قال على المنبر : ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا : التخوّف التنقص.

(1). قوله «و ما مكروا به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» ضمن المكر معنى الخدع ، فعدى إلى المفعول. (ع)
(2). لأبى كبير الهذلي. وقيل لزهير. والتخوف : التنقص شيئا فشيئا. والتامك : السنام المرتفع. والقرد : الذي أكله القراد من كثرة أسفارها. أو الذي تنقب وفسد من الرحل في السفر. والنبعة : واحدة النبع ، وهو شجر تتخذ منه القسي. ويروى : ظهر النبعة. والسفن : المبرد الحديد الذي ينحت به الخشب ، يقول : تنقص رحلها سنامها المرتفع الذي تنقب من كثرة السفر، كما تنقص المبرد عود النبعة. وفيه تشبيه بها في الصلابة. وروى أن عمر قال على المنبر : ما تقولون في قوله تعالى أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فسكتوا ، فقال شيخ من هذيل : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص ، وأنشد البيت ، فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا : وما ديواننا؟ قال : شعر الجاهلية ، فان فيه تفسير كتابكم.

قال : فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال : نعم ، قال شاعرنا. وأنشد البيت.

فقال عمر : أيها الناس ، عليكم بديوانكم لا يضل. قالوا : وما ديواننا؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث يحلم عنكم ، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم.

[سورة النحل (16) : آية 48]

أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ (48)
قرئ : أو لم يروا. ويتفيؤا ، بالياء والتاء. وما موصولة بخلق اللّه ، وهو مبهم بيانه مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ واليمين ، بمعنى الأيمان. وسُجَّداً حال من الظلال. وَهُمْ داخِرُونَ حال من الضمير في ظلاله ، لأنه في معنى الجمع وهو ما خلق اللّه من كل شيء له ظل ، وجمع بالواو ، لأن الدخور من أوصاف العقلاء ، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب. والمعنى : أو لم يروا إلى ما خلق اللّه من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها ، أى عن جانبي كل واحد منها. وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبى الشيء ، أى : ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة للّه ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً ، صاغرة منقادة لأفعال اللّه فيها ، لا تمتنع.

[سورة النحل (16) : الآيات 49 إلى 50]

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (50)

مِنْ دابَّةٍ يجوز أن يكون بيانا لما في السموات وما في الأرض جميعا ، على أنّ في السموات خلقا للّه يدبون فيها كما يدب الأناسى في الأرض ، وأن يكون بيانا لما في الأرض وحده ، ويراد بما في السموات : الملائكة. وكرّر ذكرهم على معنى : والملائكة خصوصا من بين الساجدين ، لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم. ويجوز أن يراد بما في السموات : ملائكتهنّ.

وبقوله والملائكة : ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم ، فإن قلت : سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم ، «1» فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد؟

(1). قال محمود : «إن قلت سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم ، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد ... الخ»؟ قال أحمد : وهذا ما يتمسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد لحقيقته ومجازه شمولا ولم يرد ذلك متناقضا ، فان السجود يتناول هل المكلف حقيقة يتناول حال غير المكلف بطريق مجاز التشبيه ، وقد أريد جميعا من الآية ، والزمخشري ينكر ذلك في مواضع مررت عليها من كتابه ، هذا وظاهر مراده هاهنا أن السجود عبارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف وحال غير المكلف ، وهو عدم الامتناع عند القدرية ، وغرضه من ذلك أن يكون اللفظ متواطئا فيهما جميعا ، ليسلم من الجمع بين الحقيقة والمجاز ، لأنه يأبى ذلك ، ولا ينم له هذا المقصد في الآية - واللّه أعلم - لأن كونها آية سجدة يدل على أن المراد من السجود المذكور فيها منسوبا للمكلفين هو الفعل الخاص المتعارف شرعا ، الذي يكون ذكره سببا لفعلة سببية معتادة في عزائم السجود ، لا القدر الأعم المشترك ، واللّه أعلم.

قلت : المراد بسجود المكلفين : طاعتهم وعبادتهم ، وبسجود غيرهم : انقياده لإرادة اللّه وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا السجودين يجمعها معنى الانقياد فلم يختلفا ، فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد. فإن قلت : فهلا جيء بمن دون «ما» تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم؟ قلت : لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب ، فكان متناولا للعقلاء خاصة ، فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم ، إرادة العموم يَخافُونَ يجوز أن يكون حالا من الضمير «1» في لا يَسْتَكْبِرُونَ أى : لا يستكبرون خائفين ، وأن يكون بيانا لنفى الاستكبار وتأكيداً له ، لأنّ من خاف اللّه لم يستكبر عن عبادته مِنْ فَوْقِهِمْ إن علقته بيخافون ، فمعناه : يخافونه أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم ، وإن علقته بربهم حالا منه فمعناه : يخافون ربهم عاليا لهم قاهرا ، كقوله وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ وفيه دليل على أنّ الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهى والوعد والوعيد كسائر المكلفين ، وأنهم بين الخوف والرجاء.

[سورة النحل (16) : آية 51]

وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51)

فإن قلت : إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين ، فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة ، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص. وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان ، فمعدودان فيهما دلالة على العدد ، فلا حاجة إلى أن يقال : رجل واحد ورجلان اثنان ، فما وجه قوله إلهين اثنين «2»؟ قلت : الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين : على الجنسية والعدد المخصوص ، فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنىّ به منهما ، والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده ، فدل به على القصد إليه والعنايه به. ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ، ولم تؤكده بواحد : لم يحسن ، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم ، وجاز لأنّ الغالب هو المتكلم ، وهو من طريقة الالتفات ، وهو أبلغ في الترهيب من قوله : وإياه فارهبوه ، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم.

(1). قال محمود : «يجوز أن يكون حالا من الضمير ... الخ» قال أحمد : هذا الثاني هو الوجه ليس الأول ، وأما الحال فيعطى انتقالا ويوهم تقيد العدم استكبارهم ، مع أن الواقع أو عدم استكبارهم مطلق غير مقيد بحال ، واللّه الموفق.
(2). قال محمود : «إن قلت ما فائدة قوله اثنين مع إغناء التثنية عن ذلك ... الخ» قال أحمد : وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها ، واللّه الموفق. [.....]

[سورة النحل (16) : آية 52]

وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52)

الدِّينُ الطاعة واصِباً حال عمل فيه الظرف. والواصب : الواجب الثابت ، لأنّ كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه. ويجوز أن يكون من الوصب ، أى : وله الدين ذا كلفة ومشقة ، ولذلك سمى تكليفا. أو : وله الجزاء ثابتا دائما سرمدا لا يزول ، يعنى الثواب والعقاب.

[سورة النحل (16) : الآيات 53 إلى 55]

وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (53) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55)

وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ وأىّ شيء حل بكم ، أو اتصل بكم من نعمة ، فهو من اللّه فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ فما تتضرعون إلا إليه، والجؤار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة. قال الأعشى يصف راهبا :

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيكِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوْراً جُؤَارَا «1»

وقرئ : تجرون ، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم. وقرأ قتادة : كاشف الضرّ على : فاعل بمعنى فعل ، وهو أقوى من كشف ، لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة. فإن قلت : فما معنى قوله إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ؟ قلت : يجوز أن يكون الخطاب في قوله وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ عاما ، ويريد بالفريق : فريق الكفرة وأن يكون الخطاب للمشركين ومنكم للبيان ، لا للتبعيض ، كأنه قال فإذا فريق كافر ، وهم أنتم. ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر ، كقوله فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ من نعمة الكشف عنهم ،

(1) وما آبلى على هيكل بناء وصلب فيه وصارا
يراوح من صلوات الملي ك طورا سجودا وطورا جؤارا
بأعظم منك تقى في الحساب إذا النسمات نفضن الغبارا
للأعشى. والآبلى : الراهب ، نسبة إلى آبل وهو قيم البيعة. والهيكل : بيت الصنم. وصلب : أى صور الصليب.
وألف صارا للإطلاق. ويراوح : خبره ، وإن لزم عليه التضمين مراعاة لجزالة المعنى ، والمراوحة في العمل :
الانتقال من حالة إلى أخرى. والصلوات : الدعوات. والسجود : الانخفاض والخشوع. والجؤار : رفع الصوت بالدعاء. وبأعظم : خبر آبلى. وتقى : تمييز. يقول : ليس الراهب العاكف على هيكله الذي صور فيه الصليب ، وصار يتابع ويتنقل من بعض دعوات الله إلى بعض ، فتارة يسجد سجوداً ، وتارة يجأر جؤارا ، تقاه أعظم من تقاك يوم الحساب إذا قام الناس من قبورهم ، فنفضهم الغبار ، كناية عن ذلك.

كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ تخلية ووعيد. وقرئ : فيمتعوا ، بالياء مبنيا للمفعول ، عطفا على لِيَكْفُرُوا ويجوز أن يكون : ليكفروا فيمتعوا ، من الامر الوارد في معنى الخذلان والتخلية ، واللام لام الأمر.

[سورة النحل (16) : آية 56]

وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56)

لِما لا يَعْلَمُونَ أى لآلهتهم. ومعنى لا يعلمونها : أنهم يسمونها آلهة ، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله ، وليس كذلك. وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع ، فهم إذاً جاهلون بها. وقيل : الضمير في لا يَعْلَمُونَ للآلهة. أى : لأشياء غير موصوفة بالعلم ، ولا تشعر اجعلوا لها نصيباً في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربا إليهم لَتُسْئَلُنَّ وعيد عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ من الإفك في زعمكم أنها آلهة ، وأنها أهل للتقرب إليها.

[سورة النحل (16) : الآيات 57 إلى 59]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (57) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (59)

كانت خزاعة وكنانة تقول : الملائكة بنات الله سُبْحانَهُ تنزيه لذاته من نسبة الوالد إليه. أو تعجب من قولهم وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ يعنى البنين. ويجوز في ما يَشْتَهُونَ الرفع على الابتداء ، والنصب على أن يكون معطوفا على البنات ، أى : وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور. وظَلَّ بمعنى صار «1» كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى الصيرورة. ويجوز أن يجيء ظل ، لأن أكثر الوضع يتفق بالليل ، فيظل نهاره مغتما مربد الوجه «2» من الكآبة والحياء من الناس وَهُوَ كَظِيمٌ مملوء حنقاً على المرأة يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ يستخفى منهم مِنَ أجل سُوءِ المبشر به ،

(1). قال محمود : «ظل بمعنى صار» قال أحمد : وجاز أن يراد الظلول نهاراً لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار وأنهم لو عرجوا نهارا في الوقت الذي لا يتغابى على البصر فيه شيء إلى السماء لتمادوا على كفرهم وتكذيبهم ، والله أعلم.
(2). قوله «و يجوز أن يجيء ظل ... الخ» أى يرد ويستعمل في الآية بمعناه الأصلى ، وهو اتصاف الشيء بصفة نهاراً فقط ، لأن أكثر الوضع ... الخ. ومربد الوجه : متعبسه من الغضب ، كما يفيده الصحاح. (ع)

ومن أجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر أيمسك ما بشر به عَلى هُونٍ على هوان وذل أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أم يئده «1». وقرئ : أيمسكها على هون أم يدسها ، على التأنيث. وقرئ : على هوان أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله ، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

[سورة النحل (16) : آية 60]

لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60)

مَثَلُ السَّوْءِ صفة السوء : وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق ، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وهو الغنى عن العالمين ، والنزاهة عن صفات المخلوقين وهو الجواد الكريم.

[سورة النحل (16) : آية 61]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (61)

بِظُلْمِهِمْ بكفرهم ومعاصيهم ما تَرَكَ عَلَيْها أى على الأرض مِنْ دَابَّةٍ قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين. وعن أبى هريرة : أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضرّ إلا نفسه ، فقال : بلى واللّه ، حتى أنّ الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم «2». وعن ابن مسعود : كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم «3». أو من دابة ظالمة. وعن ابن عباس مِنْ دَابَّةٍ من مشرك يدب عليها. وقيل : لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

[سورة النحل (16) : آية 62]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62)

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ لأنفسهم من البنات ومن شركاء في رياستهم ، ومن الاستخفاف برسلهم «4» والتهاون برسالاتهم.

(1). قوله «أم يئده» أى يدفنه في القبر حيا. (ع)
(2). أخرجه الطبري والبيهقي في الشعب التاسع والأربعين. وفي إسناده محمد بن جابر التمامى. وهو متروك.
(3). أخرجه ابن أبى شيبة والحاكم والطبراني من طريق أبى الأحوص قال : قرأ ابن مسعود وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ - الآية قال : كاد الجعل يعذب في جحره بذنب ابن آدم».
(4). قال محمود : «المراد بما يكرهونه البنات ، وشركاء في رياستهم ، واستخفاف برسلهم ... الخ» قال أحمد:
ونقيض هؤلاء من إذا أعجبه شيء من ماله جعله للّه ، بل إذا أحب أمة له أعتقها ، وإذا اشتهى طعاما قدم إليه تصدق به على حبه ، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة ، كابن عمر ونظرائه ومن تابعهم فيها ، ويجعلون للّه ما يشتهون. اللهم إن لم ننل رتبة أوليائك فأنلنا محبتهم ، فمن أحب قوما حشر معهم.

ويجعلون له أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ مع ذلك أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى عند اللّه كقوله وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى . وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوى اليسار : كيف تكون يوم القيامة إذا قال اللّه تعالى : هاتوا ما دفع إلى السلاطين وأعوانهم ، فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة. وإذا قال: هاتوا ما دفع إلىّ فيؤتى بالكسر والخرق ومالا يؤبه له ، أما تستحيي من ذلك الموقف؟ وقرأ هذه الآية.

وعن مجاهد : أنّ لهم الحسنى ، هو قول قريش : لنا البنون ، وأن لهم الحسنى : بدل من الكذب.

وقرئ الْكَذِبَ جمع كذوب ، صفة للألسنة مُفْرَطُونَ قرئ مفتوح الراء ومكسورها مخففاً ومشدّداً ، فالمفتوح بمعنى مقدّمون إلى النار معجلون إليها ، من أفرطت فلانا ، وفرّطته في طلب الماء ، إذا قدمته. وقيل. منسيون متروكون ، من أفرطت فلانا خلفي إذا خلفته ونسيته.

والمكسور المخفف ، من الإفراط في المعاصي. والمشدّد ، من التفريط في الطاعات وما يلزمهم.

[سورة النحل (16) : آية 63]

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (63)

فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها. أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا. ومعنى وَلِيُّهُمُ قرينهم وبئس القرين. أو يجعل فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ حكاية للحال الآتية ، وهي حال كونهم معذبين في النار ، أى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره ، نفياً للناصر لهم على أبلغ

[سورة النحل (16) : الآيات 64 إلى 65]

وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)

وَهُدىً وَرَحْمَةً معطوفان على محل لِتُبَيِّنَ إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما ، لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخل اللام على لتبين : لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل. وإنما ينتصب مفعولا له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل. والذي اختلفوا فيه : البعث ، لأنه كان فيهم من يؤمن به ، ومنهم عبد المطلب ، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع إنصاف وتدبر ، لأنّ من لم يسمع بقلبه ، فكأنه أصم لا يسمع.

[سورة النحل (16) : آية 66]

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (66)

ذكر سيبويه الأنعام في باب مالا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال ، كقولهم :

ثوب أكياش ، ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً. وأمّا فِي بُطُونِها في سورة المؤمنين ، فلأنّ معناه الجمع. ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان ، أحدهما : أن يكون تكثير نعم «1» كأجبال في جبل ، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم ، فإذا ذكر فكما يذكر «نعم» في قوله :

فِى كُلِّ عَامٍ نَعَمٌ تَحْوُونَه يُلْقِحُهُ قَوْمٌ وَتَنْتِجُونَهْ «2»

وإذا أنث ففيه وجهان : أنه تكسير نعم. وأنه في معنى الجمع. وقرئ نُسْقِيكُمْ بالفتح والضم ، وهو استئناف ، كأنه قيل : كيف العبرة ، فقيل نسقيكم مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ أى يخلق اللّه اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة اللّه لا يبغى أحدهما عليه بلّون ولا طعم ولا رائحة ، بل هو خالص من ذلك كله. قيل : إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها طبخته ، فكان أسفله فرثا ، وأوسطه لبنا ، وأعلاه دما. والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها ،

(1). قوله «أن يكون تكثير نعم» لعله «تكسير» بالسين. (ع)
(2) في كل عام نعم تحوونه يلقحه قوم وتنتجونه
أربابه نوكى فلا يحمونه ولا يلاقون طعانا دونه
أنعم الأبناء تحسبونه هيهات هيهات لما ترجونه
لصبي من بنى أسد اسمه قيس بن الحصين الحارثي. والنعم : أسم جمع يعامل معاملة المفرد. وقد يراعى معناه فيعامل كالجمع. والأنعام عده سيبويه من المفردات المبنية على أفعال ، كأخلاق وأمشاج ، فيعامل بالتذكير تارة اعتباراً بلفظه ، وبالتأنيث أخرى اعتباراً بمعناه. وقيل : هو جمع نعم كأسباب وسبب ، والكلام تحسر وتحزن في صورة الاخبار ، ويحتمل تقدير همزة الاستفهام التوبيخي أو التعجبي قبل في ، أى : أفى كل عام تفعلون ذلك. وروى :
أكل عام ، بالاستفهام. وكل : نصب على الظرفية. وفيه الاخبار بالزمان عن اسم العين وهو نعم. إما لأنه يشبه المعنى لتجدده كل عام كما قاله ابن مالك وغيره في مثله. أو على تقدير مضاف كما ذهب إليه جمهور البصريين» أى :
نهب نعم. وجملة تحوونه : صفة نعم ، ويجوز أنها خبره ، وكل عام : ظرف لتحوونه ، وقدم لأنه محط الاستفهام.
وعليه فالمسوغ للابتداء بنعم وقوعه في حيز الاستفهام. أو تقديم معمول الخبر عليه لأنه كتقديم الخبر. ويلقحه قوم أى يطلقون فحوله على إناثه فتحمل عندهم. وتنتجونه أنتم : أى تستولدونه عندكم ، كناية عن نهبه منهم. والأرباب الأصحاب. والنوكى : جمع أنوك كحمقى جمع أحمق وزنا ومعنى. والطعان : المطاعنة بالرماح ، أى : لا يحاربون أمامه ويصبرون للحرب. وقوله أنعم : استفهام إنكارى توبيخي ، أى : لا تحسبوا نعمنا نعم أولئك الحمقى الضعاف.
وهيهات بمعنى بعد ، وكرره للتوكيد وقطع الأطماع. وقوله «لما ترجونه» متعلق بمحذوف ، أى : أقول ذلك لما ترجونه ، واللام فيه لتبيين الفاعل. ويجوز أنها زائدة فيه ، والرجا : الطمع ، ويجوز أنه الظن.

فتجرى الدم في العروق ، واللبن في الضرع ، وتبقى الفرث في الكرش.

فسبحان اللّه ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمّل. وسئل شقيق عن الإخلاص فقال : تمييز العمل من العيوب ، كتمييز اللبن من بين فرث ودم سائِغاً سهل المرور في الحلق.

ويقال : لم يغص أحد باللبن قط. وقرئ : سيغاً ، بالتشديد. وسيغاً ، بالتخفيف. كهين ولين.

فإن قلت : أى فرق بين «من» الأولى والثانية؟ قلت : الأولى للتبعيض ، لأن اللبن بعض ما في بطونها ، كقولك: أخذت من مال زيد ثوباً. والثانية لابتداء الغاية ، لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذي منه يبتدأ ، فهو صلة لنسقيكم ، كقولك : سقيته من الحوض ، ويجوز أن يكون حالا من قوله لَبَناً مقدما عليه ، فيتعلق بمحذوف ، أى : كائناً من بين فرث ودم.

ألا ترى أنه لو تأخر فقيل : لبناً من بين فرث ودم كان صفة له ، وإنما قدم لأنه موضع العبرة ، فهو قمن بالتقديم. وقد احتج بعض من يرى أن المنى طاهر على من جعله نجسا ، لجريه في مسلك البول بهذه الآية ، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر ، كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً.

[سورة النحل (16) : آية 67]

وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)

فإن قلت : بم تعلق قوله وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ؟ قلت : بمحذوف تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب ، أى : من عصيرها ، وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه ، وقوله تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً بيان وكشف عن كنه الإسقاء. أو يتعلق بتتخذون ، ومنه من تكرير الظرف للتوكيد ، كقولك : زيد في الدار فيها. ويجوز أن يكون تَتَّخِذُونَ صفة موصوف محذوف ، كقوله :

... بِكَفّيْ كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَرْ «1»

(1) مالك عندي غير سوط وحجر وغير كبداء شديدة الوتر
جادت بكفى كان من أرمى البشر
السوط : آلة للضرب ، معمولة من الجلد. وكبداء صفة لمحذوف ، أى قوس كبداء غليظة الكبد ، أى المقبض.
وقيل : واسعته. والوتر : حبل تشد به القوس. وجادت : صارت جيدة. ويروى بدله : ترمى. وشبه الرمي لها مجاز عقلى. وكفى مضاف لمحذوف قامت صفته في اللفظ مقامه ، وهي جملة «كان» وحذف المنعوت الأول مطرد ، والثاني ضرورة ، لأنه لا يجوز حذف المنعوت إلا إذا كان بعض اسم مجرور بمن أو «في» ، أو صلح نعته لمباشرة العامل. و«كان» هنا ليس للمضى ، بل لمجرد الثبوت والدوام ، أى : بكفى رجل متصف بأنه دائما من أشد الناس رميا ، يعنى نفسه. ففيه تجريد. يقول لعدوه : ليس لك عندي غير هذه الأشياء ، وهو ضرب من التهديد والتقريع : هدده بالسوط عند القرب ، وبالحجر عند المفارقة ، وبالسهم عند البعد : ويروى «سهم» بدل سوط ، فيضيع الترتيب.

تقديره : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً ورزقا حسناً ، لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر. فإن قلت : فإلام يرجع الضمير في منه إذا جعلته ظرفا مكرّراً؟

قلت : إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجع في قوله تعالى أَوْ هُمْ قائِلُونَ إلى الأهل المحذوف ، والسكر : الخمر ، سميت بالمصدر من سكر سكراً وسكراً. نحو رشد رشداً ورشداً. قال :

وَجَاؤُنَا بهم سَكَرٌ عَلَيْنَا فَأَجْلَى اليَوْمُ وَالسَّكْرَانُ صَاحِى «1»

وفيه وجهان : أحدهما أن تكون منسوخة. وممن قال بنسخها : الشعبي والنخعي. والثاني أن يجمع بين العتاب والمنة. وقيل : السكر النبيذ ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ، ثم يترك حتى يشتدّ، وهو حلال عند أبى حنيفة إلى حدّ السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى اللّه عليه وسلم «الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب» «2» وبأخبار جمة. ولقد صنف شيخنا أبو على الجبائي قدّس اللّه روحه غير كتاب في تحليل النبيذ ، فلما شيخ «3» وأخذت منه السنّ العالية قيل له : لو شربت منه ما تتقوى به ، فأبى. فقيل له : فقد صنفت في تحليله ، فقال : تناولته الدعارة «4» فسمج في المروءة. وقيل : السكر الطعم «5» وأنشد :

جَعَلْتُ أَعْرَاضَ الكِرَامِ سَكَرَا

أى تنقلت بأعراضهم «6». وقيل هو من الخمر ، وإنه إذا ابترك «7» في أعراض الناس ، فكأنه تخمر بها. والرزق الحسن : الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك. ويجوز أن يجعل السكر رزقاً حسناً ، كأنه قيل : تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء ص 395 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). أخرجه النسائي من حديث ابن عباس رضى اللّه عنهما مرفوعا. ورواه العقيلي من وجه آخر عن على مرفوعا. وفيه محمد بن الفرات الكوفي ، وهو منكر الحديث.
(3). قوله «فلما شيخ وأخذت منه السن العالية» في الصحاح : شاخ الرجل يشيخ شيخا بالتحريك ، وشيخ تشييخا : أى شاخ. (ع)
(4). قوله «فقال تناولته الدعارة» في الصحاح : الدعارة الفسق والخبث. (ع) [.....]
(5). قوله «و قيل السكر الطعم» في الصحاح : الطعم بالضم : الطعام. (ع)
(6). قوله «أى تنقلت بأعراضهم» في الصحاح : النقل بالضم ما ينتقل به على الشراب. (ع)
(7). قوله «و إنه إذا ابترك» في الصحاح : ابترك ، أى أسرع في العدو وجد. (ع)

[سورة النحل (16) : الآيات 68 إلى 69]

وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(69)

الإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به ، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فنيقتها «1» في صنعتها ، ولطفها في تدبير أمرها ، وإصابتها فيما يصلحها ، دلائل بينة شاهدة على أنّ اللّه أودعها علماً بذلك وفطنها ، كما أولى أولى العقول عقولهم. وقرأ يحيى بن وثاب إِلَى النَّحْلِ بفتحتين. وهو مذكر كالنخل ، وتأنيثه على المعنى أَنِ اتَّخِذِي هي أن المفسرة ، لأنّ الإيحاء فيه معنى القول. وقرئ : «بيوتا» بكسر الباء لأجل الياء. ويَعْرِشُونَ بكسر الراء وضمها : يرفعون من سقوف البيوت. وقيل : ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تتعسل فيها. والضمير في يَعْرِشُونَ للناس. فإن قلت : ما معنى «من» في قوله أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟ قلت : أريد معنى البعضية ، وأن لا تبنى بيوتها «2» في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل «3» وتعتاد أكلها ، أى ابني البيوت ، ثم كلى من كل ثمرة تشتهينها ، فإذا أكلتها فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ أى الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل. أو فاسلكي ما أكلت في سبل ربك ، أى في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المرّ عسلا من أجوافك ومنافذ مآكلك. أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك ، فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك ، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها ،

(1). قوله «و إلا فنيقتها» أى تأنقها. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «قلت أريد معنى البعضية وأن لا تبنى بيوتها ... الخ» قال أحمد : ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه الزمخشري في تبعيض «من» المتعلقة باتخاذ البيوت بإطلاق الأكل ، كأنه تعالى وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها فلم يحجر عليها فيه وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض ، لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه. وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع ، ولهذا المعنى دخلت ثم لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت والإطلاق لها في تناول الثمرات ، كما تقول : راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل أى شيء شئت ، فتوسط ثم لتفاوت الحجر والإطلاق ، فسبحان اللطيف الخبير.
(3). قوله «بالثمرات التي تجرسها النحل» في الصحاح «الجرس» الصوت الخفي ، وجرست النحل العرفط إذا أكلته. وفيه أيضا «العرفط» شجر من العضاه. وفيه «العضاه» كل شجر يعظم وله شوك. (ع)

فقد بلغني أنها ربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة. أو أراد بقوله ثُمَّ كُلِي ثم اقصدي أكل الثمرات فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك ذُلُلًا جمع ذلول ، وهي حال من السبل ، لأنّ اللّه ذللها لها ووطأها وسهلها ، كقوله هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا أو من الضمير في فَاسْلُكِي أى : وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة شَرابٌ يريد العسل ، لأنه مما يشرب مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة ، وقلّ معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل ، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض ، كما أن كل دواء كذلك.

وتنكيره إمّا لتعظيم الشفاء الذي فيه ، أو لأن فيه بعض الشفاء ، وكلاهما محتمل. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أن رجلا جاء إليه فقال : إن أخى يشتكى بطنه ، فقال : «اذهب واسقه العسل» فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فما نفع ، فقال : «اذهب واسقه عسلا» فقد صدق اللّه وكذب بطن أخيك ، فسقاه فشفاه اللّه فبرأ ، كأنما

ومن بدع تأويلات الرافضة : أن المراد بالنحل علىّ وقومه : وعن بعضهم أنه قال عند المهدى : إنما النحل بنو هاشم ، يخرج من بطونهم العلم ، فقال له رجل : جعل اللّه طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم فضحك المهدى وحدث به المنصور ، فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم.

[سورة النحل (16) : آية 70]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70)

إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة عن علىّ رضى اللّه عنه.

وتسعون سنة عن قتادة ، لأنه لا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان ، وأن يعلم شيئا ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سئل عنه.

(1). متفق عليه من حديث أبى سعيد وغفل الحاكم فاستدركه.
(2). لم أره هكذا. وفي الكامل لابن عدى من رواية لابن إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد اللّه رفعه «عليكم بالشفاءين : العسل : شفاء من كل داء. والقرآن شفاء لما في الصدور» وقال : لم يرفعه عن وكيع عن الثوري إلا سفيان بن وكيع. قال ورواه زيد بن الحباب عن الثوري أيضا مرفوعا اه وأخرجه ابن ماجة وابن خزيمة والحاكم من رواية زيد بن الحباب بهذا الاسناد مرفوعا بلفظ «عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن» وابن أبى شيبة عن وكيع مرفوعا ولفظه «العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور» ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم والثعلبي أيضا. قال ابن أبى شيبة : وحدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حيية عن الأسود عن عبد اللّه قال «عليكم بالشفاءين القرآن والعسل».

وقيل : لئلا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئاً : وقيل : لئلا يعلم زيادة علم على علمه.

[سورة النحل (16) : آية 71]

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71)

أى : جعلكم متفاوتين في الرزق ، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم ، حتى تتساووا في الملبس والمطعم ، كما يحكى عن أبى ذرّ أنه سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : إنما هم إخوانكم ، فاكسوهم مما تلبسون ، وأطعموهم مما تطعمون «1» فما رئي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من عير تفاوت «2» أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ فجعل ذلك من جملة جحود النعمة. وقيل : هو مثل ضربه اللّه للذين جعلوا له شركاء ، فقال لهم : أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ، ولا تجعلونهم فيه شركاء ، ولا ترضون ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء. وقيل المعنى أنّ الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعاً ، فهم في رزقي سواء ، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئاً من الرزق. فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم. وقرئ : يجحدون ، بالتاء والياء.

[سورة النحل (16) : آية 72]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72)

مِنْ أَنْفُسِكُمْ من جنسكم. وقيل : هو خلق حواء من ضلع آدم. والحفدة : جمع حافد ، وهو الذي يحفد ، أى يسرع في الطاعة والخدمة. ومنه قول القانت. وإليك نسعى ونحفد وقال :

حَفَدَ الْوَلَائِدَ بَيْنَهُنَّ وَأُسْلِمَتْ بِأَكُفِّهِنَّ أزِمَّةَ الأَجْمَالِ «3»

واختلف فيهم فقيل : هم الأختان على البنات «4» وقيل : أولاد الأولاد. وقيل : أولاد المرأة من الزوج الأوّل.

(1). متفق عليه. وأخرجه أصحاب السنن.
(2). لم أره.
(3). يقول ، حفد من باب ضرب ، أى أسرع. الولائد : جمع وليدة وهي البنت الصغيرة ، بينهن : أى بين النساء الطاعنات. وأسلمت : مبنى للمجهول ، أى تركت في أكف الظعائن والولائد. أزمة الأجمال : جمع زمام ، وذلك دليل على حفظهن وصونهن ، حتى لا يتخلل ركبهن إلا الولائد.
(4). قوله «فقيل هم الأختان على البنات» في الصحاح : الحفدة الأعوان والخدم. وفيه أيضا : الخبّن بالتحريك كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ ، وهم الأختان ، كذا عند العرب وأما عند العامة فختن الرجل زوج ابنته اه فلعله أيضا ضمن الأختان معنى الأعوان أو الخلفاء فعداء بعلى. وفي الخازن عن ابن مسعود : الحفدة أختان الرجل على بناته. (ع)

وقيل : المعنى وجعل لكم حفدة ، أى خدما يحفدون في مصالحكم ويعينونكم ويجوز أن يراد بالحفدة : البنون أنفسهم ، كقوله سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً كأنه قيل : وجعل لكم منهنّ أولاداً هم بنون وهم حافدون ، أى جامعون بين الأمرين مِنَ الطَّيِّباتِ يريد بعضها ، لأنّ كل الطيبات في الجنة ، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها ، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة ، فليس لهم إيمان إلا به ، كأنه شيء معلوم مستيقن. ونعمة اللّه المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل وتمييز : هم كافرون بها منكرون لها كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقول.

وقيل : الباطل ما يسوّل لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما. ونعمة اللّه : ما أحل لهم.

[سورة النحل (16) : آية 73]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (73)

الرزق يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى ما يرزق ، فإن أردت المصدر نصبت به شَيْئاً كقوله أَوْ إِطْعامٌ ..... يَتِيماً على : لا يملك أن يرزق شيئاً. وإن أردت المرزوق كان شيئا بدلا منه بمعنى قليلا. ويجوز أن يكون تأكيداً للا يملك : أى لا يملك شيئاً من. الملك. ومِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ : صلة للرزق إن كان مصدراً بمعنى : لا يرزق من السموات مطرا ، ولا من الأرض نباتاً. أو صفة إن كان اسما لما يرزق. والضمير في وَلا يَسْتَطِيعُونَ لما ، لأنه في معنى الآلهة ، بعد ما قيل لا يَمْلِكُ على اللفظ. ويجوز أن يكون للكفار ، يعنى : ولا يستطيع هؤلاء - مع أنهم أحياء متصرفون أولو ألباب - من ذلك شيئا ، فكيف بالجماد الذي لا حسن به.

فإن قلت : ما معنى قوله وَلا يَسْتَطِيعُونَ بعد قوله لا يَمْلِكُ؟ وهل هما إلا شيء واحد؟ قلت : ليس في لا يَسْتَطِيعُونَ تقدير راجع ، وإنما المعنى : لا يملكون أن يرزقوا ، والاستطاعة منفية عنهم أصلا ، لأنهم موات ، إلا أن يقدر الراجع ويراد بالجمع بين نفى الملك والاستطاعة للتوكيد أو يراد : أنهم لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه ، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

[سورة النحل (16) : آية 74]

فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (74)

فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ تمثيل للإشراك باللّه والتشبيه به «1» ، لأنّ من يضرب الأمثال مشبه حالا بحال وقصة بقصة إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كنه ما تفعلون وعظمه ،

(1). قال محمود : «تمثيل للاشراك باللّه والتشبيه به ... الخ» قال أحمد : فعلى تفسيره الأول يكون قوله لِلَّهِ متعلقا بالأمثال ، كأنه قيل: فلا تمثلوا اللّه ولا تشبهوه. وعلى الثاني يكون متعلقا بالفعل الذي هو تضربوا ، كأنه قيل : فلا تمثلوا للّه الأمثال ، فان ضرب المثل إنما يستعمل من العالم لغير العالم ، ليبين له ما خفى عنه ، واللّه تعالى هو العالم وأنتم لا تعلمون ، فتمثيل غير العالم للعالم عكس الحقيقة ، واللّه أعلم.

وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم ، لأنّ العقاب على مقدار الإثم وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ كنهه وكنه عقابه ، فذاك هو الذي جرّكم إليه وجرأكم عليه ، فهو تعليل للنهى عن الشرك. ويجوز أن يراد : فلا تضربوا للّه الأمثال ، إنّ اللّه يعلم كيف يضرب الأمثال ، وأنتم لا تعلمون.

[سورة النحل (16) : آية 75]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (75)

ثم علمهم كيف تضرب فقال : مثلكم في إشراككم بالله الأوثان : مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حرّ مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء.

فإن قلت : لم قال مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ «1» وكل عبد مملوك ، وغير قادر على التصرف؟

قلت : أما ذكر المملوك فليميز من الحرّ ، لأن اسم العبد يقع عليهما جميعا ، لأنهما من عباد الله.

وأما لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له ، لأنهما يقدران على التصرف.

(1). عاد كلامه. قال : «فان قلت لم قال مملوكا لا يقدر على شيء ... الخ» قال أحمد : والقول بصحة ملكه هو مذهب الامام مالك رضى الله عنه. وفي هذه الآية له معتصم ، لأن الله تعالى مثل بالمملوك لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالبا ، ثم أفصح عن المعنى المقصود : وهو أن هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكة سيده فملك وقدر ، بل هو على الأصل المعهود في المماليك عاجز غير قادر ، ولو لم يكن ملك العبد متصورا ومعهودا شرعا وعرفا ، لكان قوله تعالى لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ كالتكرار لما فهم من قوله عَبْداً مَمْلُوكاً وقول القائل يقول إنه احتراز من المكاتب ، بعيد من فصاحة القرآن : فانه لو كان العبد لا يصح منه ملك البتة إلا في حال الكتابة ، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ ، كالألغاز الذي لا يعهد مثله في بيان القرآن واستيلائه على صنوف البلاغة. ومثل هذا أنكره الامام أبو المعالي على من حمل قوله عليه السلام : «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها» على المكاتبة لبعد القصد إليها على شذوذها.
وأما الاحتراز به عن المأذون له فيبنى على القول بأن المراد بعدم القدرة عدم المكنة من التصرف ، وإن لم يكن المأذون له مالكا عند هذا القائل. وهذا بعيد عن مطابقة قوله وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فإنها توجب أن يكون المراد بقوله لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ لا يملك شيئاً من الرزق ، كما تقول في الحر المفلس : فلان لا يقدر على شيء ، أى لا يملك شيئاً يقدر على التصرف فيه. فتلخص من هذا البحث أن في الآية مجالا لنصرة مذهب مالك ، وإن كان لقائل أن يقول : هذه الصفة لازمة كالإيضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك ، كأنه قيل : وإنما ضربنا المثل بالمملوك ، لأن صفته اللازمة له وسمته المعروفة به ، أنه لا يقدر على شيء. أى لا يصح منه ملك ، وكثيراً ما يجيء الحال والصفة لا يقصد بواحد منهما تقييده ولا تخصيص ، ولكن إيضاح وتفسير. ومن ذلك قوله تعالى وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فقوله لا برهان له به. لا يقصد به تمييز له سوى اللَّهُ من «إله» لأن كل مدعو إلها غير الله تعالى ، لا برهان به. وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير الله تعالى ، فهذا أقصى ما يمكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد. ولنا أن نقول في دفعه أن الأصل في الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقييد. وأما الوارد من ذلك لازما فنادر على خلاف الأصل ، والله الموفق. [.....]

واختلفوا في العبد هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصحّ له. فإن قلت : مَنْ في قوله وَمَنْ رَزَقْناهُ ما هي؟ قلت : الظاهر أنها موصوفة ، كأنه قيل : وحراً رزقناه ، ليطابق عبداً. ولا يمتنع أن تكون موصولة. فإن قلت : لم قيل يَسْتَوُونَ على الجمع؟ قلت : معناه : هل يستوي الأحرار والعبيد؟

[سورة النحل (16) : آية 76]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (76)

الأبكم الذي ولد أخرس ، فلا يَفهم ولا يُفهم وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أى ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله أَيْنَما يُوَجِّهْهُ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم ، لم ينفع ولم يأت بنجح هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ هو سليم الحواس نفاعا ذو كفايات ، مع رشد وديانة ، فهو يَأْمُرُ الناس بِالْعَدْلِ والخير وَهُوَ في نفسه عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ على سيرة صالحة ودين قويم. وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمتهَ وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية ، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع وقرئ : أينما يوجه ، بمعنى أينما يتوجه ، من قولهم : أينما أوجه ألق سعداً : وقرأ ابن مسعود : أينما يوجه ، على البناء للمفعول.

[سورة النحل (16) : آية 77]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أى يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه. أو أراد بغيب السموات والأرض : يوم القيامة ، على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ أى هو عند الله وإن تراخى ، كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه : هو كلمح البصر أو هو أقرب ، إذا بالغتم في استقرابه.

ونحوه قوله : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ أى هو عنده دان وهو عندكم بعيد. وقيل : المعنى أن إقامة الساعة وإماتة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين ، يكون في أقرب وقت وأوحاه «1» ، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(1). قوله «و أوحاه» أى : وأسرعه. أفاده الصحاح. (ع)

فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق ، لأنه بعض المقدورات. ثم دل على قدرته بما بعده.

[سورة النحل (16) : آية 78]

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)

قرئ أُمَّهاتِكُمْ بضم الهمزة وكسرها ، والهاء مزيدة في أمات ، كما زيدت في أراق ، فقيل : أهراق. وشذت زيادتها في الواحدة قال : أُمَّهَتِى خِنْدِفٌ وَإِلْيَاسُ أبِي «1»

لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً في موضع الحال. ومعناه : غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون ، وسوّاكم وصوّركم ، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة. وقوله وَجَعَلَ لَكُمُ معناه : وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به ، من شكر المنعم وعبادته ، والقيام بحقوقه ، والترقي إلى ما يسعدكم. والأفئدة في فؤاد ، كالأغربة في غراب ، وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها ، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير ، فجرت ذلك المجرى.

[سورة النحل (16) : آية 79]

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79)

قرئ : لم يروا ، بالتاء والياء مُسَخَّراتٍ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية «2» لذلك. والجوّ : الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلوّ والسكاك «3» أبعد منه ، واللوح مثله ما يُمْسِكُهُنَّ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن إِلَّا اللَّهُ بقدرته.

(1) إنى لدى الحرب رخى اللبب معتزم الصولة عالى النسب
أمهتى خندف وإلياس أبى
لقصي بن كلاب بن مرة جد النبي صلى الله عليه وسلم. ورخى اللبب. رحب الصدر واسع البال. واللبب في الأصل جبل في صدر المطية يمنع الرحلة من الاستئخار ، أطلق على ذلك للمجاورة. ومعتزم : مصمم. والصولة : تجشم المكروه واقتحامه. وزيادة الهاء في أمهة شاذ. وخندف ، بكسر الخاء والدال : امرأة إلياس بن مضر ، وهذا لقبها ، واسمها ليلى. والخندفة : مشية كالهرولة. وإطلاق الأم والأب على الجدة والجد : مجاز لمطلق الأصالة.
(2). قوله «و الأسباب المواتية لذلك» في الصحاح آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة إذا وافقته والعامة تقول : وأتيته. (ع)
(3). قوله «و السكاك أبعد منه» في الصحاح السكاك والسكاكة الهواء الذي يلاقي أعنان السماء وفيه أيضاً أعنان السماء صفائحها وما اعترض من أقطارها. والعنان بالفتح السحاب. (ع)

[سورة النحل (16) : آية 80]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (80)

مِنْ بُيُوتِكُمْ التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها. والسكن : فعل بمعنى مفعول ، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف بُيُوتاً هي القباب والأبنية من الأدم والأنطاع تَسْتَخِفُّونَها ترونها خفيفة المحمل في

[سورة النحل (16) : آية 81]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81)

مِمَّا خَلَقَ من الشجر وسائر المستظلات أَكْناناً جمع كنّ ، وهو ما يستكنّ به من البيوت المنحوتة في الجبال والغيران والكهوف سَرابِيلَ هي القمصان والثياب من الصوف والكتان «2» والقطن وغيرها تَقِيكُمُ الْحَرَّ لم يذكر البرد ، لأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم ، وقلما يهمهم البرد لكونه يسيراً محتملا. وقيل : ما يقي من الحرّ يقي من البرد «3»

(1). قال محمود : «المراد يخف عليكم حملها ونقلها ... الخ» قال أحمد : والتفسير الأول أولى ، لأن ظهور المنة في خفتها إنما يتحقق في حال السفر. وأما المستوطن فغير مثقل ، وما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم :
أن المراد خفة ضربها وسهولة ذلك عليهم ، والله أعلم.
(2). قال محمود : «هي القمصان والثياب من الصوف والكتان وغيرها ... الخ» قال أحمد : يعنى عند العرب وخصوصا قطان الحجاز ، وهم الأصل في هذا الخطاب.
(3). عاد كلامه. قال : «و قيل إن ما بقي الحر بقي البرد فدل ذكره عليه» قال أحمد : والأول أظهر. ألا ترى إلى تقديم المنة بالظلال التي تقى من الضحا ، في قوله تعالى جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا فدل على أن الأهم عند المخاطبين وقاية الحر ، فامتن الله عليهم بأعظم نعمه موقعا عندهم. وقول القائل «إن ما يقي الحر يقي البرد» مشهود عليه بالعرف ، فان الذي يتقى به الحر من القمصان رقيقها ورفيعها ، وليس ذلك من البوس البرد ، بل لو لبس الإنسان في كل واحد من الفصلين - القيظ والبرد - لباس الآخر ، يعد من الثقلاء.

فدل ذكر الحرّ على البرد وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ يريد الدروع والجواشن «1» والسربال عامّ يقع على كل ما كان من حديد وغيره لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ أى تنظرون في نعمه الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له. وقرئ : تسلمون ، من السلامة : أى تشكرون فتسلمون من العذاب. أو تسلم قلوبكم من الشرك. وقيل : تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

[سورة النحل (16) : الآيات 82 إلى 83]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (83)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فلم يقبلوا منك فقد تمهد عذرك بعد ما أدّيت ما وجب عليك من التبليغ ، فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ التي عددناها حيث يعترفون بها وأنها من الله ثُمَّ يُنْكِرُونَها بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم : هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا. وقيل : إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا. وقيل : قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله. وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سبباً في نيلها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ أى الجاحدون غير المعترفين. وقيل نِعْمَتَ اللَّهِ نبوّة محمد عليه السلام ، كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً ، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم. فإن قلت : ما معنى ثم؟ قلت: الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة ، لأنّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.

[سورة النحل (16) : الآيات 84 إلى 85]

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (85)

شَهِيداً نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق ، والكفر والتكذيب ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا في الاعتذار. والمعنى. لا حجة لهم ، فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر ، وكذا عن الحسن وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ولا هم يسترضون ، أى : لا يقال لهم أرضوا ربكم : لأن الآخرة ليست بدار عمل. فإن قلت : فما معنى ثم هذه؟ قلت: معناها أنهم يمنون «2» بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها ،

(1). قوله «و الجواشن» في الصحاح : الجوشن الصدر. والجوشن الدرع. (ع)
(2). قوله «يمنون» في الصحاح : منوته ومنيته إذا ابتليته. (ع)

وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة. وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره : واذكر يوم نبعث ، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه ، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ كقوله بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ... الآية.

[سورة النحل (16) : الآيات 86 إلى 87]

وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (87)

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم ، فمعنى شُرَكاؤُنَا آلهتنا التي دعوناها شركاء. وإن أرادوا الشياطين ، فلأنهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغىّ : ونَدْعُوا بمعنى نعبد. فإن قلت : لم قالوا إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ وكانوا يعبدونهم على الصحة؟ قلت : لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة. والدليل عليه قول الملائكة كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ يعنون أن الجن كانوا راضين بعبادتهم لا نحن ، فهم المعبودون دوننا. أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها للّه من الشريك. وإن أريد بالشركاء الشياطين ، جاز أن يكون «كاذبين» في قولهم إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ كما يقول الشيطان : إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل وَأَلْقَوْا يعنى الذين ظلموا. وإلقاء السلم : الاستسلام لأمر اللّه وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا وَضَلَّ عَنْهُمْ وبطل عنهم ما كانُوا يَفْتَرُونَ من أن للّه شركاء ، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم.

[سورة النحل (16) : آية 88]

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (88)

الَّذِينَ كَفَرُوا في أنفسهم ، وحملوا غيرهم على الكفر : يضاعف اللّه عقابهم كما ضاعفوا كفرهم. وقيل في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها «1» أربعين خريفا. وقيل : يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار بِما كانُوا يُفْسِدُونَ بكونهم مفسدين الناس بصدّهم عن سبيل اللّه.

(1). قوله «حمتها» حمة العقرب بالتخفيف ، والهاء عوض عن اللام وهي سمها. واما حمة الحر ، فبالتشديد ، وهي معظمه ، أفاده الصحاح. (ع)

[سورة النحل (16) : آية 89]

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (89)

شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ يعنى نبيهم ، لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم وَجِئْنا بِكَ يا محمد شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ على أمتك تِبْياناً بيانا بليغاً ونظير «تبيان» «تلقاء» في كسر أوله ، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن. فإن قلت : كيف كان القرآن تبيانا لِكُلِّ شَيْ ءٍ؟

قلت : المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين ، حيث كان نصا على بعضها وإحالة على السنة ، حيث أمر فيه باتباع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وطاعته. وقيل : وما ينطق عن الهوى. وحثاً على الإجماع في قوله وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وقد رضى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأمته اتباع أصحابه ، والاقتداء بآثارهم في قوله صلى اللّه عليه وسلم «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» «1» وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد ، مستندة إلى تبيان الكتاب ، فمن ثمّ كان تبيانا لكل شيء.

[سورة النحل (16) : آية 90]

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)
العدل هو الواجب ، «2» لأن اللّه تعالى عدل فيه على عباده «3» فجعل ما فرضه عليهم واقعاً تحت طاقتهم
وَالْإِحْسانِ الندب ،

(1). أخرجه الدارقطني في المؤتلف من رواية سلام بن سليم عن الحرث بن غصن عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر مرفوعا. وسلام ضعيف. وأخرجه في غرائب مالك من طريق حميد بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر في أثناء حديث : وفيه «فبأى قول أصحابى أخذتم اهتديتم ، إنما مثل أصحابى مثل النجم من أخذ بنجم منها اهتدى» وقال : لا يثبت عن مالك. ورواته دون مالك مجهولون. ورواه عبد بن حميد والدارقطني في الفضائل من حديث حمزة الحريري عن نافع عن ابن عمر. وحمزة اتهموه بالوضع. ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبى هريرة وفيه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي وقد كذبوه. ورواه ابن طاهر من رواية بشر بن الحسين عن الزبير بن عدى عن أنس. وبشر كان متهما أيضاً. وأخرجه البيهقي في المدخل من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس وجويبر متروك. ومن رواية جويبر أيضا عن حواب بن عبد اللّه مرفوعا وهو مرسل ، قال البيهقي هذا المتن مشهور وأسانيده كلها ضعيفة. وروى في المدخل أيضا عن عمر ورفعه «سألت ربى فيما يختلف فيه أصحابى من بعدي. فأوحي إلى: يا محمد إن أصحابك عندي بمنزلة النجوم في السماء ، بعضها أضوأ من بعض فمن أخذ بشيء مما هو عليه من اختلافهم فهو عندي على هدى» وفي إسناده عبد الرحيم بن زيد السهمي ، وهو متروك.
(2). قال محمود : «العدل : الواجب. والإحسان : الندب» قال أحمد : وفي جمعهما تحت الأمر ما يدل لمن قال إن صيغة الأمر - أعنى هذه المبنية من الهمزة والميم والراء لا صيغة أفعل - تتناول القبيلين بطريق التواطؤ وموضعها القدر المشترك بينهما من الطلب واللّه أعلم.
(3). عاد كلامه. قال : «و إنما كان الواجب عدلا لأن اللّه تعالى عدل فيه على عباده ... الخ» قال أحمد :
وهذه وليجة من الاعتزال. ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لا يطاق لأنه ظلم وجور ، وذلك على اللّه محال.
والحق والسنة أن كل قضاء اللّه عدل ، وأن تكليف ما لا يطاق جائز عليه وعدل منه لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ بل التكاليف كلهاعلى خلاف الاستطاعة ، على مقتضى توحيد أهل السنة ، المعتقدين أن كل موجود بقدرة اللّه تعالى حدث ووجد ، لا شريك له في ملكه ، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً في قبضة ملكه ، هذا هو التوحيد المحض.
وإذا كان العبد مكلفا بما هو من فعل اللّه ، فهذا عين التكليف بما لا يطاق ، ولكن ذلك عدل من اللّه تعالى ، وحجته البالغة قائمة على المكلف بما خلقه له من التأتى والتيسر في الأفعال الاختيارية التي هي محال التكاليف ،

وإنما علق أمره بهما جميعاً ، لأنّ الفرض لا بدّ من أن يقع فيه تفريط «1» فيجبره الندب ، ولذلك قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - لمن علمه الفرائض فقال : واللّه لا زدت فيها ولا نقصت - : «أفلح إن صدق» «2» فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط وقال صلى اللّه عليه وسلم «استقيموا ولن تحصوا» «3» فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط ممن النوافل. والفواحش : ما جاوز حدود اللّه وَالْمُنْكَرِ ما تنكره العقول «4» وَالْبَغْيِ طلب التطاول بالظلم ، «5» وحين أسقطت من الخطب «6» لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علىّ رضى اللّه عنه ، أقيمت هذه الآية مقامها. ولعمري إنها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً ، ضاعف اللّه لمن سنها غضباً ونكالا وخزيا ، إجابة لدعوة نبيه :

(1). عاد كلامه. قال : «و إنما قرنهما في الأمر ، لأن الفرض لا يخلو من خلل وتفريط يجبره الندب ...
الخ» قال أحمد : وهذه نكتة حسنة يجاب بها عن قول القائل : لم حكم عليه الصلاة والسلام بفلاح المصر على ترك السنن ، فيقال : المحكوم بفلاحه لأجله إنما هو الصدق في سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة ، واللّه أعلم. [.....]
(2). متفق عليه من رواية طلحة بن عبيد اللّه أحد العشرة رضى اللّه عنهم.
(3). أخرجه ابن ماجة والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة والدارمي وأبو يعلى من رواية سالم بن أبى الجعد عن ثوبان. وهو منقطع. ورواه ابن حبان والطبراني من وجه آخر عن ثوبان. ورواه الحاكم من رواية الأعمش عن أبى سفيان عن جابر. ورواه الطبراني والعقيلي من حديث سلمة بن الأكوع وفيه الواقدي. وأخرجه ابن أبى شيبة وإسحاق والبزار والطبراني عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن عبد اللّه بن عمرو ، وليث ضعيف. وأشار البزار إلى أنه تفرد به.
(4). عاد كلامه. قال : «و الفواحش ما جاوز حدود اللّه ، والمنكر ما تنكره العقول» قال أحمد : وهذه أيضا لفتة إلى الاعتزال ، ولو قال : والمنكر ما أنكره الشرع لوافق الحق ، ولكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتقبيح بالعقل ، واللّه الموفق.
(5). عاد كلامه. قال : «و البغي طلب التطاول بالظلم» قال أحمد : وأصل موضوعه الطلب ، ومنه ابتغاء وجه اللّه ، ابتغاء مرضاة اللّه ، ولكن صار مطلقه خاصا بطلب الظلم عرفا.
(6). عاد كلامه. قال : «و حين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم اللّه وجه ... الخ» قال أحمد : ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهناة ، لاحظ التطبيق بين ذكر النهى عن البغي فيها ، وبين الحديث الوارد : في أن المناصب لعلى باغ ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام لعمار وكان من حزب على :
تقتلك الفئة الباغية ، واللّه أعلم ، فقتل مع على يوم صفين.

«و عاد من عاداه» «1» وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

[سورة النحل (16) : الآيات 91 إلى 92]

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (91) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92)

عهد اللّه : هي البيعة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الإسلام إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ. وَلا تَنْقُضُوا أيمان البيعة بَعْدَ تَوْكِيدِها أى بعد توثيقها باسم اللّه. وأكد ووكد : لغتان فصيحتان ، والأصل الواو ، والهمزة بدل كَفِيلًا شاهداً ورقيباً ،

(1). هذا طرف من حديث غدير خم الوارد في فضل على بن أبى طالب رضى اللّه عنه. وقد أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت عن الطفيل عن زيد بن أرقم. وفيه هذا اللفظ.
ورواه النسائي أيضا من رواية شريك : قلت لأبى إسحاق : أسمعت البراء يحدث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟
قال يوم غدير خم «من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» قال : نعم. وأخرجه ابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار من وجه آخر عن شريك عن إدريس بن يزيد الأودي عن أبيه عن أبى هريرة وتابعه عكرمة بن إبراهيم عن إدريس عند الطبراني ، ورواه الطبري أيضا من طريق سليمان بن قوم عن أبى إسحاق عن حبشي بن جنادة. وأخرجه النسائي أيضا من طريق مهاجر بن مسمار عن عائشة بنت سعد عن أبيها أن النبي صلى اللّه عليه وسلم «أخذ بيد على يوم غدير خم فقال : من كنت وليه فهذا وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وأخرجه الحاكم من رواية مسلم الملائى عن حثمة بن عبد الرحمن عن سعد بن مالك نحوه وفي الباب عن ابن عمر أخرجه الطبراني من طريق عطية عنه والبزار من طريق جميل بن عمارة عن سالم عن أبيه وعن أنس وغيره أخرجه الطبراني في الصغير من رواية طلحة بن مصرف عن عميرة بن سعد قال : شهدت علياً على المنبر ناشد الصحابة : من سمعه يقول يوم غدير خم ما قال؟ فقام اثنا عشرة ، منهم أبو هريرة وأبو سعيد وأنس» وعن جرير أخرجه الطبراني مطولا : وعن طلحة أخرجه الحاكم من رواية رفاعة بن إياس العمى عن أبيه عن جده قال «كنا مع على يوم الجمل فبعث إلى طلحة فقال له : نشدتك اللّه ، ألم تسمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول - فذكره ، فقال : نعم. قال :
فلم تقاتلني؟ قال : لم أذكره وانصرف طلحة» وعن جابر أخرجه أبو يعلى ، والطبراني في مسند الشاميين من طريق ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن قبيصة بن ذؤيب وأبى سلمة عن جابر ، وعن حذيفة بن أسيد أخرجه الطبراني وجمع ابن عقدة طرف حديث غدير خم. فأخرجه من رواية جماعة آخرين من الصحابة مع هؤلاء : منهم عمار بن ياسر ، والعباس وابنه ، والحسن بن على والحسين بن على ، وعبد اللّه بن جعفر ، وسلمان الفارسي ، وسمرة بن جندب ، وسلمة بن الأكوع ، وزيد بن حارثة. وأبو رافع ، وزيد بن ثابت الأنصارى ، ويعلى بن مرة وآخرون.

لأن الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه وَلا تَكُونُوا في نقض الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أَن أحكمته وأبرمته فجعلته أَنْكاثاً جمع نكث وهو ما ينكث فتله. قيل : هي ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء، اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ، ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن تَتَّخِذُونَ حال ودَخَلًا أحد مفعولي اتخذ. يعنى : ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلا بَيْنَكُمْ أى مفسدة ودغلا «1» أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ بسبب أن تكون أمة يعنى جماعة قريش هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ هي أزيد عدداً وأوفر مالا. من أمة من جماعة المؤمنين إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ الضمير لقوله : أن تكون أمة ، لأنه في معنى المصدر ، أى : إنما يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتتمسكون بحيل الوفاء بعهد اللّه وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوّتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم؟ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

[سورة النحل (16) : آية 93]

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93)

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار ، «2» وهو قادر على ذلك وَلكِنْ الحكمة اقتضت أن يضلّ مَنْ يَشاءُ وهو أن يخذل من علم أنه يختار «3» الكفر ويصمم عليه وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان.

يعنى : أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان ، والثواب والعقاب ، ولم يبنه على الإجبار الذي لا يستحق به شيء من ذلك ، وحققه بقوله وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ولو كان هو المضطرّ إلى الضلال «1» والاهتداء ، لما أثبت لهم عملا يسئلون عنه «2».

(1). قوله «و دغلا» في الصحاح «الدغل» بالتحريك : الفساد ، مثل الدخل (ع)
(2). قال محمود : «معناه على طريقة الإلجاء والقسر» قال أحمد : وهذا تفسير اعتزالى قد قدم أمثاله في أخوات هذه الآية ، وغرضه الفرار من الحق المستفاد من تعليق المشيئة بلو ، الدالة على أن مشيئة اللّه تعالى لايمان الخلق كلهم ما وقعت ، وأنه إنما شاء منهم

(3). قوله «و هو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة ، فالاضلال : خلق الضلال في القلب ، لأنه يجوز على اللّه خلق الشر عندهم دون المعتزلة ، كما بين في محله. (ع)

[سورة النحل (16) : آية 94]

وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ(94)

ثم كرر النهى عن اتخاذ الأيمان دخلا بينهم ، تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم ما يركب منه فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها فتزلّ أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها وَتَذُوقُوا السُّوءَ في الدنيا بصدودكم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وخروجكم من الدين. أو بصدّكم غيركم ، لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدّوا ، لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ في الآخرة.

[سورة النحل (16) : آية 95]

وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95)

كان قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان - لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ، وإيذائهم لهم ، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد - أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فثبتهم اللّه ، وَلا تَشْتَرُوا ولا تستبدلوا بِعَهْدِ اللَّهِ وبيعة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثَمَناً قَلِيلًا عرضاً من الدنيا يسيراً ، وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ من إظهاركم وتغنيمكم ، ومن ثواب الآخرة خَيْرٌ لَكُمْ.

[سورة النحل (16) : آية 96]

ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (96)

ما عِنْدَكُمْ من أعراض الدنيا يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ من خزائن رحمته باقٍ لا ينفد.

وقرئ لَنَجْزِيَنَّ بالنون والياء الَّذِينَ صَبَرُوا على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام.

(1). قوله «و لو كان هو المضطر إلى الضلال» على معنى اسم الفاعل ، أى الذي يضطر العباد ويلجئهم. وقوله «لما أثبت ... الخ» مسلم ، ولكنه لم يضطرهم ولم يلجئهم ولو كان هو الخالق لأعمالهم في الحقيقة ، لما لهم فيها من الكسب كما قرره أهل السنة في علم التوحيد ، فلينظر. (ع)

(2). عاد كلامه. قال محمود : ومما يدل على أن اللّه لم يبن الأمر على الإجبار وإنما بناه على الاختيار قوله تعالى وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ولو كان هو المضطر للهداية والضلال لما أثبت لهم ما يسألون عنه» قال أحمد :

أما أهل السنة الذين يسميهم المصنف مجبرة فهم من الإجبار بمعزل ، لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختياراً وأفعالا ، وهم مع ذلك يوحدون اللّه حق توحيده ، فيجعلون قدرته تعالى هي الموجدة والمؤثرة ، وقدرة العبد مقارنة فحسب ، تمييزاً بين الاختياري والقسري وتقوم بها حجة اللّه على عبده ، واللّه الموفق.

فإن قلت : لم وحدت القدم ونكرت؟ «1» قلت : لاستعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟

[سورة النحل (16) : آية 97]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ(97)

فإن قلت : مَنْ متناول في نفسه للذكر والأنثى ، فما معنى تبيينه بهما؟ قلت : هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور ، فقيل مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى على التبيين ، ليعمّ الموعد النوعين جميعاً حَياةً طَيِّبَةً يعنى في الدنيا وهو الظاهر ، لقوله وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة ، كقوله فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وذلك أنّ المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً ، فلا مقال فيه. وإن كان معسراً ، فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله. وأمّا الفاجر فأمره على العكس : إن كان معسراً فلا إشكال في أمره ، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه. وعن ابن عباس رضى الله عنه : الحياة الطيبة : الرزق الحلال.

وعن الحسن : القناعة. وعن قتادة : يعنى في الجنة. وقيل : هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه.

[سورة النحل (16) : الآيات 98 إلى 100]

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100)

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه ، وصل به قوله فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إيذاناً بأن الاستعاذة من جمله الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب. والمعنى : فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ كقوله إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وكقولك : إذا أكلت فسمّ الله. فإن قلت : لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟ قلت : لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه ، فكان منه بسبب قويّ وملابسة ظاهرة. وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ،

(1). قال محمود : «إن قلت لم وحدت القدم ونكرت ... الخ» قال أحمد : ومن جنس إفادة التنكير هاهنا التقليل : إفادته له في قوله تعالى وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ وفي قوله عز وجل اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ فنكر الأذن والنفس تقليلا للواعى من الناس لما يقضى بسداده ، وللناظر من الخلق في أمر معاده ، والله الموفق.

فقال لي : «يا ابن أمّ عبد. قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ» «1» لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ أى تسلط وولاية على أولياء الله ، يعنى : أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته إِنَّما سُلْطانُهُ على من يتولاه ويطيعه بِهِ مُشْرِكُونَ الضمير يرجع إلى ربهم. ويجوز أن يرجع إلى الشيطان ، على معنى : بسببه وغروره ووسوسته.

[سورة النحل (16) : آية 101]

وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (101)

تبديل الآية مكان الآية : هو النسخ ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح ، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم ، وخلافه مصلحة. والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد ، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته. وهذا معنى قوله وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ وجدوا مدخلا للطعن فطعنوا ، وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون : إن محمدا يسخر من أصحابه : يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، فيأتيهم بما هو أهون ، ولقد افتروا ، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون ، والأهون بالأشق ، والأهون بالأهون ، والأشق بالأشق ، لأنّ الغرض المصلحة ، لا الهوان والمشقة. فإن قلت : هل في ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله ، ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟

قلت : فيه أن قرآناً ينسخ بمثله وليس فيه نفى نسخه بغيره ، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم ، فنسخه بها كنسخه بمثله ، وأمّا الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها.

[سورة النحل (16) : آية 102]

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (102)

في يُنَزِّلُ ونَزَّلَهُ وما فيهما من التنزيل شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث والمصالح : إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل ، وأنّ ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة. ورُوحُ الْقُدُسِ جبريل عليه السلام ، أضيف إلى القدس وهو الطهر ، كما يقال : حاتم الجود وزيد الخير ، والمراد الروح المقدّس ، وحاتم الجواد ، وزيد الخير. والمقدّس : المطهر من المآثم.

(1). رواه الثعلبي مسلسلاً عن شيخه أبى الفضل محمد بن جعفر الخزاعي إلى ابن مسعود. ورواه الواحدي في الوسيط عن الثعلبي.

وقرئ : بضم الدال وسكونها بِالْحَقِّ في موضع الحال ، أى نزله ملتبساً بالحكمة ، يعنى أن النسخ من جملة الحق لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ليبلوهم بالنسخ ، حتى إذا قالوا فيه : هو الحق من ربنا والحكمة ، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب ، على أن اللّه حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب وَهُدىً وَبُشْرى مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت. والتقدير : تثبيتا لهم وإرشادا وبشارة ، وفيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم. وقرئ : ليثبت ، بالتخفيف.

[سورة النحل (16) : آية 103]

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)

أرادوا بالبشر : غلاما كان لحويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب. وقيل : هو جبر ، غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي. وقيل عبدان : جبر ويسار ، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل ، فكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا مرّ وقف عليهما يسمع ما يقرآن ، فقالوا : يعلمانه ، فقيل لأحدهما ، فقال : بل هو يعلمني.

وقيل : هو سلمان الفارسي. واللسان : اللغة. ويقال : ألحد القبر ولحده ، وهو ملحد وملحود ، إذا أمال حفره عن الاستقامة ، فحفر في شق منه ثم استعير لكل إمالة عن استقامة ، فقالوا : ألحد فلان في قوله ، وألحد في دينه. ومنه الملحد ، لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها ، لم يمله عن دين إلى دين. والمعنى : لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أَعْجَمِيٌّ غير بين وَهذا القرآن لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ذو بيان وفصاحة ردّا لقولهم وإبطالا لطعنهم. وقرئ يُلْحِدُونَ بفتح الياء والحاء. وفي قراءة الحسن : اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان. فإن قلت : الجملة التي هي قوله لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ما محلها؟ قلت : لا محل لها ، لأنها مستأنفة جواب لقولهم. ومثله قوله اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ بعد قوله وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ.

[سورة النحل (16) : الآيات 104 إلى 105]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (105)

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ أى يعلم اللّه منهم أنهم لا يؤمنون لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ لا يلطف بهم ، لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة ، لا من أهل اللطف والثواب إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ ردّ لقولهم إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ يعنى : إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ، لأنه لا يترقب عقاباً عليه وَأُولئِكَ إشارة إلى قريش هُمُ الْكاذِبُونَ أى هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون. أو إلى الذين لا يؤمنون. أى أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب ، لأنّ تكذيب آيات اللّه أعظم الكذب : أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء ، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين. أو أولئك هم الكاذبون في قولهم إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ.

[سورة النحل (16) : الآيات 106 إلى 109]

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (106) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (107) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (108) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (109)

مَنْ كَفَرَ بدل من الذين لا يؤمنون بآيات اللّه ، على أن يجعل وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ اعتراضاً بين البدل والمبدل منه. والمعنى : إنما يفترى الكذب من كفر باللّه من بعد إيمانه.

واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء ، ثم قال وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً أى طاب به نفسا واعتقده فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ويجوز أن يكون بدلا من المبتدإ الذي هو أُولئِكَ على : ومن كفر باللّه من بعد إيمانه هم الكاذبون. أو من الخبر الذي هو الكاذبون ، على : وأولئك هم من كفر باللّه من بعد إيمانه. ويجوز أن ينتصب على الذمّ. وقد جوّزوا أن يكون مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ شرطاً مبتدأ ، ويحذف جوابه ، لأنّ جواب مَنْ شَرَحَ دال عليه ، كأنه قيل : من كفر باللّه فعليهم غضب ، إلا من أكره ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب. روى أنّ ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه ، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان ، منهم عمار ، وأبواه - ياسر وسمية - وصهيب ، وبلال ، وخباب ، وسالم : عذبوا ، فأمّا سمية فقد ربطت بين بعيرين وو جيء في قبلها بحربة ، وقالوا : إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها ، فقيل يا رسول اللّه ، إن عماراً كفر ، فقال : «كلا ، إنّ عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يبكى ، فجعل النبي صلى اللّه عليه وسلم يمسح عينيه ، وقال : «مالك! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» ومنهم جبر مولى الحضرمي ، أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه

وأسلم ، وحسن إسلامهما ، وهاجرا «1». فإن قلت : أى الأمرين أفضل ، أفعل عمار أم فعل أبويه؟ قلت : بل فعل أبويه ، لأنّ في ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام. وقد روى أنّ مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول في محمد؟ قال : رسول اللّه. قال : فما تقول فىّ؟

قال أنت أيضاً ، فخلاه. وقال للآخر : ما تقول في محمد؟ قال : رسول اللّه. قال : فما تقول فىّ؟

قال أنا أصمّ. فأعاد عليه ثلاثاً ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «أما الأوّل فقد أخذ برخصة اللّه. وأمّا الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له «2»» ذلِكَ إشارة إلى الوعيد ، وأنّ الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة ، واستحقاقهم خذلان اللّه بكفرهم وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ الكاملون في الغفلة ، الذين لا أحد أغفل منهم ، لأنّ الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها.

[سورة النحل (16) : الآيات 110 إلى 111]

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (111)

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك ، وهم عمار وأصحابه. ومعنى : إنّ ربك لهم ، أنه لهم لا عليهم ، بمعنى أنه وليهم وناصرهم لا عدوّهم وخاذلهم ، كما يكون الملك الرجل لا عليه ، فيكون محمياً منفوعا غير مضرور مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا بالعذاب والإكراه على الكفر.

---

(1). هكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند. وروى الحاكم من حديث زر عن ابن مسعود قال : «أول من أظهر إسلامه سبعة : فذكرهم إلى أن قال : فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد - الحديث» ورواه ابن سعد من طريق منصور عن مجاهد قال «أول من أظهر فذكر مثله - وزاد فجاء أبو جهل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها. فهي أول شهيد في الإسلام. قلت قوله صلى اللّه عليه وسلم «إن عماراً مليء إيمانا» رواه [بياض في الأصلين] وقوله «اختلط الايمان بلحمه ودمه» رواه [بياض في الأصلين] وقوله «إن عادوا لك فعد لهم» رواه [بياض في الأصلين] [.....]

(2). أخرجه ابن أبى شيبة قال : حدثنا إسماعيل بن علية عن يونس عن الحسن «أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول اللّه؟ قال : نعم. قال : أتشهد أنى رسول اللّه؟ فأهوى إلى أذنيه وقال : إنى أصم ، فأعاد عليه ، فقال مثله ، فأمر بقتله. وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول اللّه؟ قال : نعم. قال : أتشهد أنى رسول اللّه؟ قال : نعم ، فأرسله. فأتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : هلكت.

فقال : وما شأنك؟ فأخبره بقصته وقصة صاحبه فقال أما صاحبك فمضى على إيمانه. وأما أنت فأخذت بالرخصة.

وأخرجه عبد الرزاق في التفسير عن معمر قال : سمعت أن مسيلمة أخذ رجلين فذكره بنحوه. وذكر الواحدي في المغازي أن اسم المقتول : حبيب بن زيد عم عباد بن تميم ، واسم الآخر : عبد اللّه بن وهب الأسلمي. قال : وكان في الساقة. وذكروا أنه قطعه عضواً عضواً وأحرقه بالنار.

وقرئ فُتِنُوا على البناء للفاعل ، أى : بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمى وأشباهه مِنْ بَعْدِها من بعد هذه الأفعال وهي الهجرة والجهاد والصبر يَوْمَ تَأْتِي منصوب برحيم. أو بإضمار اذكر. فإن قلت : ما معنى النفس المضافة

[سورة النحل (16) : الآيات 112 إلى 113]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ(113)
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً أى جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم اللّه عليهم فأبطرتهم النعمة ، فكفروا وتولوا ، فأنزل اللّه بهم نقمته. فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن تكون في قرى الأوّلين قرية كانت هذه حالها ، فضربها اللّه مثلا لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها مُطْمَئِنَّةً لا يزعجها خوف ، لأن الطمأنينة مع الأمن ، والانزعاج والقلق مع الخوف رَغَداً واسعاً. والأنعم : جمع نعمة ، على ترك الاعتداد بالتاء ، كدرع وأدرع.

أو جمع نعم ، كبؤس وأبؤس. وفي الحديث. نادى منادى النبي صلى اللّه عليه وسلم بالموسم بمنى : «إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا «1»». فإن قلت : الإذاقة واللباس استعارتان ، فما وجه صحتهما؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه «2»؟

(1). لم أجده هكذا.
(2). قال محمود : «إن قلت الاذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحة إيقاع الاذاقة على اللباس ... الخ»؟
قال أحمد : وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر لا بالحبر ، وقد نظر إليهما جميعاً في قوله تعالى أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على الهدى ، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها ، ثم جاء ملاحظا الشراء المستعار قوله فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ فاستعمل التجارة والربح ليناسب ذلك لاستعارة الشراء ، ثم جاء ملاحظا الحقيقة الأصلية المستعار لها قوله وَما كانُوا مُهْتَدِينَ فانه مجرد عن الاستعارة ، إذ لو قيل أولئك الذين ضلوا وما كانوا مهتدين ، لكان الكلام حقيقة معرى عن ثوب الاستعارة والنظر إلى المستعار في بابه ، كترشيح المجاز في بابه. ومنه :
إذا الشيطان قصع في قفاها تنفقناه بالحبل التؤام
فجعل الشيطان في قفاها قاصعاً ثم نافقاً ، ثم جعله مستخرجا بالحبل المحكم المثنى كما يستخرج الحيوان من جحره ، والشوط في هذا الفن البديع فطين ، والله الموفق.

قلت : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب : شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع «1». وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس : ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث. وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، فكأنه قيل : فأذاقه ما غشيهم من الجوع والخوف ، ولهم في نحو هذا طريقان لا بد من الإحاطة بهما ، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما ، أحدهما : أن ينظروا فيه إلى المستعار له ، كما نظر إليه هاهنا. ونحوه قول كثير : غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً غَلِقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقَابُ المَالِ «2»

استعارة الرداء للمعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه. ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف «3» والنوال ، لا صفة الرداء ، نظر إلى المستعار له. والثاني :

أن ينظروا فيه إلى المستعار ، كقوله :

يُنَازِعُنِى رِدَائِى عَبْدُ عَمْرٍو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرِو بْنِ بَكْر

لِيَ الشَّطْرُ الَّذِى مَلَكَتْ يَمِينِى وَدُونَكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ «4»

(1). قوله «بما يدرك من الطعم المر والبشع» عبارة غيره : طعم المر والبشع ، ولعله المر البشع بدون واو. (ع)
(2). لكثير. والغمر : الكثير. وشبه العطاء بالرداء ، لأنه يصون عرض صاحبه أو يستر فقر السائل ، فاستعاره له على سبيل التصريحية وإضافة الغمر إليه تجريد ، لأنه يلائم المشبه. هذا وقد يقال الغمر ، يطلق على الماء الذي يغمر قامة المنغمس فيه ، فيجوز أنه يشبه العطاء من حيث صونه عرض صاحبه بالرداء ، فيكون استعارة مصرحة ، وتكون إضافة الغمر إليه من إضافة المشبه به للمشبه ، يجامع عموم كل ونفعه ، والقرينة على كل ذلك قوله : إذا تبسم. شارعا في الضحك : غلقت لضحكته رقاب المال : يقال : غلق الرجل إذا ضجر وغضب ، وغلق الرهن إذا ملكه المرتهن ولم يقدر صاحبه على فكه ، وكانت تلك عادتهم. فالمعنى : إذا ضحك غضبت الأموال لعلها أنها ستؤخذ ويملكها غيره ، أو ثبتت في أيدى السائلين وملكوها. ورقاب المال : مجاز مرسل ، أى أعيانه.

(3). قوله «و وصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف» في الصحاح الغمر الماء الكثير. وفيه «الاعتجار» لف العمامة على الرأس، وفيه «الضافي» السابغ. (ع)
(4). استعار المنازعة لتسببه في امتداد السيف إليه حتى توسط بينهما ، كالشيء يتجاذبه اثنان. واستعار الرداء السيف بجامع حفظ كل لصاحبه وعدم الاستغناء عنه. والاعتجار ترشيح ، ومعناه : التعمم أو التلفع ، فهو ملائم الرداء. ويحتمل أن التركيب كله من باب التمثيل. وعبد عمرو : فاعل. ورويدك : اسم فعل ، بمعنى أمهل ، والكاف حرف خطاب ، قاله الجوهري. وبالنظر لأصله فهو مصدر، والكاف مضاف إليه ، وفيه التفات. وبكر :
أبو قبيلة. والشطر الذي ملكته يمينه : هو مقبض السيف. ودونك : اسم فعل بمعنى خذ» أى خذه فتلفع منه بالشطر الآخر وهو صدره ، والأمر للاباحة ، وفيه نوع تهكم»

أراد بردائه سيفه ، ثم قال : فاعتجر منه بشطر ، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار ، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل : فكساهم لباس الجوع والخوف ، ولقال كثير : ضافى الرداء إذا تبسم ضاحكا وَهُمْ ظالِمُونَ في حال التباسهم بالظلم ، كقوله الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة. وقرئ وَالْخَوْفِ عطفاً على اللباس ، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. أصله : ولباس الخوف. وقرئ : لباس الخوف والجوع.

[سورة النحل (16) : الآيات 114 إلى 115]

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115)
لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها وسوء صنيعها ، وصل بذلك بالفاء في قوله فَكُلُوا صدّهم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها ، بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب، وشكر إنعامه بذلك ، وقال إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ يعنى تطيعون. أو إن صحّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة ، لأنها شفعاؤكم عنده. ثم عدد عليهم محرمات الله ، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم ، دون اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه.

[سورة النحل (16) : الآيات 116 إلى 117]

وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (116) مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (117)

وانتصاب الْكَذِبَ بلا تقولوا ، على : ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله أو إلى قياس مستند إليه. واللام مثلها في قولك :

ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام. وقوله هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ بدل من الكذب.

ويجوز أن يتعلق بتصف على إرادة القول ، أى : ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم ، فتقول هذا حلال وهذا حرام. ولك أن تنصب الكذب بتصف ، وتجعل «ما» مصدرية ، وتعلق هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ بلا تقولوا ، على : ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب ، أى : لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم ، لا لأجل حجة وبينة ، ولكن قول ساذج ودعوى فارغة. فإن قلت : ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت : هو من فصيح الكلام وبليغه ، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه ، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصوّرته بصورته ، كقولهم : ووجهها يصف الجمال. وعينها تصف السحر ، وقرئ «الكذب» بالجرّ صفة لما المصدرية ، كأنه قيل : لوصفها الكذب ، بمعنى الكاذب ، كقوله تعالى بِدَمٍ كَذِبٍ والمراد بالوصف : وصفها البهائم بالحل والحرمة. وقرئ «الكذب» جمع كذوب بالرفع ، صفة للألسنة ، وبالنصب على الشتم. أو بمعنى : الكلم الكواذب ، أو هو جمع الكذاب من قولك : كذب كذابا ، ذكره ابن جنى.

واللام في لِتَفْتَرُوا من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض مَتاعٌ قَلِيلٌ خبر مبتدأ محذوف ، أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم.

[سورة النحل (16) : آية 118]

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118)

ما قَصَصْنا عَلَيْكَ يعنى في سورة الأنعام.

[سورة النحل (16) : آية 119]

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119)
بِجَهالَةٍ في موضع الحال ، أى : عملوا السوء جاهلين غير عارفين باللّه وبعقابه ، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم مِنْ بَعْدِها من بعد التوبة.

[سورة النحل (16) : الآيات 120 إلى 122]

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122)

كانَ أُمَّةً فيه وجهان ، أحدهما : أنه كان وحده أمّة من الأمم «1» لكماله في جميع صفات الخير ، كقوله :

(1). قال محمود : «في قوله أمة وجهان ، أحدهما : أنه كان وحده أمة من الأمم ... الخ» قال أحمد : ويقوى هذا الثاني قوله تعالى ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً أى كان أمة تؤمه الناس ليقتبسوا منه الخيرات ويقتفوا بآثاره المباركات ، حتى أنت على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملته ووافق سبرته ، واللّه أعلم.

وَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِى وَاحِدٍ «1»

وعن مجاهد : كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار. والثاني : أن يكون أمّة بمعنى مأموم ، أى : يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير ، أو بمعنى مؤتم به كالرحلة «2» والنخبة ، وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول ، فيكون مثل قوله قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً وروى الشعبي عن فروة بن نوفل الأشجعى عن ابن مسعود أنه قال : إنّ معاذاً كان أمّة قانتاً للّه ، فقلت : غلطت ، إنما هو إبراهيم. فقال : الأمّة : الذي يعلم الخير. والقانت المطيع للّه ورسوله «3» ، وكان معاذ كذلك. وعن عمر رضى اللّه عنه أنه قال - حين قيل له : ألا تستخلف؟ - : لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته ، ولو كان معاذ حيا لاستخلفته. ولو كان سالم حيا لاستخلفته فإني سمعت رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول : «أبو عبيدة أمين هذه الأمّة ، ومعاذ أمّة قانت للّه ، ليس بينه وبين اللّه يوم القيامة إلا المرسلون ، وسالم شديد الحب للّه ، لو كان لا يخاف اللّه لم يعصه «4». وهو ذلك المعنى ، أى : كان إماما في الدين ، لأنّ الأئمة معلمو الخير.

(1) قولا لهارون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواحد
ليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
لأبى نواس يعطف هرون الرشيد على الفضل البرمكي حين توعده بالقتل ، غيرة منه لما سمع من نهايته في الكرم ، وخاطب الاثنين تأسيا بعادة العرب ، والاحتفال : الاجتماع. والحاشد الجامع ، وعلى بمعنى مع ، أى : أنت مع كونك في غاية الاقتدار لست واجداً مثل الفضل في العالم كله ، ودخلت الفاء في خبر المبتدأ لما فيه خبره من رائحة الشرط ، أى : وإن كنت قادراً ، ودخلت الباء في خبر ليس لتوكيد النفي ، واستدل على ذلك بقوله : ليس مستنكراً على اللّه جمعه خصال العالم كلها في رجل واحد كالفضل ، هذا ما يتبادر منه ظاهر النظم ، لكنه خلاف مقتضى مقام الاستعطاف ، فالمعنى ولا يكن منك غيرة من الفضل ، فان كرمه بعض صفاتك ، فان اللّه قادر على جمع صفات العالم كلها فيك ، وقد فعل. ويروى : من اللّه بدل على اللّه. ويروى : بمستبدع ، بدل بمستنكر.
(2). قوله «كالرحلة» في الصحاح «الرحلة» بالضم : الوجه الذي تريده ، وبالكسر : الارتحال. (ع)
(3). أخرجه الطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية. من رواية علية عن منصور عن عبد الرحمن عن الشعبي حدثني فروة بن نوفل الأشجعى قال قال ابن مسعود. فذكره. لكن ليس فيه : فقلت له «غلطت» بل فيه فقيل له : إن ابراهيم. وفيه «و كان معاذ بن جبل يعلم الناس الخير. وكان مطيعا للّه ورسوله» ورواه الحاكم أيضاً من رواية شعبة عن فراس عن الشعبي عن مسروق عن عبد اللّه قال «إن معاذا كان أمة قانتا للّه» فقال رجل من أشجع يقال له : فروة ابن نوفل : إنما ذاك ابراهيم. فقال عبد اللّه : إنا كنا نشبهه بإبراهيم - الحديث» وأخرجه عبد الرزاق. ومن طريق الحاكم قال أخبرنا الثوري عن فراس نحوه.
(4). لم أجده

والقانت : القائم بما أمره اللّه. والحنيف : المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه. ونفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم شاكِراً لِأَنْعُمِهِ روى أنه كان لا يتغدّى إلا مع ضيف ، فلم يجد ذات يوم ضيفاً ، فأخر غداءه ، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر ، فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أنّ بهم جذاماً؟ فقال : الآن وجبت مواكلتكم شكراً للّه على أنه عافاني وابتلاكم اجْتَباهُ اختصه واصطفاه للنبوّة وَهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ إلى ملة الإسلام حَسَنَةً عن قتادة : هي تنوبه اللّه بذكره ، حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه. وقيل : الأموالَ والأولاد ، وقيل : قول المصلى منا : كما صليت على إبراهيم لَمِنَ الصَّالِحِينَ لمن أهل الجنة.

[سورة النحل (16) : آية 123]

ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123)

ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ في «ثم» هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول اللّه»

صلى اللّه عليه وسلم ، وإجلال محله ، والإيذان بأنّ أشرف ما أوتى خليل اللّه إبراهيم من الكرامة ، وأجلّ ما أولى من النعمة : اتباع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ملته ، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى اللّه عليه بها.

[سورة النحل (16) : آية 124]

إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124)

السَّبْتُ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها. والمعنى : إنما جعل وبال السبت وهو المسخ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه تارة ، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما حتم اللّه عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه.

والمعنى في ذكر ذلك ، نحو المعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم اللّه مثلا ، وغير ما ذكر ، وهو الإنذار من سخط اللّه على العصاة والمخالفين لأوامره والخالعين ربقة طاعته. فإن قلت : ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرّمين؟ قلت : معناه أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرّمين أخرى ووجه آخر :

(1). عاد كلامه. قال محمود : «و في ثم هذه ما فيها من تعظيم منزلة محمد صلى اللّه عليه وسلم ... الخ» قال أحمد : وإنما تفيد ذلك ثم لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان ، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشمخ محلا مما عطف عليه ، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى : وهاهنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً وأرفع رتبة وأبعد رفعة ، وهو أن النبي الأمي الذي هو سيد البشر متبع لملة إبراهيم ، مأمور باتباعه بالوحي ، متلو أمره بذلك في القرآن العظيم. ففي ذلك تعظيم لهما جميعا ، لكن نصيب النبي صلى اللّه عليه وسلم من هذا التعظيم أوفر وأكبر على ما مهدناه ، واللّه الموفق للصواب.

وهو أنّ موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوما للعبادة وأن يكون يوم الجمعة ، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ اللّه فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت ، إلا شر ذمة منهم قد رضوا بالجمعة ، فهذا اختلافهم في السبت لأن بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة ، فأذن اللّه لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ، فأطاع أمر اللّه الراضون بالجمعة ، فكانوا لا يصيدون فيه ، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم اللّه دون أولئك ، وهو يحكم بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فيجازى كل واحد من الفريقين بما يستوجبه. ومعنى جعل السبت : فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه. وقرئ : إنما جعل السبت ، على البناء للفاعل. وقرأ عبد اللّه : إنا أنزلنا السبت.

[سورة النحل (16) : آية 125]

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)

إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ إلى الإسلام بِالْحِكْمَةِ بالمقالة المحكمة الصحيحة ، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها. ويجوز أن يريد القرآن ، أى : ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين ، من غير فظاظة ولا تعنيف إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة ، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل ، وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

[سورة النحل (16) : الآيات 126 إلى 128]

وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)

سمى الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة. والمعنى : إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه ، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه. وقرئ : وإن عقبتم فعقبوا ، أى : وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم.

روى أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد : بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ، ما تركوا أحداً غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب ، فوقف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على حمزة وقد مثل به ، وروى : فرآه مبقور البطن فقال : «أما والذي أحلف به ، لئن أظفرنى اللّه بهم لأمثلن بسبعين مكانك «1»» فنزلت ، فكفر عن يمينه وكفّ عما أراده ، ولا خلاف في تحريم المثلة. وقد وردت الأخبار بالنهى عنها «2» حتى بالكلب العقور. إما أن رجع الضمير في لَهُوَ إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم. ويراد بالصابرين : المخاطبون ، أى : ولئن صبرتم لصبركم خير لكم ، فوضع الصابرون موضع الضمير ثناء من اللّه عليهم بأنهم صابرون على الشدائد. أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة. وإما أن يرجع إلى جنس الصبر - وقد دل عليه صبرتم - ويراد بالصابرين جنسهم ، كأنه قيل : وللصبر خير للصابرين. ونحوه قوله تعالى فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ثم قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وَاصْبِرْ أنت فعزم عليه بالصبر وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ أى بتوفيقه وتثبيته وربطه على قلبك وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أى على الكافرين ، كقوله فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ أو على المؤمنين وما فعل بهم الكافرون وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ وقرئ : ولا تكن في ضيق ، أى : ولا يضيقن صدرك من مكرهم. والضيق : تخفيف الضيق ، أى في أمر ضيق. ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين ، كالقيل والقول إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا أى هو ولىّ الذين اجتنبوا المعاصي وَولى الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ في أعمالهم. وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر : أوص.

فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لي ، وأوصيكم بخواتم سورة النحل.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه اللّه بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلته ، كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية» «3»

(1). أخرجه الثعلبي بغير سند. وقصة حمزة أخرجها البزار والطبراني من رواية سليمان التيمي عن ابن عثمان عن أبى هريرة «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم نظر يوم أحد إلى حمزة وقد قتل ومثل به. فرأى منظراً لم يرقط أوجع لقلبه منه. وذكر باقى الحديث أتم مما ذكره هنا ورواية صالح فهو عن سليمان. وصالح ضعيف. وله طريق أخرى أخرجها الدارقطني من رواية إسماعيل بن عباس قال «لما انصرف المشركون عن قتلى أحد فرأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعمه حمزة منظراً أساءه ، وقد شق بطنه واصطلم أنفه - فذكر القصة «و فيها : لأمثلن مكانه بسبعين رجلا. وذكر الصلاة عليه وعلى القتلى. قال : فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الآية فصبر ولم يمثل بأحد» قال الدارقطني : تفرد به إسماعيل وهو ضعيف عن غير الشاميين ، قلت : وأما أول الكلام فذكره. [.....]

(2). قلت روى ذلك عن جماعة من الصحابة.

(3). رواه الثعلبي وابن مردويه. وقد تقدم سنده في آل عمران.

سورة الإسراء

(مكية [إلا الآيات 26 و32 و33 و57 ، ومن آية 73 إلى غاية آية 80 فمدنية] وآياتها 111 [نزلت بعد القصص])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإسراء (17) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)

سُبْحانَ علم للتسبيح كعثمان للرجل ، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره ، تقديره :

أسبح اللّه سبحان ، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدّه ، ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء اللّه «1». وأَسْرى وسرى لغتان. ولَيْلًا نصب على الظرف.

فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل ، فما معنى ذكر الليل؟ «2» قلت : أراد بقوله لَيْلًا بلفظ التنكير : تقليل مدّة الإسراء ، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشأم مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية. ويشهد لذلك قراءة عبد اللّه وحذيفة :

(1). قوله «القبائح التي يضيفها إليه أعداء اللّه» يريد بهم أهل السنة القائلين بأنه تعالى هو الخالق لجميع الحوادث من أفعال العباد وغيرها ، خيراً كانت أو شراً ، خلافا للمعتزلة في قولهم : إن العبد هو الخالق لفعل نفسه حتى يكون مقدوراً له ، فيصح تكليفه به ، ولكن استند أهل السنة لمثل قوله تعالى اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ وهذا لا ينافي اختيار العباد في أفعالهم ، لأنهم أثبتوا لهم الكسب فيها ، كما تقرر في علم التوحيد. (ع)

(2). قال محمود : «فان قلت : الاسراء لا يكون إلا بالليل ، فما معنى ذكر الليل ... الخ»؟ قال أحمد وقد قرن الاسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا ، كقوله فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وكقوله تعالى فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا فالظاهر - واللّه أعلم - أن الغرض من ذكر الليل وإن كان الاسراء يفيده تصوير السير بصورته في ذهن السامع ، وكأن الاسراء لما دل على أمرين ، أحدهما : السير ، والآخر : كونه ليلا. أريد إفراد أحدهما بالذكر تثبيتا في نفس المخاطب ، وتنبيها على أنه مقصود بالذكر. ونظيره في إفراد أحد ما دل عليه اللفظ المتقدم مضموماً لغيره قوله تعالى وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فالاسم الحامل للتثنية دال عليها وعلى الجنسية ، وكذلك المفرد ، فأريد التنبيه لأن أحد المعنيين وهو التثنية مراد مقصود ، وكذلك أريد الإيقاظ ، لأن الوحدانية هي المقصودة في قوله إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ ولو اقتصر على قوله إِنَّما هُوَ إِلهٌ لأوهم أن المهم إثبات الالهية له ، والغرض من الكلام ليس إلا الإثبات للوحدانية ، واللّه أعلم.

من الليل ، أى : بعض الليل ، كقوله وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً يعنى الأمر بالقيام في بعض الليل. واختلف في المكان الذي أسرى منه فقيل : هو المسجد الحرام بعينه ، وهو الظاهر.

وروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل عليه السلام بالبراق «1»» وقيل : أسرى به من دار أم هانئ بنت أبى طالب والمراد بالمسجد الحرام : الحرم ، لإحاطته بالمسجد والتباسه به. وعن ابن عباس : الحرم كله مسجد. وروى أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به «2» ورجع من ليلته ، وقص القصة على أم هانئ ، وقال : مثل لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال : مالك؟ قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم ، قال : وإن كذبوني ، فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بحديث الإسراء ، فقال أبو جهل : يا معشر بنى كعب بن لؤي ، هلم فحدّثهم ، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً.

وارتد ناس ممن كان قد آمن به ، وسعى رجال إلى أبى بكر رضى اللّه عنه فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا : أتصدقه على ذلك؟ قال : إنى لأصدقه على أبعد من ذلك ، فسمى الصدّيق.

وفيهم من سافر إلى ما ثمّ ، فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أمّا النعت فقد أصاب ، فقالوا : أخبرنا عن عيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ، وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس ، يقدمها جمل أورق ، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية ، فقال قائل منهم : هذه واللّه الشمس قد شرقت ، فقال آخر : وهذه واللّه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ، ثم لم يؤمنوا وقالوا : ما هذا إلا سحر مبين ، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة ، وكان العروج به من بيت المقدس وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى في السماء من العجائب وأنه لقى الأنبياء وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى واختلفوا في وقت الإسراء فقيل كان قبل الهجرة بسنة. وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعث واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام فعن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت «و اللّه ما فقد جسد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولكن عرج بروحه» «3» وعن معاوية : إنما عرج بروحه. وعن الحسن ، كان في المنام رؤيا رآها.

(1). متفق عليه من حديث مالك بن صعصعة مطولا.
(2). ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند. وكأنه من رواية الكلبي عن أبى صالح عنه ، ثم رأيته من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. أخرجه الحاكم والبيهقي عنه. لكن لم يسبق لفظه ، وقد رواه النسائي باختصار عن هذا من رواية عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس. وأورده ابن سعد وأبو يعلى والطبراني من حديث أم هانئ مطولا.
(3). قال ابن إسحاق في المغازي : حدثني بعض آل أبى بكر عن عائشة بهذا «لكن أسرى» بدل «عرج» قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة عن ابن معاوية قال : كانت رؤيا من اللّه صادقة.

وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى : بيت المقدس ، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد بارَكْنا حَوْلَهُ يريد بركات الدين والدنيا ، لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحى ، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن : ليريه بالياء ، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم «فقيل : أسرى ثم باركنا ثم ليريه ، على قراءة الحسن ، ثم من آياتنا ، ثم إنه هو ، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لأقوال محمد الْبَصِيرُ بأفعاله ، العالم بتهذبها وخلوصها ، فيكرمه ويقرّبه على حسب ذلك.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 2 إلى 3]

وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (2) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (3)

أَلَّا تَتَّخِذُوا قرئ بالياء على : لئلا يتخذوا ، وبالتاء على : أى لا تتخذوا ، كقولك : كتبت إليه أن أفعل كذا وَكِيلًا ربا تكلون إليه أموركم ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا نصب على الاختصاص. وقيل : على النداء فيمن قرأ «لا تتخذوا» بالتاء على النهى ، يعنى : قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلا يا ذرية من حملنا مَعَ نُوحٍ وقد يجعل وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مفعولي تتخذوا ، أى لا تجعلوهم أرباباً كقوله وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام. وقرئ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا بالرفع بدلا من واو تَتَّخِذُوا وقرأ زيد بن ثابت : ذرية ، بكسر الذال. وروى عنه أنه قد فسرها بولد الولد ، ذكرهم اللّه النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق إِنَّهُ إن نوحاً كانَ عَبْداً شَكُوراً قيل : كان إذا أكل قال : الحمد للّه الذي أطعمنى ، ولو شاء أجاعنى. وإذا شرب قال : الحمد للّه الذي سقاني ، ولو شاء أظمأنى. وإذا اكتسى قال : الحمد للّه الذي كسانى ، ولو شاء أعرانى. وإذا احتذى قال : الحمد للّه الذي حذانى ، ولو شاء أحفانى. وإذا قضى حاجته قال : الحمد للّه الذي أخرج عنى أذاه في عافية ، ولو شاء حبسه. وروى أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به ، فإن وجده محتاجاً آثره به. فإن قلت : قوله إنه كان عبداً شكوراً ما وجه ملاءمته لما قبله؟ قلت : كأنه قيل : لا تتخذوا من دوني وكيلا ، ولا تشركوا بى ، لأنّ نوحا عليه السلام كان عبدا شكورا ، وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه ، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم.

ويجوز أن يكون تعليلا لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح ، فهم متصلون به ، فاستأهلوا لذلك الاختصاص. ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 4 إلى 6]

وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (4) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً (5) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (6)

وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ وأوحينا إليهم وحيا مقضيا ، أى مقطوعا مبتوتاً بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة ، ويعلون ، أى : يتعظمون ويبغون فِي الْكِتابِ في التوراة ، وَلَتُفْسِدُنَّ جواب قسم محذوف. ويجوز أن يجرى القضاء المبتوت مجرى القسم ، فيكون لَتُفْسِدُنَّ جوابا له ، كأنه قال : وأقسمنا لتفسدن. وقرئ : لتفسدنّ ، على البناء للمفعول. ولتفسدن ، بفتح التاء من فسد مَرَّتَيْنِ أولاهما : قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط اللّه ، والآخرة : قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم عِباداً لَنا وقرئ عبيداً لنا. وأكثر ما يقال : عباد اللّه وعبيد الناس : سنحاريب وجنوده «1» وقيل بخت نصر. وعن ابن عباس : جالوت. قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة ، وخربوا المسجد ، وسبوا منهم سبعين ألفاً. فإن قلت : كيف جاز أن يبعث اللّه الكفرة «2» على ذلك ويسلطهم عليه «3». قلت : معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم ، على أنّ اللّه عزّ وعلا أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه ، فهو كقوله تعالى وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ وكقول الداعي. وخالف بين كلمهم. وأسند الجوس وهو التردّد خلال الديار بالفساد إليهم ، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم. وقرأ طلحة «فحاسوا» بالحاء. وقرئ : فجوّسوا. وخلل الديار. فإن قلت : ما معنى وَعْدُ أُولاهُما؟ قلت : معناه وعد عقاب أولاهما وَكانَ وَعْداً مَفْعُولًا يعنى : وكان وعد العقاب وعدا لا بد أن يفعل ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ أى الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو. قيل : هي قتل بخت نصر واستنقاذ بنى إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم ، وقيل : هي قتل داود جالوت أَكْثَرَ نَفِيراً مما كنتم.

(1). قوله «سنحاريب وجنوده» كان ملك بابل ، وبخت نصر هو ابن ابنه ، وكان من كتابه. وكذا في الخازن. (ع)
(2). قوله «فان قلت : كيف جاز أن يبعث اللّه الكفرة على ذلك» مبنى على أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده ، وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة كل كائن فهو فعله ومراده ولو شرا ، فلا سؤال. (ع)
(3). قال محمود : «إن قلت كيف جاز أن يبعث اللّه الكفرة ... الخ» قال أحمد : هذا السؤال إنما يتوجه على قدرى يوجب على اللّه تعالى بزعمه رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة ، وأما السنى إذا سئل هذا السؤال أجاب عنه بقوله لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ واللّه الموفق.

والنفير ، من ينفر مع الرجل من قومه ، وقيل : جمع نفر كالعبيد والمعيز.

[سورة الإسراء (17) : آية 7]

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (7)

أى الإحسان والإساءة : كلاهما مختص بأنفسكم ، لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم. وعن علىّ رضى اللّه عنه: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه ، وتلاها فَإِذا جاءَ وَعْدُ المرّة الْآخِرَةِ بعثناهم «1» لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ حذف لدلالة ذكره أوّلا عليه. ومعنى لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها ، كقوله سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وقرئ : ليسوء والضمير للّه تعالى ، أو للوعد ، أو للبعث. ولنسوء : بالنون. وفي قراءة علىّ: لنسوأنّ : وليسوأنّ وقرئ لنسوأن ، بالنون الخفيفة. واللام في لِيَدْخُلُوا على هذا متعلق بمحذوف وهو : وبعثناهم ليدخلوا. ولنسوأن : جواب إذا جاء ما عَلَوْا مفعول ليتبروا ، أى ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه. أو بمعنى : مدة علوّهم.

[سورة الإسراء (17) : آية 8]

عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (8)

عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ بعد المرّة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي وَإِنْ عُدْتُمْ مرة ثالثة عُدْنا إلى عقوبتكم وقد عادوا ، فأعاد اللّه إليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الأتاوة عليهم. وعن الحسن : عادوا فبعث اللّه محمدا ، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وعن قتادة : ثم كان آخر ذلك أن بعث اللّه عليهم هذا الحىّ من العرب ، فهم منهم في عذاب إلى يوم القيامة حَصِيراً محبسا يقال للسجن محصر وحصير. وعن الحسن : بساطا كما يبسط الحصير المرمول «2»

(1). قوله : فَإِذا جاءَ وَعْدُ المرة الْآخِرَةِ بعثناهم : أى عبادنا وهم في هذه المرة ، الفرس والروم ، بعث اللّه عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له خروش. حتى دخل الشام بجنود فقتل وسبى ، حتى كاد يفنى بنى إسرائيل ، وبقي منهم بقايا حتى كثروا ، وكانت لهم الرياسة في بيت المقدس إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط اللّه عليهم طوطوس بن أسبيانوس الرومي فخرب بلادهم وطردهم عنها ، وبقي بيت المقدس خرابا إلى خلافة عمر بن الخطاب ، فعمره المسلمون بأمره. اه من الخازن. (ع)
(2). قوله كما يبسط الحصير المرمول» أى المنسوج ، أفاده الصحاح. (ع)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 9 إلى 10]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (9) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (10)

لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها. أو للملة. أو للطريقة. وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف ، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه. وقرئ : ويبشر ، بالتخفيف ، فإن قلت : كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة؟ قلت : كان الناس حينئذ إما مؤمن تقى ، وإما مشرك ، وإنما حدث أصحاب المنزلة «1» بين المنزلتين بعد ذلك. فإن قلت : علام عطف وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ؟ قلت : على أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً على معنى : أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين : بثوابهم ، وبعقاب أعدائهم ويجوز أن يراد : ويخبر بأن الّذين لا يؤمنون معذبون.

[سورة الإسراء (17) : آية 11]

وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (11)

أى : ويدعو اللّه عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله ، كما يدعوه لهم بالخير ، كقوله وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ. وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله ، لا يتأنى فيه تأنى المتبصر. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرا ، فأقبل يئن بالليل ، فقالت له: مالك تئن؟ فشكا ألم «2» القدّ ، فأرخت من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب ، فلما أصبح النبي صلى اللّه عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه ، فقال صلى اللّه عليه وسلم «اللهم اقطع يديها» فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة، وأن يقطع اللّه يديها ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إنى سألت اللّه أن يجعل لعنتي ودعائي على من لا يستحق من أهلى رحمة لأنى بشر أغضب كما يغضب البشر فلتردّ سودة يديها «3»» ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر ، وأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به ، كما يدعو بالخير إذا مسته الشدّة.

(1). قوله «و إنما حدث أصحاب المنزلة» يعنى الفسقة. وإثبات الواسطة مذهب المعتزلة دون أهل السنة ، فان الفسق لا يزيل الايمان عندهم. (ع)
(2). قوله «فشكا ألم القد» في الصحاح «القد» بالكسر : سير يقد من جلد غير مدبوغ. (ع) [.....]
(3). لم أجده من هذه الجهة. وقد أخرجه الواقدي في المغازي من رواية ذكوان عن عائشة ، أن النبي صلى اللّه عليه وسلم دخل عليها بأسير ، وقال لها : احتفظي به. قالت : فلهوت مع امرأة فخرج ولم أشعر. فدخل يسأل عنه فقلت واللّه ما أدرى. فقال : قطع اللّه يدك ، فذكر نحو ما تقدم. ورويناه في الجزء التاسع من حديث المخلص تخريج البقال. قال : حدثنا ابن أبى داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن أبى فديك عن ابن أبى ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا.

وكان الإنسان عجولا : يعنى أن العذاب آتيه لا محالة ، فما هذا الاستعجال ، وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو النضر بن الحرث قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية ، فأجيب له ، فضربت عنقه صبرا.

[سورة الإسراء (17) : آية 12]

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً (12)

فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما ، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين ، كإضافة العدد إلى المعدود ، أى : فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة. والثاني : أن يراد : وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين ، يريد الشمس والقمر. فمحونا آية الليل : أى جعلنا الليل ممحوّ الضوء مطموسه مظلما ، لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح الممحوّ ، وجعلنا النهار مبصرا أى تبصر فيه الأشياء وتستبان. أو فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق لها شعاعا كشعاع الشمس ، فترى به الأشياء رؤية بينة ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف في معايشكم وَلِتَعْلَمُوا باختلاف الجديدين عَدَدَ السِّنِينَ وَجنس الْحِسابَ وما تحتاجون إليه منه ولولا ذلك لما علم أحد حسبان الأوقات ، ولتعطلت الأمور وَكُلَّ شَيْءٍ مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم فَصَّلْناهُ بيناه بيانا غير ملتبس ، فأزحنا عللكم ، وما تركنا لكم حجة علينا.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 13 إلى 14]

وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (13) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (14)

طائِرَهُ عمله وقد حققنا القول فيه في سورة النمل. وعن ابن عيينة : هو من قولك : طار له سهم ، إذا خرج ، يعنى : ألزمناه ما طار من عمله. والمعنى أنّ عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل لا يفك عنه ، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق الحمامة. وقولهم : الموت في الرقاب. وهذا ربقة في رقبته. عن الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك : وقرئ فِي عُنُقِهِ بسكون النون. وقرئ نُخْرِجُ بالنون. ويخرج ، بالياء ، والضمير لله عز وجل.

ويخرج ، على البناء للمفعول. ويخرج من خرج ، والضمير للطائر. أى : يخرج الطائر كتاباً ، وانتصاب كِتاباً على الحال. وقرئ : يلقاه ، بالتشديد مبنيا للمفعول. ويَلْقاهُ مَنْشُوراً صفتان للكتاب. أو يَلْقاهُ صفة ومَنْشُوراً حالٌ من يلقاه اقْرَأْ على إرادة القول. وعن قتادة : يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئا. وبِنَفْسِكَ فاعل كفى. وحَسِيباً تمييز وهو بمعنى حاسب كضريب القداح بمعنى ضاربها وصريم بمعنى صارم ذكرهما سيبويه. وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا. ويجوز أن يكون بمعنى الكافي وضع موضع الشهيد فعدّى بعلى لأنّ الشاهد يكفى المدّعى ما أهمه. فإن قلت : لم ذكر حسيبا؟ قلت : لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير ، لأنّ الغالب أنّ هذه الأمور يتولاها الرجال ، فكأنه قيل : كفى بنفسك رجلا حسيبا. ويجوز أن يتأوّل النفس بالشخص ، كما يقال: ثلاثة أنفس. وكان الحسن إذا قرأها قال : يا ابن آدم ، أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك.

[سورة الإسراء (17) : آية 15]

مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (15)

أى : كل نفس حاملة وزرا ، فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ وما صحّ منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب «1» قوما إلا بعد أن نَبْعَثَ إليهم رَسُولًا فتلزمهم الحجة. فإن قلت : الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل ، لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله ، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه ، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم ، وكفرهم لذلك ، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف ، والعمل بها لا يصح إلا بعد الايمان. قلت : بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة ، لئلا يقولوا:

كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر في أدلة العقل.

[سورة الإسراء (17) : آية 16]

وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (16)

(1). قال محمود : «معناه وما صح مناصحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوما حتى تلزمهم الحجة ببعث الرسول ... الخ» قال أحمد : وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدرى يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر وإلى كثير من أحكام الله تعالى ، وإن لم يبعث رسول فيكلف بعقله ويرتب على ترك امتثال التكليف استيجاب العذاب ، إذ العقل كاف عندهم في إيجاب المعرفة بل في جميع الأحكام ، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين. وأما السنى فلا يتوجه عليه هذا السؤال ، فان العقل عنده شرط في وجوب عموم الأحكام ، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع وبعث الأنبياء ، وحينئذ يثبت الحكم وتقوم الحجة ، كما أنبأت عنه هذه الآية التي يروم الزمخشري تحريفها فتعتاص عليه وتسد طرق الحيل بين يديه ، لأنه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نعم العقل عمدة في حصول المعرفة لا في وجوبها ، وبين الحصول والوجوب بون بعيد ، والله الموفق.

وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل ، أمرناهم «1» فَفَسَقُوا أى أمرناهم بالفسق ففعلوا ، والأمر مجاز ، لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم : افسقوا ، وهذا لا يكون فبقى أن يكون مجازاً «2» ، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً ، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات ، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه ، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبرّ ، كما خلقهم أصحاء أقوياء ، وأقدرهم على الخير والشرّ ، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق ،

يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة ، ولو ذهبت تقدّر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب ، ولا يلزم على هذا قولهم : أمرته فعصاني ، أو فلم يمتثل أمرى. لأنّ ذلك مناف للأمر مناقض له ، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به ، فكان محالا أن يقصد أصلا حتى يجعل دالا على المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي ، لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوى لأمره مأموراً به ، وكأنه يقول : كان منى أمر فلم تكن منه طاعة ، كما أن من يقول : فلان يعطى ويمنع ، ويأمر وينهى ، غير قاصد إلى مفعول. فإن قلت : هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالقصد والخير ، دليلا على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟ قلت : لا يصحّ ذلك ، لأن قوله فَفَسَقُوا يدافعه ، فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدعى إضمار خلافه ، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه ، ونظير «أمر» شاء : في أن مفعوله استفاض فيه الحذف ، لدلالة ما بعده عليه ، تقول : لو شاء لأحسن إليك ، ولو شاء لأساء إليك. تريد : لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة ، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت - وقلت : قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان أو من أهل الاساءة ، فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة - لم تكن على سداد. وقد فسر بعضهم أَمَرْنا بكثرنا ، وجعل أمرته فأمر من باب فعلته ففعل.

(1). قوله «أمرناهم ففسقوا» في النسفي : أمرنا مترفيها : متنعميها وجبابرتها. (ع)
(2). قال محمود : «حقيقة أمرهم أن يقول لهم : افسقوا. ولا يكون هذا ، فقى أن يكون مجازا ... الخ» قال أحمد : نص حسن إلا قوله أنهم خولوا النعم ليشكروا ، فانه فرعه ، على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة. والحق أنهم خولوها وأمروا بالشكر ، ففسقوا وكفروا على خلاف الأمر ، والأمر غير الارادة على قاعدة أهل الحق ، والله الموفق.

كثبرته فثبر. وفي الحديث : «خير المالك سكة «1» مأبورة ومهرة مأمورة «2»» أى كثيرة النتاج. وروى أن رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أرى أمرك هذا حقيراً ، فقال صلى الله عليه وسلم: إنه سيأمر «3». أى سيكثر وسيكبر.

[سورة الإسراء (17) : آية 17]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (17)

وقرئ : آمرنا من أمر وأمره غيره. وأمّرنا بمعنى أمرنا ، أو من أمر إمارة ، وأمره الله.

أى : جعلناهم أمراء وسلطناهم كَمْ مفعول أَهْلَكْنا ومِنَ الْقُرُونِ بيان لكم وتمييز له ، كما يميز العدد بالجنس ، يعنى عاد وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرا. ونبه بقوله وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير ، وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 18 إلى 19]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (18) وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (19)

من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة «4» ، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقييدين ، أحدهما : تقييد المعجل بمشيئته. والثاني : تقييد المعجل له بإرادته ، وهكذا الحال : ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه ، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه ، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة ، وأمّا المؤمن التقى فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة ،

(1). قوله «كثبرته فثبر ، وفي الحديث خير المال سكة مأبورة» في الصحاح «ثبرته» أى حبسته. وفيه «السكة» الطريقة من النخل. وفيه «أبر نخله» أى لقحه وأصلحه. (ع)
(2). أخرجه حميد وإسحاق وابن أبى شيبة والحرث والطبراني وأبو عبيد من رواية مسلم بن بديل عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «خير مال المرء ميرة مأمورة أو سكة مأثورة. قال ابن إسحاق ومعه النضر بن شميل وغيره يرفعه.
(3). لم أجده.

(4). قال محمود : «أى من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة ... الخ» قال أحمد : ومثل ذلك التقييد ورد في الآية الأخرى ، وهو قوله تعالى مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ فأدخل «من» المبعضة على حرث الدنيا ، ونحل الطالب حرث الآخرة مراده ، وزاد عليه.

فما يبالى : أوتى حظا من الدنيا أو لم يؤت فإن أوتى فيها وإلا فربما كان الفقر خيرا له وأعون على مراده. وقوله لِمَنْ نُرِيدُ بدل من له ، وهو بدل البعض من الكل ، لأن الضمير يرجع إلى «من» وهو في معنى الكثرة. وقرئ : يشاء. وقيل : الضمير للّه تعالى ، فلا فرق إذاً بين القراءتين في المعنى ويجوز أن يكون للعبد ، على أنّ للعبد ما يشاء من الدنيا ، وأن ذلك لواحد من الدهماء «1» يريد به اللّه ذلك. وقيل : هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة ، كالمنافق ، والمرائى ، والمهاجر للدنيا ، والمجاهد للغنيمة والذكر ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم «فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه «2»» مَدْحُوراً مطرودا من رحمة اللّه سَعْيَها حقها من السعى وكفاءها من الأعمال الصالحة. اشترط ثلاث شرائط في كون السعى مشكورا : إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور ، والسعى فيما كلف من الفعل والترك ، والإيمان الصحيح الثابت. وعن بعض المتقدّمين : من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب. وتلا هذه الآية. وشكر اللّه : الثواب على الطاعة.

[سورة الإسراء (17) : آية 20]

كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (20)

كُلًّا كل واحد من الفريقين ، والتنوين عوض من المضاف إليه نُمِدُّ هم : نزيدهم من عطائنا ، ونجعل الآنف منه مددا للسالف لا نقطعه ، فنرزق المطيع والعاصي جميعا على وجه التفضل وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ وفضله مَحْظُوراً أى ممنوعا ، لا يمنعه من عاص لعصيانه

[سورة الإسراء (17) : آية 21]

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (21)

انْظُرْ بعين الاعتبار كَيْفَ جعلناهم متفاوتين في التفضل. وفي الآخرة التفاوت أكبر ، لأنها ثواب وأعواض وتفضل ، وكلها متفاوتة. وروى أن قوما من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضى اللّه عنه ، فخرج الإذن لبلال وصهيب ، فشق على أبى سفيان ، فقال سهيل بن عمرو : إنما أُتينا من قبلنا ، إنهم دعوا ودعينا يعنى إلى الإسلام ، فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر ، فكيف التفاوت في الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعدّ اللّه لهم في الجنة أكثر.

(1). قوله «لواحد من الدهماء» في الصحاح «دهماء الناس» جماعتهم. (ع)
(2). متفق عليه من حديث عمر.

وقرئ : وأكثر تفضيلا. وعن بعضهم : أيها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا ، أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة وهي أكبر وأفضل؟

[سورة الإسراء (17) : آية 22]

لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (22)

فَتَقْعُدَ من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت ، كأنها حربة بمعنى صارت ، يعنى : فتصير جامعا على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلهك ، والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكا له.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 23 إلى 24]

وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (23) وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً(24)

وَقَضى رَبُّكَ وأمر أمراً مقطوعا به أَلَّا تَعْبُدُوا أن مفسرة ولا تعبدوا نهى. أو بأن لا تعبدوا وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وأحسنوا بالوالدين إحسانا. أو بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا وقرئ : وأوصى. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : ووصى. وعن بعض ولد معاذ بن جبل : وقضاء ربك. ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان ، لأن المصدر لا يتقدّم عليه صلته إِمَّا هي «إن» الشرطية زيدت عليها «ما» تأكيدا لها ، ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل ، ولو أفردت «إن» لم يصح دخولها ، لا تقول : إن تكرمن زيداً يكرمك ، ولكن إما تكرمنه.

وأَحَدُهُما فاعل يبلغنّ ، وهو فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين.

وكِلاهُما عطف على أحدهما فاعلا وبدلا. فإن قلت : لو قيل إما يبلغان كلاهما ، كان كلاهما توكيدا لا بد لا ، فمالك زعمت أنه بدل؟ قلت : لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدا للاثنين ، فانتظم في حكمه ، فوجب أن يكون مثله. فإن قلت : ما ضرّك لو جعلته توكيداً مع كون المعطوف عليه بدلا ، وعطفت التوكيد على البدل؟ قلت : لو أريد توكيد التثنية لقيل : كلاهما ، فحسب ، فلما قيل : أحدهما أو كلاهما ، علم أنّ التوكيد غير مراد ، فكان بدلا مثل الأول أُفٍّ صوت يدل على تضجر. وقرئ : أف ، بالحركات الثلاث منوناً وغير منون : الكسر على أصل البناء ، والفتح تخفيف للضمة والتشديد كثم ، والضم إتباع كمنذ. فإن قلت : ما معنى عندك؟

قلت : هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره ، فهما عنده في بيته وكنفه ، وذلك أشق عليه وأشدّ احتمالا وصبرا ، وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة ، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال ، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما أو يستثقل من مؤنهما : أف ، فضلا عما يزيد عليه. ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما في سلك القضاء بهما معا ، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في استطاعة وَلا تَنْهَرْهُما ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك. والنهى والنهر والنهم : أخوات وَقُلْ لَهُما بدل التأفيف والنهر قَوْلًا كَرِيماً جميلا ، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة. وقيل : هو أن يقول : يا أبتاه ، يا أماه ، كما قالَ إبراهيم لأبيه : يا أبت ، مع كفره ، ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوء الأدب وعادة الدعار «1». قالوا : ولا بأس به في غير وجهه ، كما قالت عائشة رضى اللّه عنها : نحلنى أبو بكر كذا «2». وقرئ : جناح الذل ، والذل : بالضم والكسر فإن قلت : ما معنى قوله جَناحَ الذُّلِّ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ فأضافه إلى الذل أو الذلّ ، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى : واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول. والثاني : أن تجعل لذله أو لذله لهما جناحا خفيضا ، كما جعل لبيد للشمال «3» يداً ، وللقوّة زماما ، مبالغة في التذلل والتواضع لهما مِنَ الرَّحْمَةِ من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما ، لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق اللّه إليهما بالأمس ، ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع اللّه بأن يرحمهما رحمته الباقية ، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك. فان قلت : الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين. قلت : وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الايمان ، وأن يدعو اللّه لهما بالهداية والإرشاد ، ومن الناس من قال : كان الدعاء للكفار جائزاً ثم نسخ. وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال : كل ذلك واصل إليه ، ولا شيء أنفع له من الاستغفار. ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين. ولقد كرّر اللّه سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين. وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم «رضا اللّه في رضا الوالدين ، وسخطه في سخطهما «4»» وروى «يفعل البارّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار ،

(1). قوله «و سوء الأدب وعادة الدعار» من الدعارة وهي الفسق والخبث والفساد. كذا في الصحاح. (ع)
(2). أخرجه في الموطأ عن الزهري عن عائشة قالت «إن أبا بكر كان نحلنى جداد عشرين وسقا من ماله بالعالية. فلما حضرته الوفاة. قال : ما من الناس أحب إلى منك».
(3). قوله «كما جعل لبيد الشمال يدا» في قوله :
وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها (ع)
(4). أخرجه الترمذي عن عبد اللّه بن عمرو قال : روى موقوفا. ورواه البزار وقال : لا نعلم أحداً أسنده إلا خالد بن الحرث. وفيه نظر ، لأن الحاكم أخرجه من طريق عبد الرحمن بن مهدى عن شعبة مرفوعا وكذا أخرجه الطبراني والبيهقي من رواية القاسم بن

ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة «1»» وروى سعيد بن المسيب : إنّ البارّ لا يموت ميتة سوء. وقال رجل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنّ أبوىّ بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى في الصغر ، فهل قضيتهما؟ قال : لا ، فإنهما كان يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك ، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما». وشكا رجل إلى رسول اللّه أباه وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا شيخ يتوكأ على عصا ، فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوى ، وفقيراً وأنا غنىّ ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالى ، واليوم أنا ضعيف وهو قوى ، وأنا فقير وهو غنىّ، ويبخل علىّ بماله ، فبكى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال : ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى ، ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك ، أنت ومالك لأبيك «3». وشكا إليه آخر سوء خلق أمّه فقال «4» : لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر؟ قال : إنها سيئة الخلق. قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين؟ قال إنها سيئة الخلق. قال : لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت نهارها؟

قال : لقد جازيتها. قال : ما فعلت؟ قال : حججت بها على عاتقي. قال : ما جزيتها ولو طلقة «5» وعن ابن عمر أنه رأى رجلا في الطواف يحمل أمّه ويقول :

إِنِّى لَهَا مَطِيَّةٌ لَا تُذْعَرُ إِذَا الرِّكَابُ نَفَرَتْ لَا تَنْفِرُ

مَا حَمَلَتْ وَأَرْضَعَتْنِى أَكْثَرُ اللَّهُ رَبِّى ذُو الْجَلَالِ الأَكْبَرُ «6»

(1). أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن السماك عن عابد بن شريح عن عطاء عن عائشة. وفيه أحمد بن محمد بن غالب غلام الخليل. وهو كذاب ، لكن رواه أبو نعيم في الحلية من وجه آخر عن سحنون السماك بلفظ «فانى سأغفر لك» وبلفظ «فانى لا أغفر لك».
(2). لم أجده.
(3). لم أجده. قلت أخرجه في معجم الصحابة من طريق.
(4). لم أجده.
(5). قوله «قال ما جزيتها ولو طلقة» في الصحاح الطلق وجع الولادة اه فالطلقة المرة منه. (ع)
(6). أنشده ابن عمر عن رجل يحمل أمه في الحج : شبه نفسه بالمطية تشبيهاً بليغا ، و«إذا الركاب نفرت» صفة لها ، يعنى أنه خافض لها جناح الذل من الرحمة ، ولا يسأم منها كغيره ، فان حملها إياه وإرضاعها إياه أكثر من بره بها ، وذعر يذعر كتعب يتعب: خاف وفزع ، والمراد لازم الفزع والنفرة وهو الجزع والضجر وعدم إقراره على ظهره ، ثم كبر لأنه شعار الحج من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق.

تظننى جازيتها يا ابن عمر «1»؟ قال : لا ولو زفرة واحدة «2». وعنه عليه الصلاة والسلام «إياكم وعقوق الوالدين ، فإنّ الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام «3» ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جارّ إزاره خيلاء ، إنّ الكبرياء للّه رب العالمين» وقال الفقهاء : لا يذهب بأبيه إلى البيعة «4» ، وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل ، ولا يناوله الخمر. ويأخذ الإناء منه إذا شربها. وعن أبى يوسف : إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أوقد.

وعن حذيفة أنه استأذن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم في قتل أبيه وهو في صف المشركين ، فقال : دعه يليه غيرك «5». وسئل الفصيل بن عياض عن برّ الوالدين فقال : أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل. وسئل بعضهم فقال : أن لا ترفع صوتك عليهما ، ولا تنظر شرراً إليهما «6» ، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن ، وأن تترحم عليهما ما عاشا ، وتدعو لهما إذا ماتا ، وتقوم بخدمة أودّائهما من بعدهما. فعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم: «إنّ من أبر البرّ أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه «7»».

[سورة الإسراء (17) : آية 25]

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (25)

بِما فِي نُفُوسِكُمْ بما في ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ قاصدين الصلاح والبر ، ثم فرطت منكم - في حال الغضب ، وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر ، أو لحمية الإسلام - هنة تؤدّى إلى أذاهما ، ثم أنبتم إلى اللّه واستغفرتم منها ، فإن اللّه غفور لِلْأَوَّابِينَ للتوّابين. وعن

(1). قوله «تظننى جازيتها يا ابن عمر» لعله ثم قال تظننى. (ع)
(2). أخرجه ابن المبارك في البر والصلة : أخبرنا سعيد بن سعيد بن أبى بردة عن أبيه قال كان ابن عمر يطوف بالبيت فرأى رجلا - فذكره. وهذا إسناد صحيح وأخرجه البيهقي في الشعب في الخامس والخمسين وأخرجه البخاري في الأدب المفرد عن آدم عن سعيد مختصرا.
(3). أخرجه ابن عدى من رواية محمد بن الفرات عن أبى إسحاق عن الحرث عن على بهذا وأتم منه. وفيه مسيرة خمسمائة بدل ألف. ورواه الطبراني في الأوسط من طريق جابر الجعفي عن أبى جعفر عن جابر بن عبد اللّه فذكره بلفظ «ألف عام» وجابر ومحمد بن الفرات متروكان.
(4). قوله «لا يذهب بأبيه إلى البيعة» في الصحاح : البيعة بالكسر للنصارى. (ع)
(5). لم أجده : ولا يصح عن والد حذيفة أنه كان في صف المشركين : فانه استشهد بأحد مع المسلمين بأبدى المسلمين خطأ. وهم يحسبونه من الكفار ، كما في صحيح البخاري لكن نحو القصة المذكورة وردت لأبى عبيدة ابن الجراح.
(6). قوله «و لا تنظر شررا إليهما» هو نظر الغضبان بمؤخر العين ، كذا في الصحاح. (ع)
(7). أخرجه مسلم من حديث ابن عمر مرفوعا وفيه قصة.

ويجوز أن يكون هذا عامّاً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ، ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته ، لوروده على أثره.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 26 إلى 27]

وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (27)

وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما ، وأن يؤتوا حقهم : وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد ، وفقراء عاجزين عن الكسب ، وكان الرجل موسراً : أن ينفق عليهم عند أبى حنيفة. والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب.

وإن كانوا مياسير ، أو لم يكونوا محارم : كأبناء العمّ ، فحقهم صلتهم بالمودّة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ يعنى وآت هؤلاء حقهم من الزكاة. وهذا دليل على أن المراد بما يؤتى ذوى القرابة من الحق : هو تعهدهم بالمال. وقيل : أراد بذي القربى أقرباء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

التبذير. تفريق المال فيما لا ينبغي. وإنفاقه على وجه الإسراف. وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك في أشعارها ، فأمر اللّه بالنفقة في وجوهها مما يقرّب منه ويزلف. وعن عبد اللّه : هو إنفاق المال في غير حقه. وعن مجاهد : لو أنفق مدّا في باطل كان تبذيرا وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر ، فقال له صاحبه : لا خير في السرف ، فقال : لا سرف في الخير. وعن عبد اللّه بن عمرو : مرّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال : ما هذا السرف يا سعد؟ قال : أو في الوضوء سرف؟ قال. نعم وإن كنت على نهر جار «1» إِخْوانَ الشَّياطِينِ أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمّة ، لأنه لا شرّ من الشيطان. أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف.

أو هم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً فما ينبغي أن يطاع ، فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله. وقرأ الحسن : إخوان الشيطان.

[سورة الإسراء (17) : آية 28]

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (28)
وإن أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الردّ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك. وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم «2» إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء.

(1). أخرجه ابن ماجة وأحمد وأبو يعلى والبيهقي من حديثه. وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف. [.....]

(2). أخرجه ابن حبان والحاكم عن أنس : قال كان النبي صلى اللّه عليه وسلم لا يسأل شيئا إلا أعطاه أو سكت وفيه قصة : وفي الطبراني الأوسط عن على رضى اللّه عنه «كان النبي صلى اللّه عليه وسلم إذا سئل شيئا فأراد أن يفعله قال : نعم. وإذا أراد أن لا يفعل سكت ولم يقل قط لشيء : لا. فذكر قصة. وإسناده ضعيف.

قوله ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ إمّا أن يتعلق بجواب الشرط مقدّما عليه ، أى : فقل لهم قولا سهلا ليناً وعدهم وعداً جميلا ، رحمة لهم وتطييباً لقلوبهم ، ابتغاء رحمة من ربك ، أى : ابتغ رحمة اللّه التي ترجوها برحمتك عليهم. وإما أن يتعلق بالشرط ، أى : وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك ، فسمى الرزق رحمة ، فردّهم ردّاً جميلا ، فوضع الابتغاء موضع الفقد ، لأنّ فاقد الرزق مبتغ له ، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه ، فوضع المسبب موضع السبب. ويجوز أن يكون معنى وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة ، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك ، لأن من أبى أن يعطى : أعرض بوجهه. يقال : يسر الأمر وعسر ، مثل سعد الرجل ونحس «1» فهو مفعول ، وقيل معناه : فقل لهم رزقنا اللّه وإياكم من فضله ، على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم ، كأن معناه : قولا ذا ميسور ، وهو اليسر «2» ، أى : دعاء فيه يسر.

[سورة الإسراء (17) : آية 29]

وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (29)

هذا تمثيلٌ لمنع الشحيح وإعطاء المسرف ، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير فَتَقْعُدَ مَلُوماً فتصير ملوما عند اللّه ، لأنّ المسرف غير مرضى عنده وعند الناس ، يقول المحتاج : أعطى فلاناً وحرمني. ويقول المستغنى : ما يحسن تدبير أمر المعيشة. وعند نفسك : إذا احتجت فندمت على ما فعلت مَحْسُوراً منقطعاً بك لا شيء عندك ، من حسره السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة ، وعن جابر : بينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالس أتاه صبى فقال : إنّ أمى تستكسيك درعا ، فقال من ساعة إلى ساعة يظهر ، فعد إلينا ، فذهب إلى أمّه فقالت له قل له : إن أمى تستكسيك الدرع الذي عليك ، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً ، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة «3». وقيل أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن «4» ، فجاء عباس بن مرداس ، وأنشأ يقول :

(1). قوله «مثل سعد الرجل ونحس» في الصحاح : سعد الرجل بالكسر فهو سعيد : مثل سلم فهو سليم.
وسعد بالضم فهو مسعود. (ع)
(2). قوله «قولا ذا ميسور وهو اليسر» في الصحاح : المعسور ضد الميسور. وهما مصدران. وقال سيبويه :
هما صفتان. (ع)
(3). لم أجده
(4). قوله «مائة من الإبل وعيينة بن حصن» لعل بعده سقطا تقديره : مائة.

أَتَجْعَلُ نَهْبِى وَنَهْبَ الْعَبِيدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ

يَفُوقَانِ جَدِّىَ فِى مَجْمَعٍ وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِىءٍ مِنْهُمَا

وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْم لَا يُرْفَعِ «1»

فقال : يا أبا بكر ، اقطع لسانه عنى ، أعطه مائة من الإبل «2» فنزلت.

[سورة الإسراء (17) : آية 30]

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (30)

ثم سلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عما كان يرهقه من الإضافة ، بأنّ ذلك ليس لهوان منك عليه ، ولا لبخل به عليك ولكن لأنّ مشيئته في بسط الأرزاق وقدّرها «3» تابعة للحكمة والمصلحة. ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر اللّه الذي الخزائن في يده ، فأما العبيد فعليهم أن يقتصدوا. ويحتمل أنه عزّ وعلا بسط لعباده أو قبض ، فإنه يراعى أوسط الحالين ، لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده ، ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه ، فاستنوا بسنته.

[سورة الإسراء (17) : آية 31]

وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (31)

(1). للعباس بن مرداس رضى اللّه عنه يخاطب النبي صلى اللّه عليه وسلم ، روى أنه أعطى كلا من الأقرع بن حابس رعيينة بن حصن مائة من الإبل تأليفا لقلوبهما ، فأنشأ العباس ذلك ، فرفعه أبو بكر للنبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : اقطعوا عنى لسانه ، ففزع وفزع أناس ، وإنما أراد إعطاءه تأليفا لقلبه أيضا. والاستفهام للتعجب.
ويحتمل أنه للإنكار ، لكنه بعيد من الصحابي ، أى : أتقسم نهى ونهب العبيد فرسي بين هذين ، والحال أن أبويهما ما كانا يفوقان أبى مرداس بمنع الصرف للضرورة. وقد يروى «العبيد» مصغرا. ويروى بدله «جدي» ويروى «شيخي في مجمع» من مجامع الحرب ، وأنا لست أقل من واحد منهما ، فنحن سواء أصلا وفرعا ، فكيف تفاوت بيننا الآن؟ مع أن من تخفض قدره لا يرتفع عمره. وروى «منهمو» أى من الأربعة. وروى «و من يخفض» مبنيا للمجهول. وفي ذكر حصن وحابس بعد عيينة والأقرع : لف ونشر مرتب.
(2). أخرجه مسلم من رواية عتبة بن رفاعة بن رافع عن رافع بن خديج قال «أعطى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل.
وأعطي عباس بن مرداس دون ذلك. فقال عباس - فذكر الشعر. قال : فأتم له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مائة» وأخرجه ابن إسحاق في المغازي حدثني عبد اللّه بن أبى بكر بن حزم وغيره - فذكر القصة وقال في آخرها :
ارهبوا فاقطعوا لسانه. فزادوه حتى رضى» وكذا ذكره موسى بن عقبة والواقدي وابن سعد وليس في شيء من طرقهم أن المخاطب بذلك كان أبا بكر
(3). قوله «في بسط الأرزاق وقدرها» أى تضييقها. أفاده الصحاح. (ع)

قتلهم أولادهم : هو وأدهم بناتهم «1» ، كانوا يئدونهنّ خشية الفاقة وهي الاملاق ، فنهاهم اللّه وضمن لهم أرزاقهم. وقرئ خَشْيَةَ بكسر الخاء. وقرئ خِطْأً وهو الإثم ، يقال : خطئ خطأ ، كاثم إثما ، وخطأ وهو ضدّ الصواب ، اسم من أخطأ. وقيل : هو والخطء كالحذر والحذر ، وخطاء بالكسر والمدّ. وخطاء بالفتح والمد. وخطأ بالفتح والسكون. وعن الحسن : خطا بالفتح وحذف الهمزة كالخب. وعن أبى رجاء : بكسر الخاء غير مهموز.

[سورة الإسراء (17) : آية 32]

وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبِيلاً (32)

فاحِشَةً قبيحة زائدة على حد القبح وَساءَ سَبِيلًا وبئس طريقا طريقه ، وهو أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب ، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه اللّه «2».

[سورة الإسراء (17) : آية 33]

وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (33)

إِلَّا بِالْحَقِّ إلا بإحدى ثلاث : إلا بأن تكفر ، أو تقتل مؤمنا عمدا ، أو تزنى بعد إحصان. مَظْلُوماً غير راكب واحدة منهنّ لِوَلِيِّهِ الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه ، فإن لم يكن له ولى فالسلطان وليه سُلْطاناً تسلطا على القاتل في الاقتصاص منه. أو حجة يثب بها عليه فَلا يُسْرِفْ الضمير للولي. أى : فلا يقتل غير القاتل ، ولا اثنين والقاتل واحد ، كعادة الجاهلية : كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة ، حتى قال مهلهل حين قتل بجير بن الحارث بن عباد : بؤ بشسع نعل كليب «3». وقال : كُلُّ قَتِيلٍ فِى كُلَيْبٍ غُرَّهْ حَتَّي يَنَالَ الْقَتْلُ آلَ مُرَّهْ «4»

وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء. وقيل : الإسراف المثلة. وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة : فلا يسرف ، بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر. وفيه مبالغة ليست في الأمر.

(1). قوله «هو وأدهم بناتهم» وأد البنت : دفنها في القبر وهي حية ، كما في الصحاح. (ع)
(2). قوله «و هو الصهر الذي شرعه اللّه» أى التزوج. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «بؤ بشع نعل كليب» في الصحاح يقال بؤ به أى كن ممن يقتل به وفيه البواء : السواء. وفيه الشسع : واحد شسوع النعل التي تشد إلى زمامها. وفيه الغرة : العبد أو الأمة. (ع)
(4). الغرة : الرقيق ، يعنى : كل قتيل قتلناه في هذه القبيلة ليس كفؤا لمن قتلوه منا ، حتى يصل قتلنا آل مرة فهم كفؤه.

وعن مجاهد : أنّ الضمير للقاتل الأوّل. وقرئ : فلا تسرف ، على خطاب الولي أو قاتل المظلوم.

وفي قراءة أبىّ : فلا تسرفوا ، ردّه على : ولا تقتلوا إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً الضمير إمّا للولي ، يعنى حسبه أنّ اللّه قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك ، وبأنّ اللّه قد نصره «1» بمعونة السلطان وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق ، فلا يبغ ما وراء حقه. وإمّا للمظلوم ، لأنّ اللّه ناصره وحيث أوجب القصاص بقتله، وينصره في الآخرة بالثواب. وإما للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله ، فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف.

[سورة الإسراء (17) : آية 34]

وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً (34)

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن ، وهي حفظه عليه وتثميره إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا أى مطلوبا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به «2». ويجوز أن يكون تخييلا ، كأنه يقال للعهد : لم نكثت؟ وهلا وفي بك؟ تبكيتا للناكث ، كما يقال للموءودة : بأى ذنب قتلت؟ ويجوز أن يراد أنّ صاحب العهد كان مسئولا.

[سورة الإسراء (17) : آية 35]

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (35)

وقرئ بِالْقِسْطاسِ بالضم والكسر ، وهو القرسطون «3». وقيل : كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرهما وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وأحسن عاقبة ، وهو تفعيل ، من آل إذا رجع ، وهو ما يؤول إليه.

[سورة الإسراء (17) : آية 36]

وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً (36)

(1). قوله «و بأن اللّه قد نصره» لعله أو أن. (ع)
(2). قال محمود : «أى يطلب من المعاهد أن يفي به ولا ينكثه ... الخ» قال أحمد ، كلام حسن إلا لفظة التخييل فقد تقدم إنكارها عليه ، وينبغي أن يعوض بالتمثيل. والظاهر التأويل الأول ، ويكون المجرور الذي هو «عنه» حذف تخفيفا ، وقد ذكر في بقية الآي كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا واللّه أعلم. وبعضد تأويل سؤال العهد نفسه على وجه التمثيل وقوف الرحم بين يدي اللّه وسؤالها فيمن وصلها وقطعها. وقد ورد ذلك في الحديث الصحيح ، واللّه الموفق. [.....]
(3). قوله «بالقسطاس بالضم والكسر وهو القرسطون» أى القبان ، كذا في النسفي. (ع)

وَلا تَقْفُ ولا تتبع. وقرئ : ولا تقف ، يقال : قفا أثره وقافه ، ومنه : القافة ، يعنى : ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال. والمراد : النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم ، ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولا ظاهرا. لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده. وعن ابن الحنفية : شهادة الزور وعن الحسن : لا تقف أخاك المسلم إذا مرّ بك ، فتقول : هذا يفعل كذا ، ورأيته يفعل ، وسمعته ، ولم تر ولو تسمع. وقيل : القفو شبيه بالعضيهة «1». ومنه الحديث «من قفى مؤمنا بما ليس فيه حبسه اللّه في ردغة الخبال «2» حتى يأتى بالمخرج «3»» وأنشد :

وَمِثْلُ الدُّمى شُمُّ الْعَرَانِينِ سَاكِنٌ بِهِنَّ الحَيَاءُ لَا يُشِعْنَ التَّقَافِيَا «4»

أى التقاذف. وقال الكميت :

وَلَا أَرْمِى البَرِيَّ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَلَا أَقْفُو الحَوَاصِنَ إِنْ قُفِينَا «5»

(1). قوله «و قيل القفو شبيه بالعضيهة» في الصحاح العضيهة البهيتة ، وهي الافك والبهتان. (ع)
(2). قوله «حبسه اللّه في ردغة الخبال» في الصحاح الردغة - بالتحريك - : الماء والطين والوحل الشديد وكذلك الردغة بالتسكين. وفيه الخبال : العناء والفساد وأما الذي في الحديث من قفا مؤمنا بما ليس فيه وقفه اللّه تعالى في ردغة الخبال حتى يجيء بالمخرج منه، فيقال : هو صديد أهل النار.

(3). لم أره بهذا اللفظ مرفوعا. وإنما ذكره أبو عبيد في الغريب من قول حسان بن عطية. فقال : حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعى عنه بهذا. وروى أحمد والطبراني من رواية معاذ بن أنس - رفعه «من قفا مؤمنا بما ليس فيه يريد شينه به حبسه اللَّه على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» وفي مسند الشاميين للطبراني من طريق مطر الوراق عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر «من قذف مؤمنا أو مؤمنة حبس في ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج ، وهو عند أبى داود من رواية يحيى بن راشد عن ابن عمر بلفظ «من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه اللَّه ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج. وهو يخرج مما قال» وأخرجه الحاكم من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رفعه «من قال في مؤمن ما ليس فيه حبسه اللَّه في ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج».
(4). يصف نساء بأنهن جميلات مثل الدمى ، جمع دمية بالضم ، وهو الصنم والصورة من العاج المرصعة بالجواهر والشم ، جمع شماء كحمر وحمراء ، والعرانين : الأنوف ، أى مرتفعات الأنوف كناية عن شرفهن وارتفاع قدرهن.
أو كناية عن كونهن كرائم حرائر ، لأن انخفاض الأنف خاص بالعبيد والماء. وشبههن بالبيوت. وشبه الحياء بقوم يسكنونها على طريق المكنية والسكنى تخييل لذلك ، وهو كناية ومبالغة في ملازمة الحياء لهن ، لا يشعن : أى لا يظهرن التقافى ، أى المتابعة بالقذف ، من قفوته إذا أتبعته بالغيبة. وفي إشاعته : كناية عن نفيه ، لأنها لازمة له ، حيث أنه لا يكون إلا بين اثنين فأكثر.
(5). يقال : حصنت المرأة بالضم حصانة ، فهي حاصن وحصناء وحصان. والحواصن : جمع حاصن : أى عفت فهي عفيفة ، يقول: لا أتهم البريء بشيء زور ، بل بذنب محقق. والظاهر أن هذا في معنى الاستثناء المنقطع ، لأن البريء ما دام بريئا لا ذنب له ، ولا أتبع العفائف وأتكلم فيهن بفحش ما دمن عفائف إن قفاهن الناس ، فتكلموا فيهن فكيف إذا لم يتكلم فيهن أحد؟.

وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح ، لأنّ ذلك نوع من العلم ، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم ، وأمر بالعمل به أُولئِكَ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد ، كقوله :

وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَيَّامِ «1»

وعَنْهُ في موضع الرفع بالفاعلية ، أى : كل واحد منها كان مسئولا عنه ، فمسئول : مسند إلى الجار والمجرور ، كالمغضوب في قوله غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ يقال للإنسان : لم سمعت ما لم يحل لك سماعه ، ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه ، ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ وَالْفُوَادَ بفتح الفاء والواو ، قلبت الهمزة واوا بعد الضمة في الفؤاد ، ثم استصحب القلب مع الفتح.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 37 إلى 38]

وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (37) كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (38)

مَرَحاً حال ، أى : ذا مرح. وقرئ مَرَحاً وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ لن تجعل فيها خرقا «2» بدوسك لها وشدّة وطأتك.

(1) لولا مراقبة العيون أريننا مقل المها وسوالف الآرام
هل ينهينك أن قتلن مرقشا أو ما فعلن بعروة بن حزام
ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام
لجرير بن عطية يخاطب نفسه على طريق التجريد ، يقول : لولا مراقبة النساء للعيون ، أى الرقباء المتطلعين علينا ، لبرزن لنا وأريننا عيونهن التي هي كعيون بقر الوحش ، فمقل المها : استعارة مصرحة ، وكذلك سوالف الآرام.
والسالفة : مقدم العنق وصفحته. والآرام : جمع رئم بالكسر والهمز ، وهو الغزال الأبيض ، وأصله «أرآم» بهمز ممدود بعد الراء وزن أحمال ، فقلب إلى ما قبلها. ويجوز أنه جمع ريم بالفتح وهو الغزال الأبيض ، فهمز وقلب. وهل بمعنى قد. أو للتقرير. أى : أنه ينهاك عنهن مقتلهن مرقشا العاشق المشهور. أو فعلهن بعروة العاشق أيضا. وذم : فعل أمر ، كأنه تذكر محبوبته في تلك الديار وتلك الأيام ، فقال : ذم المنازل كلها حال كونها بعد ، أى : غير منزلة اللوى. أو بعد مجاوزتك منزلة اللوى بلازم. واللوى : موضع بعينه من الرمل الملتوى ، وذم الحياة كلها بعد حياتنا في تلك الأيام ، أو ذم مدة الحياة كلها بعد تلك الأيام السابقة ، وأشار لها بما للعقلاء لعظمتها عنده ، ولأن تخصصه بالعقلاء طارئ في الاستعمال كما قيل ويجوز أن بعد ظرف المنازل والعيش وبعض النحاة جعل «ذم» مبنيا للمجهول ، وما بعده مرفوع به على النيابة.
(2). قال محمود : «معناه لن تجعل فيها خرقا ... الخ» قال أحمد : وفي هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية كفاية في الانزجار عنها ، ولقد حفظ اللَّه عوام زماننا عن هذه المشية ، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا ، بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين ، أو شدا طرفا من رياسة الدنيا ، إذ هو يتبختر في مشيه ويترجع ، ولا يرى أنه يطاول الجبال ، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء ، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وما ذا يفيده أن يقرأ القرآن أو يقرأ عليه ، وقلبه عن تدبره على مراحل ، واللَّه ولى التوفيق.

وقرئ. لن تخرق ، بضم الراء وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا بتطاولك. وهو تهكم بالمختال. قرئ سيئة وسيئه ، على إضافة سيئ إلى ضمير كل ، وسيئا في بعض المصاحف. وسيئات . وفي قراءة أبى بكر الصديق رضى اللَّه عنه: كان شأنه. فإن قلت : كيف قيل سيئه مع قوله مكروها؟ قلت :

السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات ، فلا اعتبار بتأنيثه. ولا فرق بين من قرأ سيئة وسيئا. ألا تراك تقول : الزنا سيئة ، كما تقول : السرقة سيئة ، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث. فإن قلت : فما ذكر من الخصال بعضها سيئ وبعضها حسن ، ولذلك قرأ من قرأ سَيِّئُهُ بالإضافة ، فما وجه من قرأ سيئة؟ قلت : كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة.

[سورة الإسراء (17) : آية 39]

ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (39)

ذلِكَ إشارة إلى ما تقدم من قوله لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إلى هذه الغاية. وسماه حكمة لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه. وعن ابن عباس : هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى ، أوّلها ، لا تجعل مع اللّه إلها آخر ، قال اللّه تعالى وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وهي عشر آيات في التوراة. ولقد جعل اللّه فاتحتها وخاتمتها النهى عن الشرك ، لأنّ التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكماء «1» وحك بيافوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم ، وهم عن دين اللّه أضل من النعم.

[سورة الإسراء (17) : آية 40]

أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (40)

أَفَأَصْفاكُمْ خطاب للذين قالوا «الملائكة بنات اللّه» والهمزة للإنكار. يعنى : أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون ، لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه ، واتخذ أدونهم وهي البنات؟ وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم ، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردأها وأدونها للسادات إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام ، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون ، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق اللّه وأشرفهم «2» أدون

(1). قوله «و إن بذ فيها الحكماء» في الصحاح «بذه» غلبه وفاقه. (ع)
(2). قوله «و هم أعلى خلق اللّه وأشرفهم» هذا على مذهب المعتزلة. أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل من الملاك. (ع)

خلق اللّه وهم الإناث.

[سورة الإسراء (17) : آية 41]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (41)

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ يجوز أن يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى اللّه البنات ، لأنه مما صرفه وكرّر ذكره ، والمعنى : ولقد صرفنا القول في هذا المعنى. أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكانا للتكرير. ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد. ولقد صرفناه ، يعنى هذا المعنى في مواضع من التنزيل ، فترك الضمير لأنه معلوم. وقرئ : صرفنا بالتخفيف وكذلك لِيَذَّكَّرُوا قرئ مشدّدا ومخففاً ، أى : كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم وَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً عن الحق وقلة طمأنينة إليه. وعن سفيان : كان إذا قرأها قال. زادني لك خضوعا ما زاد أعداءك نفورا.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 42 إلى 43]

قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (42) سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً(43)

قرئ : كما تقولون ، بالتاء والياء. وإذاً دالة على أن ما بعدها وهو لَابْتَغَوْا جواب عن مقالة المشركين وجزاء ل «لو». ومعنى لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، كقوله لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا وقيل : لتقرّبوا إليه ، كقوله أُولئِكَ الَّذِينَ

[سورة الإسراء (17) : آية 44]

تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (44)

والمراد أنها تسبح له بلسان الحال «1» ، حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته ، فكأنها تنطلق بذلك ،

(1). قال محمود : «المراد تسبيحها بلسان الحال من حيث تدل على الصانع ... الخ» قال أحمد : ولقائل أن يقول : فما يصنع بقوله كانَ حَلِيماً غَفُوراً وهو لا يغفر للمشركين ولا يتجاوز عن جهلهم وكفرهم وإشراكهم ، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنون ، والظاهر أن المخاطب المؤمنون. وأما عدم فقهنا للتسبيح الصادر من الجمادات ، فكأنه - والله أعلم - من عدم العمل بمقتضى ذلك ، فان الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من ذرات الكون تسبح الله وتنزهه وتشهد بجلاله وكبريائه وقهره ، وعمر خاطره بهذا الفهم ، لكان ذلك يشغله عن القوت فضلا عن فضول الكلام والأفعال ، والعاكف على الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا هذا ، لو استشعر حال إفاضته فيها أن كل ذرة وجوهر من ذرات لسانه الذي يلقلقه في سخط الله تعالى عليه ، مشغولة مملوءة بتقديس الله تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته ، وتيقظ لذلك حق التيقظ ، لكاد أن لا يتكلم بقية عمره ، فالظاهر والله أعلم أن الآية إنما وردت خطابا على الغالب في أحوال الغافلين وإن كانوا مؤمنين ، والله الموفق.
فالحمد لله الذي كان حليما غفورا.

وكأنها تنزه الله عز وجلّ مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها. فإن قلت : فما تصنع بقوله وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟ قلت : الخطاب للمشركين ، وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض قالوا : الله ، إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم ، فكأنهم لم ينظروا ولم يقرّوا ، لأنّ نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه ، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق. فإن قلت : من فيهنّ يسبحون على الحقيقة وهم الملائكة «1» والثقلان ، وقد عطفوا على السموات والأرض ، فما وجهه؟ قلت : التسبيح المجازى حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه ، وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 45 إلى 48]

وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (45) وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (46) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (47) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (48)

حِجاباً مَسْتُوراً ذا ستر كقولهم. سيل مفعهم ذو إفعام. وقيل : هو حجاب لا يرى فهو مستور. ويجوز أن يراد أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب ، فهو مستور بغيره. أو حجاب يستر أن يبصر ، فكيف يبصر المحتجب به ، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه

(1). عاد كلامه. قال : إن قلت «من فيهن يسبحون حقيقة وهم الملائكة ... الخ» قال أحمد : وقد تقدم نقلى عنه أنه يأبى حمل اللفظ على حقيقته ومجازه دفعة واحدة عند آية السجدة في النحل ، ولكن ظهر من كلامه ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد وعدم الامتناع على القدرة ، ليكون متناولا للمكلفين وغير المكلفين بطريق التواطؤ ، وقد يكون أراد ثم المجاز ، والله الموفق.

وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ كأنه قال : وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم أَنْ يَفْقَهُوهُ كراهة أن يفقهوه. أو لأنّ قوله وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً فيه معنى المنع من الفقه ، فكأنه قيل : ومنعناهم أن يفقهوه. يقال : وحد يحد وحدا وحدة ، نحو وعد يعدو عدا وعدة ، ووَحْدَهُ من باب رجع عوده على بدئه ، وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر سادّ مسدّ الحال ، أصله : يحد وحده بمعنى واحدا ، وحده. والنفور : مصدر بمعنى التولية. أو جمع نافر كقاعد وقعود ، أى : يحبون أن تذكر معه آلهتهم لأنهم مشركون ، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ من الهزؤ بك وبالقرآن ، ومن اللغو : كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار ، ورجلان منهم عن يساره ، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار. وبِهِ في موضع الحال كما تقول يستمعون بالهزؤ ، أى هازئين. وإِذْ يَسْتَمِعُونَ نصب بأعلم ، أى : أعلم وقت استماعهم

[سورة الإسراء (17) : الآيات 49 إلى 51]

وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (49) قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (50) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (51)

لما قالوا : أئذا كنا عظاما قيل لهم كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً فردّ قوله : كونوا ، على قولهم : كنا ، كأنه قيل : كونوا حجارة أو حديدا ولا تكونوا عظاما ، فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى : أنكم تستبعدون أن يجدد اللّه خلقكم ، ويردّه إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحىّ وغضاضته بعد ما كنتم عظاما يابسة ، مع أنّ العظام بعض أجزاء الحي ، بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره ، فليس ببدع أن يردّها اللّه بقدرته إلى حالتها الأولى ، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحىّ ومن جنس ما ركب منه البشر - وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديدا مع أن طباعها الجسارة والصلابة - لكان قادرا على أن يردّكم إلى حال الحياة أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ يعنى أو خلقا مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه فإنه يحييه. وقيل : ما يكبر في صدورهم الموت. وقيل : السموات والأرض فَسَيُنْغِضُونَ فسيحرّكونها نحوك تعجبا واستهزاء.

[سورة الإسراء (17) : آية 52]

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (52)

والدعاء والاستجابة كلامهما مجاز. والمعنى : يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون. وقوله بِحَمْدِهِ حال منهم ، أى حامدين ، وهي مبالغة في انقيادهم للبعث ، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشقّ عليه فيتأبى ويتمنع ، ستركبه وأنت حامد شاكر ، يعنى : أنك تحمل عليه وتفسير قسرا حتى أنك تلين لين المسمح «1» الراغب فيه الحامد عليه ، وعن سعيد بن جبير : ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك وَتَظُنُّونَ وترون الهول ، فعنده تستقصرون مدّة لبثكم في الدنيا ، وتحسبونها يوما أو بعض يوم. وعن قتادة : تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 53 إلى 54]

وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (53) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (54)

وَقُلْ لِعِبادِي وقل للمؤمنين يَقُولُوا للمشركين الكلمة الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وألين ولا يخاشنوهم ، كقوله : وجادلهم بالتي هي أحسن. وفسر التي هي أحسن بقوله رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ يعنى يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ، ولا يقولوا لهم : إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر. وقوله إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ اعتراض ، يعنى يلقى بينهم الفساد ويغرى بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارّة والمشاقة وَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا أى ربا موكولا إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه ، وإنما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمكاشفة ، وذلك قبل نزول آية السيف. وقيل : نزلت في عمر رضى اللّه عنه : شتمه رجل فأمره اللّه بالعفو. وقيل : أفرط إيذاء المشركين للمسلمين ، فشكوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فنزلت. وقيل : الكلمة التي هي أحسن : أن يقولوا يهديكم اللّه ، يرحمكم اللّه. وقرأ طلحة : ينزغ ، بالكسر وهما لغتان ، نحو يعرشون ويعرشون.

[سورة الإسراء (17) : آية 55]

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (55)

(1). قوله «المسمح» في الصحاح «أسمحت قرونته» أى ذلت نفسه وتابعته على الأمر. (ع)

هو ردّ على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبى طالب نبيا ، وأن تكون العراة الجوّع أصحابه ، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم ، دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم ، يعنى : وربك أعلم بمن في السموات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستأهل كل واحد منهم. وقوله وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً دلالة على وجه تفضيله ، وهو أنه خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم ، لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود. قال الله تعالى وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ وهم محمد وأمته. فإن قلت : هلا عرّف الزبور كما عرّف في قوله وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ؟ قلت : يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس ، والفضل وفضل ، وأن يريد: وآتينا داود بعض الزبر وهي الكتب ، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزبور ، فسمى ذلك زبورا ، لأنه بعض الزبور ، كما سمى بعض القرآن قرآنا.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 56 إلى 57]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (56) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (57)

هم الملائكة. وقيل : عيسى ابن مريم ، وعزير. وقيل نفر من الجن ، عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا ، أى : ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب ، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه. وأُولئِكَ مبتدأ ، والَّذِينَ يَدْعُونَ صفته ، ويَبْتَغُونَ خبره ، يعنى : أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القربة إلى الله تعالى. وأَيُّهُمْ بدل من واو يبتغون ، وأى موصولة ، أى : يبتغى من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله ، فكيف بغير الأقرب. أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون ، فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله ، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح ، ويرجون ، ويخافون ، كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة؟ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ حقيقا بأن يحذره كل أحد من ملك مقرّب ونبىّ مرسل ، فضلا عن غيرهم.

[سورة الإسراء (17) : آية 58]

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (58)

نَحْنُ مُهْلِكُوها بالموت والاستئصال أَوْ مُعَذِّبُوها بالقتل وأنواع العذاب. وقيل : الهلاك للصالحة ، والعذاب للطالحة. وعن مقاتل : وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها : أما مكة فيخربها الحبشة ، وتهلك المدينة بالجوع ، والبصرة بالغرق ، والكوفة بالترك ، والجبال بالصواعق والرواجف. وأما خراسان فعذابها ضروب ، ثم ذكرها بلدا بلدا فِي الْكِتابِ في اللوح المحفوظ.

[سورة الإسراء (17) : آية 59]

وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (59)

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة. و«أن» الأولى منصوبة والثانية مرفوعة ، تقديره : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين. والمراد : الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ومن إحياء الموتى وغير ذلك : وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال ، فالمعنى : وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود ، وأنها لو أرسالات لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها ، واستوجبوا العذاب المستأصل. وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة. ثم ذكر من تلك الآيات - التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسالات فأهلكوا - واحدة : وهي ناقة صالح ، لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم ووارديهم مُبْصِرَةً بينة. وقرئ : مبصرة ، بفتح الميم فَظَلَمُوا بِها فكفروا بها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها إِلَّا تَخْوِيفاً من

[سورة الإسراء (17) : آية 60]

وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْياناً كَبِيراً (60)

وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش ، يعنى : بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم. وذلك قوله سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ وغير ذلك ، فجعله كأن قد كان ووجد ، فقال : أحاط بالناس على عادته في إخباره ، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبي صلى اللّه عليه وسلم في العريش مع أبى بكر رضى اللّه عنه كان يدعو ويقول : «اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك» ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول «سيهزم الجمع ويولون الدبر» «1» ولعلّ اللّه تعالى أراه مصارعهم في منامه ، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر «و اللّه لكأنى أنظر إلى مصارع القوم» «2» وهو يومئ إلى الأرض ويقول : هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان ، فتسامعت قريش بما أوحى إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أمر يوم بدر وما أرى في منامه من مصارعهم ، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء وحين سمعوا بقوله : «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم» «3» جعلوها سخرية وقالوا : إن محمدا يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر. وما قدر اللّه حق قدره من قال ذلك ، وما أنكروا أن يجعل اللّه الشجرة من جنس لا تأكله النار! فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار. وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها ، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة نارا فلا تحرقها، فما أنكروا أن يخلق «4» في النار شجرة لا تحرقها. والمعنى : أنّ الآيات إنما يرسل بها تخويفا للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر. فما كان ما أَرَيْناكَ منه في منامك بعد الوحى إليك إِلَّا فِتْنَةً لهم حيث اتخذوه سخريا وخوّفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم ، ثم قال فيهم وَنُخَوِّفُهُمْ أى نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فَما يَزِيدُهُمْ التخويف إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً فكيف يخاف قوم هذه خالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات.

وقيل : الرؤيا هي الإسراء «5» ، وبه تعلق من يقول : كان الإسراء في المنام ،

(1). لم أجده هكذا فأما أوله ففي البخاري عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال وهو في قبته يوم بدر : اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك. اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعد اليوم. فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبه. فخرج وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر» [.....]

(2). أخرجه مسلم من حديث أنس قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «هذا مصرع فلان ويضع يده على الأرض هاهنا. قال : فما ماط أحد عن موضع يده ،

(3). قال محمود : «افتتانهم بالشجرة أنهم حين سمعوا بقوله ، إن شجرة الزقوم ... الخ» قال أحمد : والعمدة في ذلك أن النار لا تؤثر إحراقا في شيء ، ولكن اللّه تعالى أجرى العادة أنه يخلق الحرق عند ملاقاة جسم النار لبعض الأجسام ، فإذا كان ذلك من فعل اللّه لا من فعل النار فللّه تعالى أن لا يفعل الحرق في الشجرة التي في أصل الجحيم.

(4). قوله «فما أنكروا أن يخلق» عبارة النسفي : فجاز أن يخلق. (ع)

(5). عاد كلامه. قال : «و أما الرؤيا فقيل الاسراء ، وتعلق من جعله مناما بهذه الآية. وقيل : إنما سماها رؤيا على زعم المكذبين ... الخ» قال أحمد : ويبعد ذلك قوله تعالى طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ وقوله فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها واللّه أعلم.

ومن قال : كان في اليقظة ، فسر الرؤيا بالرؤية. وقيل : إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له : لعلها رؤيا ، رأيتها ، وخيال خيل إليك ، استبعاداً منهم ، كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة ، نحو قوله : فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ ، أَيْنَ شُرَكائِيَ ، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ وقيل : هي رؤياه أنه سيدخل مكة. وقيل : رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة. فإن قلت : أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ قلت : لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة ، لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة ، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز. وقيل : وصفها اللّه باللعن ، لأن اللعن الإبعاد من الرحمة ، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة. وقيل : تقول العرب لكل طعام مكروه ضار : ملعون ، وسألت بعضهم فقال : نعم الطعام الملعون القشب الممحوق «1». وعن ابن عباس : هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب. وقيل : أبو جهل. وقرئ : والشجرة الملعونة بالرفع ، على أنها مبتدأ محذوف الخبر ، كأنه قيل : والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 61 إلى 65]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (61) قالَ أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (62) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (63) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (64) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَكَفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (65)
طِيناً حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد ، على : أأسجد له وهو طين ، أى أصله طين.

(1). قوله «الطعام الملعون القشب الممحوق» الخلط الضار يمزج بالطعام أو الشراب كالسم. والممحوق المذاب حتى يذهب عينه. أفاده الصحاح. وفيه «الكشوث» نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض ، قال الشاعر :
هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر (ع)

أو من الراجع إليه من الصلة على : أأسجد لمن كان في وقت خلقه طينا أَرَأَيْتَكَ الكاف للخطاب. وهذَا مفعول به. والمعنى : أخبرنى عن هذا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ أى فضلته ، لم كرمته عليّ وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف ذلك ، ثم ابتدأ فقال لَئِنْ أَخَّرْتَنِ واللام موطئة للقسم المحذوف لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ لأستأصلتهم بالإغواء ، من احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلا ، وهو من الحنك. ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم : أحنك الشاتين أى أكلهما. فإن قلت : من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو من الغيب؟ قلت : إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم اللّه به ، أو خرجه من قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ، أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهوانى. وقيل: قال ذلك لما علمت وسوسته في آدم ، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة اذْهَبْ ليس من الذهاب للذي هو نقيض المجيء ، إنما معناه : امض لشأنك الذي اخترته خذلانا وتخلية ، وعقبه بذكر ما جرّه سوء اختياره في قوله فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ كما قال موسى عليه السلام للسامري فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ. فإن قلت : أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك؟ قلت : بلى ، ولكن التقدير : فإنّ جهنم جزاؤهم وجزاؤك ، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل : جزاؤكم. ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات ، وانتصب جَزاءً مَوْفُوراً بما في فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ من معنى تجازون. أو بإضمار تجازون. أو على الحال ، لأنّ الجزاء موصوف بالموفور ، والموفور الموفر. يقال : فر لصاحبك عرضه فرة.

استفزّه : استخفه. والفز : الخفيف وَأَجْلِبْ من الجلبة وهي الصياح «1». والخيل : الخيالة.

ومنه قول النبي صلى اللّه عليه وسلم : «يا خيل اللّه اركبي» «2». والرجل اسم جمع للراجل. ونظيره : الركب والصحب.

(1). قوله «من الجلبة وهي الصباح» في الصحاح : جلب على فرسه وأجلب عليه : صاح به من خلفه واستحثه السبق اه. (ع)
(2). أخرجه أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ من طريق أبى حمزة السكرى عن عبد الكريم : حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين قال «كان ناس أتوا النبي صلى اللّه عليه وسلم. فقالوا : نبايعك على الإسلام - وذكر القصة وفيها فأمر النبي صلى اللّه عليه وسلم فنودي في الناس : يا حيل اللّه اركبي : فركبوا لا ينتظر فارس فارسا. روى ابن عائذ في المغازي عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة قال : بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - يعنى يوم قريظة يوم الأحزاب مناديا ينادى : يا خيل اللّه اركبي» وعزا السهيلي في الروض في غزوة حنين هذه اللفظة في صحيح مسلم. فينظر فيه. وقال أبو داود في السنن : باب النداء عند النفير : يا خيل اللّه اركبي وساق في الباب حديث سمرة بن جندب «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سمى خيلنا خيل اللّه» قلت أشكل هذا على المخرج فقال : فيه نظر لمن تأمله. فكأنه لم يتجه له مطابقة الحديث للترجمة. وهو ظاهرها لأن المراد صحة هذه الاضافة. وقد وردت عن على وخالد بن الوليد. ففي المستدرك للحاكم في قصة أويس من حديث أبى نضرة عن أسيد بن جابر فذكر القصة. فقال في آخرها فنادى على : يا خيل اللّه اركبي» وفي الردة للواقدي من رواية عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم اليمامة «يا خيل اللّه اركبي فركبوا وساروا إلى بنى حنيفة.

وقرئ : ورجلك ، على أن فعلا بمعنى فاعل ، نحو : تعب وتاعب. ومعناه : وجمعك الرجل ، وتضم جيمه أيضا، فيكون مثل حدث وحدث ، وندس وندس «1» ، وأخوات لهما.

يقال : رجل رجل. وقرئ : ورجالك ورجالك. فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ قلت : هو كلام ورد مورد التمثيل ، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوّت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم. وقيل : بصوته ، بدعائه إلى الشر. وخيله ورجله : كلّ راكب وماش من أهل العيث «2». وقيل : يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال. وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما ،

(1). قوله «مثل حدث وحدث ، وندس وندس» في الصحاح : رجل حدث وحدث ، بضم الدال وكسرها أى حسن الحديث. وفيه : رجل ندس وندس ، أى : فهم. (ع)
(2). قوله «العيث» في الصحاح «العيث» الإفساد. (ع)
(3). قال محمود : «المراد وعدهم المواعيد الكاذبة ... الخ» قال أحمد : وهذا من تجرى المصنف على السنة ومتبعيها ، فانه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة وإن لم تكن توبة للمؤمنين من مواعيد الشيطان ، مع العلم بأنها ثابتة بقواطع القرآن وعدا من الرحمن ، وكذلك الشفاعة المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة التي وعد بها الصادق المصدوق ، وميزه الله تعالى بها على كل مخلوق ، من مواعيد الشيطان الباطلة وأمانيه الماحلة. اللهم ارزقنا الشفاعة ، واحشرنا في زمرة السنة والجماعة.
(4). قوله «بعد أن يصيروا حمما» في الصحاح : الحمم : الرماد والفحم : الواحدة حممة ، ثم ما أفاده من توقف المغفرة على التوبة وعدم الشفاعة في الكبائر ، وعدم خروج أهلها من النار بعد احتراقهم هو مذهب المعتزلة. وأهل السنة على خلاف ذلك ، كما تقرر في علم التوحيد. (ع)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 66 إلى 67]

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (66) وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (67)

يُزْجِي يجرى ويسير. والضرّ : خوف الغرق ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ذهب عن أوهامكم وخواطركم كلّ من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده ، فإنكم لا تذكرون سواه ، ولا تدعونه في ذلك الوقت ولا تعقدون برحمته رجاءكم ، ولا تخطرون ببالكم أنّ غيره يقدر على إغاثتكم ، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوّين. ويجوز أن يراد : ضلّ من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم ، ولكنّ الله وحده هو الذي ترجونه وحده «1» على الاستثناء المنقطع.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 68 إلى 69]

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (69)

أَفَأَمِنْتُمْ الهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على محذوف تقديره : أنجوتم فأمنتم ، فحملكم ذلك على الإعراض. فإن قلت : بم انتصب جانِبَ الْبَرِّ؟ قلت : بيخسف مفعولا به ، كالأرض في قوله فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ. وبِكُمْ حال. والمعنى : أن يخسف جانب البر ، أى يقلبه وأنتم عليه. فإن قلت. فما معنى ذكر الجانب؟ قلت : معناه أنّ الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء ، وله في كل جانب برا كان أو بحرا سبب مرصد من أسباب الهلكة ، ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك ، بل إن كان الغرق في جانب البحر ، ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف ، لأنه تغييب تحت التراب كما أنّ الغرق تغييب تحت الماء ، فالبرّ والبحر عنده سيان يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر ، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً وهي الريح التي تحصب أى ترمى بالحصباء ، يعنى : أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف ، أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها ، فيكون أشدّ عليكم من الغرق في البحر وَكِيلًا من يتوكل بصرف ذلك عنكم أَمْ أَمِنْتُمْ أن يقوّى دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا،

(1). قوله «و لكن الله وحده هو الذي ترجونه وحده» كأنه تكرار ، وأسقطه الخازن في عبارته. (ع)

فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم ، فينتقم منكم بأن يرسل عَلَيْكُمْ قاصِفاً وهي الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد ، كأنها تتقصف أى تتكسر. وقيل : التي لا تمرّ بشيء إلا قصفته فَيُغْرِقَكُمْ وقرئ بالتاء ، أى الريح. وبالنون ، وكذلك : نخسف ، ونرسل ، ونعيدكم.

قرئت بالياء والنون. التبيع : المطالب ، من قوله فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ أى مطالبة. قال الشماخ : كَمَا لَاذَ الْغَرِيمُ مِنَ التَّبِيعِ «1»

يقال : فلان على فلان تبيع بحقه ، أى مصيطر عليه مطالب له بحقه. والمعنى : أنا نفعل ما نفعل بهم ، ثم لا تجد أحدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا. وهذا نحو قوله وَلا يَخافُ عُقْباها. بِما كَفَرْتُمْ بكفرانكم النعمة ، يريد : إعراضهم حين نجاهم.

[سورة الإسراء (17) : آية 70]

وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً(70)

قيل في تكرمة ابن آدم : كرّمه اللّه بالعقل ، والنطق ، والتمييز ، والخط ، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة ، وتدبير أمر المعاش والمعاد. وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم.

وقيل : كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم. وعن الرشيد : أنه أحضر طعاما فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف ، فقال له : جاء في تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها ، فأحضرت الملاعق فردّها وأكل بأصابعه عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا هو ما سوى الملائكة ، «2» وحسب بنى آدم تفضيلا أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند اللّه منزلتهم.

---

(1) يلوذ ثعالب الشرقين منها كما لاذ الغريم من التبيع
الشماخ ، يصف عقابا تهرب منها ثعالب الشرقين ، وهو اسم موضع ، أو جهة الجنوب وجهة الشمال ، كالمشرقين ، كما لاذ : أى هرب والتجأ ، الغريم : أى المدين ، من التبيع : أى الدائن المطالب.
(2). قال محمود : «المراد فضلناهم على ما سوى الملائكة ... الخ» قال أحمد : وقد بلغ إلى حد من السفه يوجب الحد ، ولسنا لمساجلته إلا من حيث العلم ، لا من حيث السفه. والقدر الذي تختص به هذه الآية أن حمل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر. ألا ترى أنه ورد حمل القليل على العدم. والزمخشري يختار ذلك في قوله تعالى فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ وأشباهه كثير. وقد لمح الشاعر ذلك في قوله.
قليل بها الأصوات إلا بغامها
أى لا أصوات بها ، ولنا أن نبقيه على ما هو عليه ، ونقول : إن المخلوق قسمان : بنو آدم أحدهما وغيرهم من جميع المخلوقين القسم الآخر ، ولا شك أن غيرهم أكثر منهم وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيرا ، فمعنى قوله وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا أى على غيرهم من جميع المخلوقين ، وتلك الأغيار كثير بلا مراء ، وذلك مرادف لقولك : وفضلناهم على جميع من عداهم ممن خلقنا ، فظاهر الآية إذا مع الأشعرية الذين سماهم مجبرة ، وتمشدق في سبهم وشقشق العبارات في ثلهم ، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، واللّه ولى التوفيق والتسديد. [.....]

والعجب من المجبرة كيف عكسوا «1» في كل شيء وكابروا ، حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك ، وذلك بعد ما سمعوا تفخيم اللّه أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم ، وعلموا أين أسكنهم ، وأنى قربهم ، وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أممهم ، ثم جرّهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالا وأخبارا منها : قالت الملائكة «2» : ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك ، فأعطناه في الآخرة. فقال : وعزتي وجلالي ، لا أجعل ذرّية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان «3». ورووا عن أبى هريرة أنه قال : لمؤمن «4» أكرم على اللّه من الملائكة الذين عنده. ومن ارتكابهم أنهم فسروا كَثِيرٍ بمعنى «جميع» في هذه الآية ، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم : وفضلناهم على جميع ممن خلقنا ، على أن معنى قولهم «على جميع ممن خلقنا» أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم ، ولكنهم لا يشعرون.

---

(1). قوله «و العجب من المجبرة كيف عكسوا» يعنى أهل السنة. وقوله «تفضيل الإنسان» يعنون المؤمن.
ويدل لمذهبهم إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ وأما الذين كفروا فهم شر البرية ، ودعوى العكس من فرط التعصب للمعتزلة. (ع)
(2). قوله «قالت الملائكة ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا» صدره كما في الخازن : لما خلق اللّه آدم وذريته قالت الملائكة ، وقوله «خلقت بيدي» في الخازن : ونفخت فيه من روحي. (ع)

(3). أخرجه الطبراني في الأوسط من طريق محمد بن ماهان حدثنا طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الملائكة قالت رب أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون : ونحن نسبح بحمدك لا نأكل ولا نشرب ولا نلهو. فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال : لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له. كن فكان» قال : لم يروه عن صفوان إلا طلحة وأبو غسان تفرد به طلحة محمد بن ماهان. وعن أبى غسان حجاج الأعور أخرج طريق حجاج في المعجم الكبير ورجاله ثقات. وله شاهد عند عبد الرزاق في تفسيره عن معمر عن زيد بن أسلم قال قالت الملائكة فذكر نحوه موقوفا عليه. وقال الدارقطني في العلل : روى عبد المجيد بن أبى داود عن معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر. فذكر نحوه قال : ورواه شريح بن يونس عن عبد المجيد موقوفا. وهو أصح. وله شاهد آخر أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الأسماء والصفات من رواية عبد ربه بن صالح عن عروة بن رويح أنه سمعه يحدث عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال تعالى لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له : كن فكان» ومنها ما رواه عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال «لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده» البيهقي في الشعب من رواية حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة موقوفا. وأخرجه ابن ماجة من هذه الطريق موقوفا. وأبو المهزم متروك : وله شاهد أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من رواية عبيد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من بنى آدم. قيل : ولا الملائكة. قال : ولا الملائكة. الملائكة مجبورون كالشمس والقمر» قال البيهقي : تفرد به عبيد الله بن تمام يروى أحاديث معاوية وهو ضعيف.
(4). قوله «قال لمؤمن أكرم على من الملائكة» في الخازن : المؤمن. (ع)

فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملأ الأعلى ، كأنّ جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط ، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم «1»

[سورة الإسراء (17) : آية 71]

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (71)

قرئ : يدعو ، بالياء والنون. ويدعى كل أناس ، على البناء للمفعول. وقرأ الحسن : يدعوا كل أناس ، على قلب الألف واوا في لغة من يقول : افعوا. والظرف نصب بإضمار اذكر.

ويجوز أن يقال : إنها علامة الجمع ، كما في وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا والرفع مقدّر كما في : يدعى ، ولم يؤت بالنون ، قلة مبالاة بها ، لأنها غير ضمير ، ليست إلا علامة بِإِمامِهِمْ بمن ائتموا به من نبىّ أو مقدّم في الدين ، أو كتاب ، أو دين «2» ، فيقال : يا أتباع فلان ، يا أهل دين كذا وكتاب كذا. وقيل : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ، ويا أصحاب كتاب الشرّ. وفي قراءة الحسن : بكتابهم. ومن بدع التفاسير : أن الإمام جمع أمّ ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم ، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الاباء رعاية حق عيسى عليه السلام ، وإظهار شرف الحسن والحسين ، وأن لا يفتضح أولاد الزنا. وليت شعري أيهما أبدع؟ أصحة لفظه أم بهاء حكمته؟ فَمَنْ أُوتِيَ من هؤلاء المدعوّين كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ قيل أولئك ، لأن من أوتى في معنى الجمع.

فإن قلت : لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم؟ كأن أصحاب الشمال لا يقرؤن كتابهم. قلت : بلى ، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم ، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته ، والاعتراف بمساويه ، أما التنكيل به والانتقام منه ، من الحياء والخجل والانخزال ، وحبسة اللسان ، والتتعتع ، والعجز عن إقامة حروف الكلام ، والذهاب عن تسوية القول ، فكأن قراءتهم كلا قراءة. وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك ، لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم أحسن قراءة وأبينها ، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر : هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء ، كقوله وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ، فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً.

(1). قوله «فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم» في الصحاح «السخيمة» الضغينة والموجدة في النفس. (ع)
(2). قال محمود : «بإمامهم معناه بمن ائتموا به من نبى أو كتاب أو دين ... الخ» قال أحمد : ولقد استبدع بدعا لفظا ومعنى ، فان جمع الأم المعروف أمهات ، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمهات الخلائق ليذكر بأمه ، فيستدعى أن خلق عيسى من غير أب غميزة في منصبه ، وذلك عكس الحقيقة ، فان خلقه من غير أب كان آية له ، وشرفا في حقه ، والله أعلم.

[سورة الإسراء (17) : آية 72]

وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (72)

معناه : ومن كان في الدنيا أعمى ، فهو في الآخرة أعمى كذلك وَأَضَلُّ سَبِيلًا من الأعمى. والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته ، لمن لا يهتدى إلى طريق النجاة : أما في الدنيا فلفقد النظر. وأما في الآخرة ، فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه ، وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل «1». ومن ثم قرأ أبو عمرو الأوّل مما لا ، والثاني مفخما «2» ، لأن أفعل التفضيل تمامه بمن ، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلام «3» ، كقولك : أعمالكم وأما الأوّل فلم يتعلق به شيء ، فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 73 إلى 75]

وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73) وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (74) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (75)

روى أنّ ثقيفا قالت للنبي صلى اللّه عليه وسلم : لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب : لا نعشر ، ولا نحشر ، ولا نجبى «4» في صلاتنا ، وكل ربا لنا فهو لنا ، وكل ربا علينا فهو موضوع عنا ، وأن تمتعنا باللات سنة ، ولا نكسرها بأيدينا عند رأس الحول ، وأن تمنع من قصد وادينا وجّ فعضد شجره ، فإذا سألتك العرب : لم فعلت ذلك؟ فقل : إن اللّه أمرنى به ،

(1). عاد كلامه. قال : «و قد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل ... الخ» قال أحمد : أى لأنه من عمى القلب لا من عمي البصر ، فجاز أن ينبنى منه أفعل.
(2). عاد كلامه. قال : «و من ثم أمال أبو عمرو الأولى وفخم الثانية ... الخ» قال أحمد : يحتمل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى ، أى : فمن أوتى كتابه بيمينه فهو الذي يبصره ويقرؤه ، ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه ولا ناظر في معاده ، فهو في الآخرة كذلك غير مبصر في كتابه ، بل أعمى عنه أو أشد عمى مما كان في الدنيا على اختلاف التأويلين ، واللّه أعلم.
(3). قوله «الواقعة في وسط الكلام» لعله الكلمة ، كعبارة النسفي. (ع)
(4). قوله «لا نعشر ولا نحشر ولا نجبى» في الصحاح «التجبية» أن يقوم الإنسان قيام الراكع. وقال أبو عبيدة: تكون في حالين ، أحدهما : أن يضع يديه على ركبتيه ، والآخر ينكب على وجهه باركا وهو السجود ، وفيه «وجّ» بلد الطائف : وفيه أيضا : عضدت الشجر ، أى قطعته. (ع)

وجاءوا بكتابهم فكتب : بسم اللّه الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول اللّه لثقيف : لا يعشرون ولا يحشرون ، فقالوا : ولا يجبون. فسكت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم قالوا للكاتب : اكتب : ولا يجبون ، والكاتب ينظر إلى رسول اللّه ، فقام عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه فسل سيفه وقال : أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعر اللّه قلوبكم نارا ، فقالوا : لسنا نكلم إياك ، إنما نكلم محمدا «1». فنزلت. وروى أنّ قريشا قالوا له : اجعل آية رحمة آية عذاب ، وآية عذاب آية رحمة ، حتى نؤمن بك. فنزلت وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ إن مخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والمعنى : أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا لتقول علينا ما لم نقل ، يعنى ما أرادوه عليه من تبديل الوعد وعيدا والوعيد وعدا ، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى اللّه ما لم ينزله عليه وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ أى ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خَلِيلًا ولكنت لهم وليا وخرجت من ولايتى وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم ، وهذا تهييج من اللّه له وفضل تثبيت ، وفي ذلك لطف للمؤمنين إِذاً لو قاربت تركن اليهم أدنى ركنة لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ أي لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين. فإن قلت : كيف حقيقة هذا الكلام؟ قلت : أصله لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات ، لأن العذاب عذابان : عذاب في الممات وهو عذاب القبر ، وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار. والضعف يوصف به ، نحو قوله فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ بمعنى مضاعفا ، فكان أصل الكلام : لأذقناك عذابا ضعفا في الحياة ، وعذابا ضعفا في الممات «2».

(1). لم أجده. وذكره الثعلبي عن ابن عباس من غير سند.
(2). قال محمود : «المراد ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ... الخ» قال أحمد : أما تقليل الكيدودة فالذي ينبغي أن يحمل عليه كونه الواقع في علم اللّه تعالى ، لأن اللّه عز وجل يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فعلم تعالى أن الركون الذي كاد يحصل منه عليه السلام وإن كان ما حصل أمر قليل وخطب يسير ، فذلك إخبار من اللّه تعالى عن الواقع في علمه تقديرا ، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتنبيه. فان ذلك لا يكون في الاخبار.
ألا ترى أنه لو كان الواقع كيدودة ركون كثير ، لكان تقليله خلفا في الخبر ، ولا ينكر أن الذنب يعظم بحسب فاعله على ما ورد : حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأما نقل الزمخشري عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبائح إلى اللّه عز وجل ، فلقد استعظموا عظيما حق على كل مسلم أن يستفظعه ، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفا ذاتيا للقبيح ، فلزمهم على ذلك أن كل فعل استقبح من العبد استقبح من اللّه تعالى ، وهم غالطون في ذلك ، فمعنى كون الفعل قبحا أن اللّه تعالى نهى عنه عبده ، وإن كان للّه تعالى أن يفعله ، وهو حسن بالنسبة إليه لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ألا ترى أن الملك يصح منه أن يستقبح من عبده أن يجلس على كرسي الملك ، ونهاه عن ذلك ، ولا يستقبح ذلك من نفسه ، بل هو منه حسن جميل. ولقد كان لمشايخه شغل باستعظام ما لزمهم من الاشراك ، عن استعظام غيره مما هو توحيد محض وإيمان صرف ، ولكنهم زين لهم سوء اعتقادهم فرأوه حسنا ، واللّه الموفق.

ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف. ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل : ضعف الحياة وضعف الممات ، كما لو قيل : لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات. ويجوز أن يراد بضعف الحياة : عذاب الحياة الدنيا ، وبضعف الممات : ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار. والمعنى : لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا ، وما نؤخره لما بعد الموت. وفي ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين - دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته ، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد «1» رضوان اللّه عليهم نسبة المجبرة القبائح إلى اللّه - تعالى عن ذلك علوا كبيرا - وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة مضادة للّه وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله.

فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها ، فهي جديرة بالتدبر ، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين اللّه. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنها لما نزلت كان يقول : «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» «2»

[سورة الإسراء (17) : الآيات 76 إلى 77]

وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً (77)

وَإِنْ كادُوا وإن كاد أهل مكة لَيَسْتَفِزُّونَكَ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم مِنَ الْأَرْضِ من أرض مكة وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ لا يبقون بعد إخراجك إِلَّا زمانا قَلِيلًا فإن اللّه مهلكهم وكان كما قال ، فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل. وقيل : معناه ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم. ولم يخرجوه ، بل هاجر بأمر ربه. وقيل : من أرض العرب. وقيل : من أرض المدينة ، وذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم، فاجتمعوا إليه وقالوا : يا أبا القاسم ، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدّسة وكانت مهاجر إبراهيم ، فلو خرجت إلى الشام لآمنا بك واتبعناك ، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم ، فإن كنت رسول اللّه فاللّه مانعك منهم ، فعسكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أميال من المدينة وقيل بذي الحليفة ،

(1). قوله «و من ثم استعظم مشايخ العدل» يعنى المعتزلة. ويريد بالمجبرة : أهل السنة ، حيث قالوا : إن الخير والشر كلاهما من عند اللّه بخلقه وإرادته ، ولو كان من فعل العبد ظاهرا. (ع)
(2). لم أجده ، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلا [.....]

حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين «1» اللّه ، فنزلت ، فرجع. وقرئ : لا يلبثون. وفي قراءة أبىّ : لا يلبثوا على إعمال «إذا». فإن قلت : ما وجه القراءتين؟ قلت : أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل ، وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد ، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم. وأما قراءة أبىّ ففيها الجملة برأسها التي هي إذا لا يلبثوا ، عطف على جملة قوله وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ. وقرئ : خلافك «2». قال :

عفت الدّيار خلافهم فكأنّما بسط الشّواطب بينهنّ حصيرا «3»

أى بعدهم سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ، فسنة اللّه أن يهلكهم ، ونصبت نصب المصدر المؤكد ، أى : سن اللّه ذلك سنة.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 78 إلى 79]

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (79)

دلكت الشمس : غربت. وقيل : زالت. وروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «4» : أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس ، فصلى بى الظهر. واشتقاقه من الدلك ، لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها ، فإن كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس ، وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر. والغسق : الظلمة ، وهو وقت صلاة العشاء وَقُرْآنَ الْفَجْرِ صلاة الفجر ، سميت قرآنا وهو القراءة ، لأنها ركن ، كما سميت ركوعا وسجودا وقنوتا.

(1). لم أجده. وذكره السهيلي في الروض عن عبد المجيد بن بهرام بن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم «أن اليهود أتوا النبي صلى اللّه عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقا أنك نبى فالحق بالشام - فذكر نحوه ، لكن قال : فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك أنزل اللّه تعالى - فذكره - وزاد : وأمره بالرجوع «و قال : فيها محياك ومماتك ومنها تبعث».
(2). قوله «و قرئ خلافك» كانت القراءة التي سبق تفسيرها : خلفك. (ع)
(3). عفت : درست وهلكت ، خلافهم : أى بعدهم. والشواطب : النساء يشققن شطب النخل : أى سعفه الأخضر ، يعملنه حصيرا : بصف ديارهم بعدهم بدروسها وكثرة قمامتها لعدم كنسها.
(4). أخرجه البيهقي من طريق أيوب بن عتبة عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عروة عن ابن مسعود قال «جاء جبريل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم حين دلكت الشمس - يعنى حين زالت - فقال : قم فصل : فقام فصلى الظهر» قال إسحاق في مسنده : حدثنا بشر بن عمر حدثنا سليمان بن بلال حدثنا يحيى بن سعيد حدثني أبو بكر بن حزم عن ابن مسعود قال جاء جبريل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال له : قم فصل. وذلك لدلوك الشمس حين مالت. فقام فصلى الظهر أربعا ومن هذا الوجه أخرجه ابن مردويه. وهذا منقطع.

وهي حجة على ابن علية والأصم في زعمهما أن القراءة ليست بركن مَشْهُوداً يشهده ملائكة الليل والنهار ، ينزل هؤلاء ، ويصعد هؤلاء ، فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار. أو يشهده الكثير من المصلين في العادة. أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة. ويجوز أن يكون وَقُرْآنَ الْفَجْرِ حثا على طول القراءة في صلاة الفجر ، لكونها مكثورا عليها ، ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب ، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة وَمِنَ اللَّيْلِ وعليك بعض الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ والتهجد ترك الهجود للصلاة ، ونحوه التأثم والتحرّج. ويقال أيضا في النوم : تهجد نافِلَةً لَكَ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس ، وضع نافلة موضع تهجدا ، لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد. والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك ، لأنه تطوع لهم مَقاماً مَحْمُوداً نصب على الظرف ، أى : عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاما محمودا. أو ضمن يبعثك معنى يقيمك. ويجوز أن يكون حالا بمعنى أن يبعثك ذا مقام محمود. ومعنى المقام المحمود : المقام الذي يحمده القائم فيه ، وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات. وقيل : المراد الشفاعة ، وهي نوع واحد مما يتناوله. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : مقام يحمدك فيه الأولون والآخرون ، وتشرف فيه على جميع الخلائق : تسأل فتعطى ، وتشفع فتشفع ، ليس أحد إلا تحت لوائك. وعن أبى هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : هو المقام الذي أشفع فيه لأمّتى «1». وعن حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد ، فلا تتكلم نفس ، فأوّل مدعوّ محمد صلى اللّه عليه وسلم فيقول : «لبيك وسعديك والشرّ ليس إليك ، والمهدىّ من هديت ، وعبدك بين يديك وبك وإليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت» قال : فهذا قوله عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً «2».

(1). أخرجه أحمد وابن أبى شيبة والترمذي من طريق داود بن يزيد الأودى عن أبيه عن أبى هريرة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في قوله تعالى عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً وسئل عنه فقال : هي الشفاعة» وفي الباب عن أنس عند البخاري في التوحيد وعن ابن عمر عنده في الزكاة. وعن ابن مسعود عند النسائي والحاكم وله طريق آخر عند أحمد والحاكم مطولا. وعن كعب بن مالك عند الحاكم. وأصله عند مسلم وعن جابر عند أحمد والحاكم واختلف في وصله وإرساله على الزهري. عن على بن الحسين. وعن أبى سعيد عند الترمذي وابن ماجة وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن مردويه مطولا. وعن سعد بن أبى وقاص عند ابن مردويه من رواية محمد بن الحسن عن أبى حنيفة عن عبد العزيز بن ربيع عن مصعب بن سعد عن أبيه قال «سئل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن المقام المحمود فقال : هو الشفاعة»
(2). أخرجه النسائي والحاكم وابن أبى شيبة والطبري وأبو يعلى والبزار وأبو نعيم في ترجمة حذيفة في الحلية كلهم من طريق شعبة وإسرائيل كلاهما عن أبى إسحاق سمعت عتبة بن زفر يقول سمعت حذيفة يقول «يجمع الناس» فذكره.

[سورة الإسراء (17) : آية 80]

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (80)

قرئ : مدخل ومخرج بالضم والفتح : بمعنى المصدر. ومعنى الفتح : أدخلنى فأدخل مدخل صدق ، أى : أدخلنى القبر مدخل صدق : إدخالا مرضيا على طهارة وطيب من السيئات ، وأخرجنى منه عند البعث إخراجا مرضيا ، ملقى بالكرامة ، آمنا من السخط ، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث.

وقيل : نزلت حين أمر بالهجرة ، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة. وقيل : إدخاله مكة ظاهرا عليها بالفتح، وإخراجه منها آمنا من المشركين. وقيل : إدخاله الغار وإخراجه منه سالما. وقيل إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر - وهو النبوّة - وإخراجه منه مؤديا لما كلفه من غير تفريط. وقيل : الطاعة. وقيل : هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان سُلْطاناً حجة تنصرني على من خالفني ، أو ملكا وعزا قويا ناصرا للإسلام على الكفر مظهرا له عليه ، فأجيبت دعوته بقوله وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ ، لِيُظْهِرَهُ

[سورة الإسراء (17) : آية 81]

وَقُلْ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (81)

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما صنم كل قوم بحيالهم. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها ، فشكا البيت إلى اللّه عز وجل فقال : أى رب ، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك ، فأوحى اللّه إلى البيت : إنى سأحدث لك نوبة جديدة ،

(1). أخرجه الثعلبي بإسناده عن الكلبي. قال سُلْطاناً نَصِيراً عتاب بن أسيد. استعمله رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أهل مكة ، فذكره سواء. وأخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن خليفة الكلبي عن أبى صالح. عن ابن عباس. دون الحديث الذي في آخره.

فأملأك خدودا سجدا ، يدفون إليك دفيف النسور «1» ، يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها. لهم عجيج حولك بالتلبية. ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : خذ مخصرتك ثم ألقها ، فجعل يأتى صنما صنما وهو ينكت بالمخصرة في عينه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعا ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال : يا على ، ارم به، فحمله رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره ، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون : ما رأينا رجلا أسحر من محمد «2» صلى اللّه عليه وسلم. وشكاية البيت والوحى إليه : تمثيل وتخييل وَزَهَقَ الْباطِلُ ذهب وهلك ، من قولهم : زهقت نفسه ، إذا خرجت. والحق : الإسلام.

والباطل : الشرك كانَ زَهُوقاً كان مضمحلا غير ثابت في كل وقت.

[سورة الإسراء (17) : آية 82]

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَساراً (82)

وَنُنَزِّلُ قرئ بالتخفيف والتشديد مِنَ الْقُرْآنِ من للتبيين ، كقوله : من الأوثان.

أو للتبعيض ، أى : كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين ، يزدادون به إيمانا ، ويستصلحون به دينهم ، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه اللّه «3»» ولا يزداد به الكافرون إِلَّا خَساراً أى نقصانا لتكذيبهم به وكفرهم ، كقوله تعالى : فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 83 إلى 84]

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (83) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلاً (84)

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ بالصحة والسعة أَعْرَضَ عن ذكر اللّه ، كأنه مستغن عنه مستبدّ بنفسه وَنَأى بِجانِبِهِ تأكيد للإعراض ،

(1). قوله «يدفون إليك دفيف النسور» في الصحاح «الدفيف» الدبيب. وهو السير اللين ، وفيه «العج» رفع الصوت ، وقد عج يعج عجيجا. (ع)

(2). قال : لم أجده. وروى النسائي والحاكم من طريق ابن أبى مريم عن على. قال «انطلقت مع النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى أتينا الكعبة فقال لي اجلس فجلست. وصعد على منكبى فنهضت به. فذكر الحديث» وليس فيه أن ذلك كان في فتح مكة. ولا تلاوة الآية. وروى النسائي [كذا بالأصلين اه مصححه]
(3). أخرجه الثعلبي من طريق أحمد بن الحرث الغساني. حدثنا ساكنة بنت الجعد ، قالت : سمعت رجاء الغنوي يقول : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فذكره.

لأنّ الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه. والنأي بالجانب : أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره ، وأراد الاستكبار ، لأنّ ذلك من عادة المستكبرين وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل كانَ يَؤُساً شديد اليأس من روح اللّه إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ. وقرئ : وناء بجانبه ، بتقديم اللام على العين ، كقولهم «راء» في «رأى» ويجوز أن يكون من «ناء» بمعنى «نهض» قُلْ كُلٌّ أحد يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ أى على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة ، من قولهم «طريق ذو شواكل» وهي الطرق التي تتشعب منه ، والدليل عليه قوله فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلًا أى أسدّ مذهبا وطريقة.

[سورة الإسراء (17) : آية 85]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان. سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر اللّه ، أى مما استأثر بعلمه. وعن ابن أبى بريدة. لقد مضى النبي صلى اللّه عليه وسلم وما يعلم الروح «1».

وقيل : هو خلق عظيم روحانى أعظم من الملك. وقيل : جبريل عليه السلام. وقيل : القرآن.

ومِنْ أَمْرِ رَبِّي أى من وحيه وكلامه ، ليس من كلام البشر ، بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبىّ ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبىّ ، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة ، فندموا على سؤالهم «2» وَما أُوتِيتُمْ الخطاب أم أنت معناه فيه؟ فقال : بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلا ، فقالوا : ما أعجب شأنك : ساعة تقول وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وساعة تقول هذا «3» ، فنزلت : وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وليس ما قالوه بلازم ،

(1). ذكره الواحدي في الوسيط عن عبد اللّه بن بريدة بهذا في حديث لم يسبق إسناده
(2). لم أجده هكذا. وذكره ابن هشام في السيرة عن زياد عن أبى إسحاق. وكذا أخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه «أن أهل مكة بعثوا رهطا منهم إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقالوا لهم سلوه عن ثلاث ، فإذا عرفها فهو نبى : سلوه عن أقوام ذهبوا في الأرض فلم يدر ما صنعوا ... القصة بطولها»
(3). ذكره الثعلبي في تفسير لقمان بغير سند ولا راو. وروى ابن مردويه من طريق على بن عاصم عن داود ابن أبى هند عن عكرمة. لا أعلمه إلا عن ابن عباس. قال «لما نزلت هذه الآية وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا قالت اليهود : أوتينا علما كثيرا. أوتينا التوراة ومن يؤت التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا. فأنزل اللّه تعالى قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ.

لأنّ القلة والكثرة تدوران مع الإضافة ، فيوصف الشيء بالقلة مضافا إلى ما فوقه ، وبالكثرة مضافا إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها ، إلا أنها إذا أضيفت إلى علم اللّه فهي قليلة. وقيل : هو خطاب لليهود خاصة ، لأنهم قالوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم : قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة ، وقد تلوت وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً فقيل لهم : إن علم التوراة قليل في جنب علم اللّه.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 86 إلى 87]

وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلاً (86) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (87)

لَنَذْهَبَنَّ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط. واللام الداخلة على إن موطئة للقسم. والمعنى : إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثرا وبقيت كما كنت لا تدرى ما الكتاب ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بعد الذهاب بِهِ من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظا مستورا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك ، كأن رحمته تتوكل عليه بالرد ، أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى : ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به ، وهذا امتنان من اللّه تعالى ببقاء القرآن محفوظا بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه ،

[سورة الإسراء (17) : آية 88]

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(88)
لا يَأْتُونَ جواب قسم محذوف ، ولولا اللام الموطئة ، لجاز أن يكون جوابا للشرط ، كقوله :

(1). أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبراني ، وأخرجه ابن أبى شيبة وابن مردويه كلهم من طريق شداد بن معقل عن عبد اللّه بن مسعود وزاد في آخره ثم قرأ عبد اللّه وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ. [.....]

يقول لا غائب مالى ولا حرم «1» لأن الشرط وقع ماضيا ، أى : لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه ، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله ، والعجب من النوابت «2» ومن زعمهم أن القرآن قديم «3» مع اعترافهم بأنه معجز «4» ، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة ، فيقال : اللّه قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه. وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثانى القديم ، فلا يقال للفاعل : قد عجز عنه ، ولا هو معجز. ولو قيل ذلك لجاز وصف اللّه بالعجز ، لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال ، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال ، فإن رأس ما لهم «5» المكابرة وقلب الحقائق.

[سورة الإسراء (17) : آية 89]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (89)

وَلَقَدْ صَرَّفْنا ردّدنا وكرّرنا مِنْ كُلِّ مَثَلٍ من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه.

والكفور : الجحود. فإن قلت : كيف جاز فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ولم يجوز ضربت إلا زيدا؟ قلت : لأن أبى متأوّل بالنفي ، كأنه قيل : فلم يرضوا إلا كفورا.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 90 إلى 93]

وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (93)

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 537 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قوله «النوابت» في الصحاح «النوابت من الأحداث» الأغمار. وفيه : رجل غمر : لم يجرب. (ع)
(3). قال محمود : «و العجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز ... الخ» قال أحمد :
ومما يدلك على حيد المصنف عن سنن المنصف أنه تدلس على الضعفة في مثل هذه المسألة التي طبقت طبق الأرض ظهورا وشيوعا ، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم ، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات الباري تعالى ، يطلق عليها قرآن ، ويطلق أيضا على أدلتها وهي هذه الكلمات الفصيحة والآي الكريمة قرآن ، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول ، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين. أحدهما : أنه إطلاق موهم. والثاني : أن السلف الصالح كفوا عنه فاقتفوا آثارهم واقتبسوا أنوارهم.
وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده ، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق ، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمتعنت بالزامه ، واللّه يقول الحق وهو يهدى السبيل.
(4). قوله «و من زعمهم أن القرآن قديم» يريد بهم أهل السنة حيث يقولون : إن القرآن قديم ، لكن لا بمعنى اللفظ الذي يسمعه بعضنا من بعض ، فان هذا حادث بل بمعنى كلام اللّه الذي هو صفة له قائمة بذاته تعالى ، فهذا هو القديم ، كعلمه تعالى وإرادته. (ع)
(5). قوله «فان رأس ما لهم المكابرة» ليس كما قال غفر اللّه له ، بل رأس ما لهم التمسك بالكتاب والسنة ، وتحرى الحقائق. (ع)

لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا ، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات : فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة ، فقالوا : لن نؤمن لك حتى ... وحتى تَفْجُرَ تفتح. وقرئ : تفجر ، بالتخفيف مِنَ الْأَرْضِ يعنون أرض مكة يَنْبُوعاً عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع : «يفعول» من نبع الماء ، كيعبوب من عب الماء كَما زَعَمْتَ يعنون قول اللّه تعالى إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ. قرئ : كسفا ، بسكون السين جمع كسفة ، كسدرة وسدر. وبفتحه قَبِيلًا كفيلا بما تقول شاهدا بصحته. والمعنى : أو تأتى باللّه قبيلا ، وبالملائكة قبيلا ، كقوله :

... كنت منه ووالدي بريّا «1» ...

فإنّى وقيّار بها لغريب «2»

أو مقابلا ، كالعشير بمعنى المعاشر ، ونحوه لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا أو جماعة حالا من الملائكة مِنْ زُخْرُفٍ من ذهب فِي السَّماءِ في معارج السماء ، فحذف المضاف.

يقال : رقى في السلم وفي الدرجة وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ولن نؤمن لأجل رقيك حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً من السماء فيه تصديقك.

(1) رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريا ومن جول الطوى رمانى
للفرزدق. يقول : قذفني بأمر أنا بريء منه ووالدي ، فكان : مجردة عن المضي ، وحذف خبر الوالد للدلالة عليه ، والعطف من عطف الجمل. وبريا : في نية التقديم ، فلم يلزم تقدم شيء من المعطوف عليه على المعطوف : هذا رأى الجمهور. وأجاز بعضهم أن «والدي» عطف على اسم كان ، فيكون «بريا» خبره ، وخبر اسمها محذوفا أو بالعكس ، والعطف من عطف المفردات. ويجوز أن «بريا» خبر عنهما ، لأن فعيلا يقال للواحد والمتعدد ، لموازنته المصدر :
كصهيل وضجيج ونحيب ونسيب ، وإن كان استعماله كذلك بمعنى فاعل قليلا. وجول الطوى - بالضم - : جانب البئر المطوى. والمعنى : أنه رمانى بأمر يرجع عليه هو ، كأنه رمانى وهو في أسفل البئر بحجر فيرجع عليه ، كناية عن مكافأته بأمر أعظم مما رماه به. ويجوز أن الأمر الذي رماه به متصف به الرامي ، وهو أنسب بالتشبيه.
ويروى ومن أجل الطوى. فليحرر.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 629 فراجعه إن شئت اه مصححه.

عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : قال عبد اللّه بن أبى أمية : لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلما. ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك بصك منشور ، معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد واللجاج ، ولو جاءتهم كل آية لقالوا : هذا سحر ، كما قال عز وجل وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ ، وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ وحين أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه - بل هي أعظم - لم يكن إلى تبصرتهم سبيل قُلْ سُبْحانَ رَبِّي وقرئ : قال سبحان ربى ، أى قال الرسول. وسُبْحانَ رَبِّي تعجب من اقتراحاتهم عليه هَلْ كُنْتُ إِلَّا رسولا كسائر الرسل بَشَراً مثلهم ، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره اللّه عليهم من الآيات ، فليس أمر الآيات إلىّ ، وإنما هو إلى اللّه فما بالكم تتخيرونها علىّ.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 94 إلى 95]

وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلاَّ أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (94) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (95)

أَنْ الأولى نصب مفعول ثان لمنع. والثانية رفع فاعل له. والْهُدى الوحى ، أى : وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم إلا شبهة تلجلجت في صدورهم ، وهي إنكارهم أن يرسل اللّه البشر. والهمزة في أَبَعَثَ اللَّهُ للإنكار ، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند اللّه ، لأن قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحى إلا إلى أمثاله ، أو إلى الأنبياء ، ثم قرر ذلك بأنه لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ على أقدامهم كما يمشى الإنس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء «1» فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه مُطْمَئِنِّينَ ساكنين في الأرض قارّين لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا يعلمهم الخير ويهديهم المراشد. فأما الإنس فما هم بهذه المثابة ، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة ، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم. فإن قلت : هل يجوز أن يكون بشرا وملكا ، منصوبين على الحال من رسولا؟ قلت : وجه حسن ، والمعنى له أجوب.

[سورة الإسراء (17) : آية 96]

قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (96)

(1). قال محمود : «معناه لو كانوا يمشون مشى الانس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء ... الخ» قال أحمد :
وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدر ، وهو قول القائل : إن مجرد وجود الملائكة في الأرض يناسب إرسال الملك إليهم ، فما فائدة هذه الزيادة؟ فيكون جوابه ما تقدم ، والله الموفق.

شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ على أنى بلغت ما أرسالات به إليكم ، وأنكم كذبتم وعاندتم إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ المنذرين والمنذرين خَبِيراً عالما بأحوالهم ، فهو مجازيهم. وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفرة. وشهيدا : تمييز أو حال.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 97 إلى 98]

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (97) ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (98)

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ ومن يوفقه ويلطف به فَهُوَ الْمُهْتَدِي لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه وَمَنْ يُضْلِلْ ومن يخذل فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ أنصارا. عَلى وُجُوهِهِمْ كقوله : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يمشون على وجوههم قال : «إن الذي أمشاهم على أقدامهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم»» عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا كما كانوا في الدنيا ، لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامّون عن استماعه ، فهم في الآخرة كذلك : لا يبصرون ما يقرّ أعينهم ، ولا يسماعون ما يلذ مسامعهم «2» ولا ينطقون بما يقبل منهم. ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى. ويجوز أن يحشروا مؤفى الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب ، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤن ويتكلمون كُلَّما خَبَتْ كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفنتها فسكن لهبها ، بدلوا غيرها ، فرجعت ملهبة مستعرة ، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها ، لا يزالون على الإفناء والإعادة ، ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث ، ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد ، وقد دل على ذلك بقوله ذلِكَ جَزاؤُهُمْ إلى قوله أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً.

(1). أخرجه الترمذي وأحمد وإسحاق والبزار من حديث أبى هريرة بهذا في حديث. وفيه على بن مرثد وهو ضعيف. قال البزار لا نعلمه من حديث أبى هريرة إلا بهذا الاسناد. ورواه ابن مردويه من رواية أبى داود نفيع عن أنس مثله. وأصله في الصحيحين عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه؟
قال : «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»؟.
(2). قوله «و لا يسماعون ما يلذ مسامعهم» الذي في الصحاح : لذذت الشيء - بالكسر - : وجدته لذيذا. (ع)

[سورة الإسراء (17) : آية 99]

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (99)

فإن قلت : علام عطف قوله وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا؟ قلت : على قوله أَوَ لَمْ يَرَوْا لأن المعنى قد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس ، لأنهم ليسوا بأشد خلقا منهن كما قال : أأنتم أشد خلقا أم السماء وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ وهو الموت أو القيامة ، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحودا.

[سورة الإسراء (17) : آية 100]

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (100)

لَوْ حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء ، فلا بد من فعل بعدها في لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ وتقديره لو تملكون ، فأضمر تملك إضمارا على شريطة التفسير ، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل ، وهو أنتم ، لسقوط ما يتصل به من اللفظ ، فأنتم : فاعل الفعل المضمر ، وتملكون : تفسيره! وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب. فأمّا ما يقتضيه علم البيان ، فهو : أنّ أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص ، وأنّ الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ، ونحوه قول حاتم :

لو ذات سوار لطمتنى

وقول المتلمس :

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى «1»

وذلك لأنّ الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر ، وبرز الكلام في صورة المبتدإ والخبر. ورحمة اللّه : رزقه وسائر نعمه على خلقه ، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم.

وقيل : هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها ، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها قَتُوراً ضيقا بخيلا. فإن قلت : هل يقدر لَأَمْسَكْتُمْ مفعول؟

قلت : لا ، لأن معناه : لبخلتم ، من قولك للبخيل : ممسك.

(1) ولو غير إخوانى أرادوا نقيصتى جعفت لهم فوق العرانين ميسما
وهل كنت إلا مثل قاطع كفه بكف له أخرى عليه تقدما
للمتلمس خال طرفة بن العبد ، و«لو» من حروف الشرط ، فمتى كان في حيزها فعل فهي أحق به ، فغير إخوانى فاعل لمحذوف يفسره المذكور ، أى : ولو أراد غير إخوانى. ويروى : أخوالى ، نقيصتى : أى ظلمى ، لوسمتهم بالذل وسما ظاهرا ، كأنه فوق الأنوف ، وخصها لأنها لا تخفى. والميسم : آلة الوسم بالنار ، والمراد أثره وهو السمة.
وهل : استفهام إنكارى ، أى : لو كافأت إخوانى لا أكون إلا مثل من قطع كفه بكفه الأخرى ، والكف يذكر ويؤنث ، فلذلك وصفه بأنه تقدم على الكف الآخر واعتدى عليه ووصفه بأخرى. والمقابلة بين الكفين تؤيد رواية إخوانى بالنون.

[سورة الإسراء (17) : آية 101]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً(101)

عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هي العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والحجر ، والبحر ، والطور الذي نتقه على بنى إسرائيل. وعن الحسن : الطوفان ، والسنون ، ونقص الثمرات : مكان الحجر ، والبحر ، والطور. وعن عمر بن عبد العزيز أنه سأل محمد بن كعب فذكر اللسان والطمس «1» ، فقال له عمر : كيف يكون الفقيه إلا هكذا ، أخرج يا غلام ذلك الجراب ، فأخرجه فنفضه ، فإذا بيض مكسور بنصفين ، وجوز مكسور ، وفوم «2» وحمص وعدس ، كلها حجارة. وعن صفوان بن عسال أنّ بعض اليهود سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن ذلك فقال : أوحى اللّه إلى موسى : أن قل لبنى إسرائيل : لا تشركوا باللّه شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم اللّه إلا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببريء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تفرّوا من الزحف ، وأنتم يا يهود خاصة لا تعدوا في السبت «3» فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ فقلنا له : سل بنى إسرائيل ، أى : سلهم من فرعون «4» وقل له : أرسل معى بنى إسرائيل. أو سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم. أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك. وتدلّ عليه قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : فسال بنى إسرائيل ، على لفظ الماضي بغير همز ، وهي لغة قريش. وقيل : فسل يا رسول اللّه المؤمنين من بنى إسرائيل ، وهم عبد اللّه بن سلام وأصحابه عن الآيات ليزدادوا يقينا وطمأنينة قلب ، لأن الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت ، كقول إبراهيم وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي. فإن قلت : بم تعلق إِذْ جاءَهُمْ؟ قلت : أمّا على الوجه الأول فبالقول المحذوف ، أى فقلنا لهم سلهم حين جاءهم ، أو بسأل في القراءة الثانية. وأمّا على الأخير فبآتينا. أو بإضمار اذكر ، أو يخبروك. ومعنى إِذْ جاءَهُمْ إذ جاء آباءهم مَسْحُوراً سحرت فخولط عقلك.

(1). قوله «فذكر اللسان والطمس» لعله العقدة التي كانت بلسانه فحلها كما عده الخازن. وأما الطمس : فهو إجابة دعائه في قوله رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ ويشير إلى ذلك ذكر ما في الجواب. (ع)

(2). قوله «و فوم» في الصحاح «الفوم» الثوم. ويقال له : الحنطة. (ع)
(3). أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم. وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبراني : كلهم من رواية عبد اللّه بن سلام عن صفوان بن عسال أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله : فقال لا تقل له نبى فان سمعك صارت له أربعة أعين. فأتيا النبي صلى اللّه عليه وسلم فسألاه. فذكر الحديث. ولم يقل أحد منهم «أوحى إلى موسى أن قل لبنى إسرائيل» والباقي سواء، عبد اللّه بن سلام كبر فساء حفظه وكان المسئول عنه العشر كلمات ، لأن عددها عشرة لا التسع آيات. لأن العشر وصايا كهذه، والتسع حجج على فرعون وقومه. [.....]
(4). قوله «سلهم من فرعون» يعنى اطلبهم منه. (ع)

[سورة الإسراء (17) : الآيات 102 إلى 104]

قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (102) فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (103) وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (104)

لَقَدْ عَلِمْتَ يا فرعون ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ الآيات إلا اللّه عز وجل بَصائِرَ بينات مكشوفات ، ولكنك معاند مكابر : ونحوه : وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا وقرئ «علمت» بالضم ، على معنى : إنى لست بمسحور كما وصفتني ، بل أنا عالم بصحة الأمر.

وأنّ هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض. ثم قارع ظنه بطنه ، كأنه قال : إن ظننتني مسحورا فأنا أظنك مَثْبُوراً هالكا ، وظنى أصح من ظنك ، لأن له أمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ، ومكابرتك لآيات اللّه بعد وضوحها. وأما ظنك فكذب بحت ، لأن قولك مع علمك بصحة أمرى ، إنى لأظنك مسحورا قول كذاب. وقال الفرّاء : مَثْبُوراً مصروفا عن الخير مطبوعا على قلبك ، من قولهم : ما ثبرك عن هذا؟ أى : ما منعك وصرفك؟

وقرأ أبىّ بن كعب : وإن إخالك يا فرعون لمثبورا ، على : إن المخففة واللام الفارقة فَأَرادَ فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها ، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال ، فحاق به مكره بأن استفزه اللّه بإغراقه مع قبطه اسْكُنُوا الْأَرْضَ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ يعنى قيام الساعة جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً جمعا مختلطين إياكم وإياهم ، ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم : واللفيف : الجماعات من قبائل شتى.

[سورة الإسراء (17) : آية 105]

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (105)

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله ، وما نزل إلا ملتبسا بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير. أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظا بالرصد من الملائكة ، وما نزل على الرسول إلا محفوظا بهم من تخليط الشياطين وَما أَرْسَلْناكَ إلا لتبشرهم بالجنة وتنذرهم من النار ، ليس إليك وراء ذلك شيء ، من إكراه على الدين أو نحو ذلك.

[سورة الإسراء (17) : آية 106]

وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً (106)

وَقُرْآناً منصوب بفعل يفسره فَرَقْناهُ وقرأه أبىّ : فرّقناه ، بالتشديد ، أى : جعلنا نزوله مفرّقا منجما. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه أنه قرأ مشدّدا وقال : لم ينزل في يومين أو ثلاثة ، بل كان بين أوّله وآخره عشرون سنة ، يعنى : أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب «على مكث» بالفتح والضم : على مهل وتؤدة وتثبت وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا على حسب الحوادث.

[سورة الإسراء (17) : الآيات 107 إلى 109]

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (107) وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (109)

قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه ، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدّقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيرا منهم وأفضل - وهم العلماء الذين قرءوا الكتب وعلموا ما الوحى وما الشرائع - قد آمنوا به وصدّقوه ، وثبت عندهم أنه النبي العربىّ الموعود في كتبهم ، فإذا تلى عليهم خرّوا سجدا وسبحوا اللّه تعظيما لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشربه من بعثة محمد صلى اللّه عليه وسلم وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد في قوله إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا ..... وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً أى يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين - فإن قلت : إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ تعليل لما ذا؟ قلت : يجوز أن يكون تعليلا لقوله آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا وأن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتطييب نفسه ، كأنه قيل : تسلّ عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء. وعلى الأوّل : إن لم تؤمنوا به لقد آمن «1» به من هو خير منكم. فإن قلت : ما معنى الخرور للذقن؟ قلت : السقوط على الوجه ، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين ، لأنّ الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن. فإن قلت : حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال : فخرّ صريعا لليدين وللفم «2»

(1). قوله «لقد آمن» لعله «فقد». (ع)
(2) فيوم الكلاب قد أزالت رماحنا شرحبيل إذ آلى آلية مقسم
لينتزعن أرماحنا فأزاله أبو حنش عن ظهر شنقاء صلدم
تناوله بالرمح ثم انثنى له فخر صريعا لليدين وللفم
لجابر الثعلبي. وقيل : البيت الثالث لشريح العبسي. وقيل : لزهير. والكلاب بالضم اسم موضع الواقعة. وآلي :
أى حلف. والشنقاء : الطويلة من الخيل ، والصلدم - بكسر المهملتين - : القوية. ويروى : ثم اثنى له. وأصله :
انثنى ، فأدغمت النون بعد قلبها ثاء في الثاء. ولو قرئ : ثم ائتني ، من أتانى وتمهل لجاز. ويروى : دلفت له بالرمح من تحت بزه.
ويروى : شققت له بالرمح جيب قميصه. ولعل اختلاف الروايات لاختلاف القائل. والتناول :
الأخذ ، فالمعنى : لحقه فطعنه بالرمح ، كأنه أخذه ، ثم انثنى له : أى طعنه مرة أخرى ، فسقط مطروحا ، وجعل ذلك ليديه وفمه ، لأنها التي يستقبل بها الأرض أولا حين سقوطه على وجهه ، واللام هنا بمعنى على كما ذكره النحاة ، وإن أنكره النحاس. ودلف دلفا كتعب تعبا : إذا تقدم بسرعة وقارب بين خطاه. وجيب قميصه : كناية عن صدره ، لأنه إذا شق طوق القميص بالرمح فقد شق الصدر.

قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به ، لأن اللام للاختصاص. فإن قلت : لم كرّر يخرون للأذقان؟ قلت : لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين ، وخرورهم في حال كونهم باكين.

[سورة الإسراء (17) : آية 110]

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (110)

عن ابن عباس رضى اللّه عنهما سمعه أبو جهل يقول : يا اللّه يا رحمن ، فقال : إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعوا إلها آخر. وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر اللّه في التوراة هذا الاسم فنزلت. والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء ، وهو يتعدّى إلى مفعولين ، تقول : دعوته زيدا ، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال : دعوت زيدا. واللّه والرحمن ، المراد بهما الاسم لا المسمى. وأو للتخيير ، فمعنى ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ سموا بهذا الاسم أو بهذا ، واذكروا إما هذا وإما هذا. والتنوين في أَيًّا عوض من المضاف إليه. وما صلة للإبهام المؤكد لما في أىّ ، أى : أىّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى والضمير في فَلَهُ ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين ، ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى ، لأن التسمية للذات لا للاسم. والمعنى : أياما تدعوا فهو حسن ، فوضع موضعه قوله فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان : لأنهما منها ، ومعنى كونهما أحسن الأسماء. أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم بِصَلاتِكَ بقراءة صلاتك على حذف المضاف ، لأنه لا يلبس ، من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير ، والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يرفع صوته بقراءته ، فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا ، فأمر بأن يخفض من صوته ، والمعنى : ولا تجهر حتى تسمع المشركين وَلا تُخافِتْ حتى لا تسمع من خلفك وَابْتَغِ بَيْنَ الجهر المخافتة سَبِيلًا وسطا. وروى أنّ أبا بكر رضى اللّه عنه

[سورة الإسراء (17) : آية 111]

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (111)
فإن قلت : كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد «2»؟ قلت : لأنّ من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة ، فهو الذي يستحق جنس الحمد ، وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية «3».

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة بنى إسرائيل فرقّ قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة ، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية». رزقنا اللّه بفضله العميم وإحسانه الجسيم.

---

(1). أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم من رواية يحيى بن إسحاق السليحيني عن حماد عن ثابت عن عبد اللّه بن رباح عن أبى قتادة بمعناه. وليس فيه قوله «قد علم حاجتي» وفيه أن كلام كل منهما كان لما سأله النبي صلى اللّه عليه وسلم عن ذلك. قال الترمذي. رواه أكثر الناس فلم يذكروا أبا قتادة. وقال ابن أبى حاتم عن أبه لفظا فيه يحيى بن إسحاق والصواب مرسلا ، وفي الباب عن على أخرجه البيهقي في الشعب. وعن أبى هريرة أخرجه أبو داود من رواية محمد بن عمر. وعن أبى سلمة عنه مختصرا. وأخرجه الطبري من رواية محمد بن سيرين قال «نبئت أن أبا بكر فذكره» وقال فيه : أناجى ربى وقد علم حاجتي»
(2). قال محمود : «إن قلت : كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك ... الخ» قال أحمد : وقد لاحظ الزمخشري هاهنا ما أغفله عند قوله تعالى الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ وقد رددت هذا الوجه فيما تقدم ، بأن هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد ولا تناسبها ، فإنك لو قلت ابتداء : الحمد للّه الذي الذين كفروا به يعدلون ، لم يكن مناسبا ، واللّه أعلم.
(3). أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق. قالا أخبرنا ابن عيينة عن عبد الكريم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

سورة الكهف

(مكية [إلا آية 38 ومن آية 83 إلى غاية آية 101 فمدنية] وآياتها 110 [نزلت بعد الغاشية])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكهف (18) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (1) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (2) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (3) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (4) ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (5)

لقن اللّه عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام ، وما أنزل على عبده محمد صلى اللّه عليه وسلم من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ولم يجعل له شيئا من العوج قط ، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان ، والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه ، وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه. فإن قلت : بم انتصب قَيِّماً؟ قلت : الأحسن أن ينتصب بمضمر ولا يجعل حالا من الكتاب ، لأنّ قوله وَلَمْ يَجْعَلْ معطوف على أنزل ، فهو داخل في حيز الصلة ، فجاعله حالا من الكتاب فاصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة ، وتقديره : ولم يجعل له عوضا جعله قيما ، لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة. فإن قلت : ما فائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة ، وفي أحدهما غنى عن الاخر؟ قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السير والتصفح. وقيل : قيما على سائر الكتب مصدقا لها ، شاهدا بصحتها. وقيل : قيما بمصالح العباد وما لا بدّ لهم منه من الشرائع. وقرئ قيما.

«أنذر» متعدّ إلى مفعولين ، كقوله نَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً

فاقتصر على أحدهما ، وأصله لِيُنْذِرَ الذين كفروا بَأْساً شَدِيداً والبأس من قوله بِعَذابٍ بَئِيسٍ وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأسا وبآسة مِنْ لَدُنْهُ صادرا من عنده. وقرئ : من لدنه ، بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون وَيُبَشِّرَ بالتخفيف والتثقيل. فإن قلت : لم اقتصر على أحد مفعولي أنذر؟ قلت : قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه ، فوجب الاقتصار عليه.

والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً متعلقا بالمنذرين من غير ذكر المنذر به ، كما ذكر المبشر به في قوله أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً استغناء بتقدّم ذكره.

والأجر الحسن : الجنة ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ أى بالولد أو باتخاذه ، يعنى أنّ قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء ، وقد اشتملته «1» آباؤهم من الشيطان وتسويله.

فإن قلت : اتخاذ اللّه ولدا في نفسه محال ، فكيف قيل : ما لهم به من علم «2»؟ قلت : معناه ما لهم به من علم ، لأنه ليس مما يعلم لاستحالته ، وانتفاء العلم بالشيء إمّا للجهل بالطريق الموصل إليه ، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به. قرئ : كبرت كلمة ، وكلمة : بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية ، والنصب أقوى وأبلغ. وفيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أكبرها كلمة.

وتَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدّثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوّهوا به ويطلقوا به ألسنتهم ، بل يكظمون عليه تشوّرا «3» من إظهاره ، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ كبرت بسكون الباء مع إشمام الضمة. فإن قلت : إلام يرجع الضمير في كبرت؟ قلت : إلى قولهم اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها.

[سورة الكهف (18) : آية 6]

فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (6)

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم ، برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفا على فراقهم.

(1). قوله «و قد اشتملته» لعله : استملته ، بإهمال السين وسكون الميم. (ع)
(2). قال محمود : «إن قلت اتخاذ اللّه ولدا في نفسه محال فكيف قيل لهم ... الخ» قال أحمد : قد مضى له في قوله تعالى وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً أن ذلك وارد على سبيل التهكم ، وإلا فلا سلطان على الشرك حتى ينزل. ونظيره :
ولا يرى الضب بها ينجحر
وقد قدمت حينئذ أن الكلام وارد على سبيل الحقيقة والأصل ، وأن نفى إنزال السلطان تارة يكون لاستحالة إنزاله ووجوده ، وتارة يكون ، لأنه لم يقع وإن كان ممكنا ، واللّه أعلم.
(3). قوله «تشورا من إظهاره» أى تباعدا من إظهاره ، كأنه عورة. وفي الصحاح «الشوار» الفرج.
ومنه قيل : شور به ، كأنه أبدى عورته. (ع)

وقرئ : باخع نفسك ، على الأصل ، وعلى الإضافة : أى قاتلها ومهلكها ، وهو للاستقبال فيمن قرأ : إن لم يؤمنوا. وللمضى فيمن قرأ : أن لم يؤمنوا ، بمعنى : لأن لم يؤمنوا بِهذَا الْحَدِيثِ بالقرآن أَسَفاً مفعول له ، أى : لفرط الحزن. ويجوز أن يكون حالا.

والأسف : المبالغة في الحزن والغضب. يقال : رجل أسف وأسيف.

[سورة الكهف (18) : الآيات 7 إلى 11]

إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (7) وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (8) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (10) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (11)

ما عَلَى الْأَرْضِ يعنى ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وحسن العمل : الزهد فيها وترك الاغترار بها ، ثم زهد في الميل إليها بقوله وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها من هذه الزينة صَعِيداً جُرُزاً يعنى مثل أرض بيضاء لا نبات فيها ، بعد أن كانت خضراء معشبة ، في إزالة بهجته ، وإماطة حسنه ، وإبطال ما به كان زينة : من إماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار ، ونحو ذلك ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض مما خلق «1» فوقها من الأجناس التي لا حصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن، ثم قال أَمْ حَسِبْتَ يعنى أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدّة طويلة. والكهف : الغار الواسع في الجبل وَالرَّقِيمِ اسم كلهم. قال أمية ابن أبى الصلت :

وليس بها إلّا الرّقيم مجاورا وصيدهم والقوم في الكهف همّد «2»

وقيل : هو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم جعل على باب الكهف. وقيل : إن الناس رقموا حديثهم نقرا في الجبل. وقيل : هو الوادي الذي فيه الكهف. وقيل : الجبل. وقيل : قريتهم.

(1). قوله «مما خلق» لعله بما «خلق». (ع)
(2). لأمية بن أبى الصلت ، والرقيم : كلب أصحاب الكهف. والوصيد : فناء البيت وبابه وعتبته ، والبيت يحتملها. والهمد : جمع هامد ، أى : راقد. والقوم : عطف على الرقيم. ويقول : ليس في تلك الصحراء إلا الكلب حال كونه مجاورا لفناء غارهم ، وإلا القوم حال كونهم رقودا في الكهف : أى الغار.

وقيل : مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين كانُوا آية عَجَباً من آياتنا وصفا بالمصدر ، أو على : ذات عجب مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً أى رحمة من خزائن رحمتك ، وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا الذي نحن عليه من مفارقة الكفار رَشَداً حتى تكون بسببه راشدين مهتدين ، أو اجعل أمرنا رشدا كله ، كقولك : رأيت منك أسدا فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ أى ضربنا عليها حجابا من أن تسمع ، يعنى : أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات ، كما ترى المستثقل في نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه ، فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال : بنى على امرأته ، يريدون : بنى عليها القبة سِنِينَ عَدَداً ذوات عدد ، فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد

[سورة الكهف (18) : آية 12]

ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (12)

أَيُّ يتضمن معنى الاستفهام ، فعلق عنه لِنَعْلَمَ فلم يعمل فيه. وقرئ ، ليعلم ، وهو معلق عنه أيضا ، لأن ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد «يعلم» إليه ، وفاعل «يعلم» مضمون الجملة ، كما أنه مفعول «نعلم» أَيُّ الْحِزْبَيْنِ المختلفين منهم في مدّة لبثهم ، لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك ، وذلك قوله قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم : هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول. أو أى الحزبين المختلفين من غيرهم ، وأَحْصى فعل ماض أى أيهم ضبط «1» أَمَداً لأوقات لبثهم.

فإن قلت : فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرّد ليس بقياس ، ونحو «أعدى من الجرب» ، و«أفلس من ابن المذلق» شاذ. والقياس على الشاذ في غير القرآن ممتنع ، فكيف به؟ ولأن أَمَداً لا يخلو : إما أن ينتصب بأفعل «2» فأفعل لا يعمل. وإما أن ينصب بلبثوا، فلا يسدّ عليه المعنى.

(1). قال محمود «أحصى فعل ماض ، أى : لنعلم أيهم ضبط أمدا ... الخ» قال أحمد : وقد جعل بعض النحاة بناء افعل من المزيد فيه الهمز قياسا ، وادعى ذلك مذهبا لسيبويه ، وعلله بأن بناءه منه لا يغير نظم الكلمة ، وإنما هو تعويض همزة بهمزة.
(2). عاد كلامه. قال : وأيضا فلو كان للتفضيل لم يخل انتصاب أمدا إما بأفعل ... الخ» قال أحمد : ولقائل أن ينصبه على التمييز ، كانتصاب العدد تمييزا في قوله تعالى أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ويعضد حمله على أفعل التفضيل وروده في نظير الواقعة واختلاف الأحزاب في مقدار اللبث ، وذلك في قوله تعالى إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً فأمثلهم طريقة : هو أحصاهم لما لبثوا عددا. وكلا الوجهين جائز ، والله أعلم.

فإن زعمت أنى أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى ، كما أضمر في قوله :

وأضرب منّا بالسّيوف القوانسا «1»

على : نضرب القوانس ، فقد أبعدت المتناول وهو قريب ، حيث أبيت أن يكون أحصى فعلا ، ثم رجعت مضطرا إلى تقديره وإضماره. فإن قلت : كيف جعل الله تعالى العلم بإحصائهم المدّة غرضا في الضرب على آذانهم؟ قلت : الله عز وجل لم يزل عالما بذلك ، وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ، ليزدادوا إيمانا واعتبارا ، ويكون لطفا لمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لكفارة.

[سورة الكهف (18) : الآيات 13 إلى 15]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً (13) وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (14) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (15)

(1) فلم أر مثل الحي حيا مصبحا ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكر وأحمي للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا صدور المذاكي والرماح المداعسا
إذا الخيل حالت عن صريع نكرها عليهم فما يرجعن إلا عوابسا
للعباس بن مرداس السلمى ، والحي بنو زبيد من اليمن. وأكر : أشد كرا. وأحمى : أشد حماية. والحقيقة :
ما يستحق الذب عنه من عرض ومال. والقوانس : جمع قونس ، وهو أعلى بيضة الفارس وأعلى رأس الفرس.
والمذاكي : الخيل العناق العتاق التي أتى عليها بعد قروحها سنة ، جمع المذاكي اسم مفعول. والمداعس : الرماح الصم التي يطعن بها. والدعس بالتحريك الأثر ، والمداعسة المطاعنة. والمدعس : الرمح الأصم الذي يطعن به.
ويروى : جالت ، بدل حالت أى : مالت إلى جول بالجيم أى ناحية. وأما الحول بالحاء فهو التحول. والصريع :
الطريح على الأرض ، ونكرها : نرجعها ، والعوابس : كالحات الوجوه من الجري في الغبار. وحيا مصبحا ، أى :
مأتيا في الصباح مفعول. ومثل الحي : حال ، على أن رأى بصرية. أو مفعول ثان ، على أنها علمية ، وأكر : بدل من حيا ، ولا يصح جعله صفة أو مفعول ثان ، لأنك لو قلت : ما رأيت مثل زيد رجلا أفضل منه لم يستقم المعنى إلا على البدلية ، لأن المماثلة تنافى المفاضلة ، إلا أن تكون المماثلة في صفة والمفاضلة في أخرى ، فلا مانع منه حينئذ. وأضرب : أفعل تفضيل ، بدل من فوارس على ما تقدم ، فهو لف ونشر مرتب. وأفعل التفضيل لا يعمل النصب في المفعول به ، بل حكى الإجماع على ذلك ، فالقوانس نصب

وبقوله : إذا مالت خيلنا أو تحولت عن قتيل منا ، نرجعها عليهم لأجل الثأر ، فما ترجع إلا كوالح ، فنحن أشجع منهم. [.....]

وَزِدْناهُمْ هُدىً بالتوفيق والتثبيت وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ وقويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم ، والفرار بالدين إلى بعض الغيران ، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام إِذْ قامُوا بين يدي الجبار وهو دقيانوس ، من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ... شَطَطاً قولا ذا شطط ، وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه ، من شط : إذا بعد. ومنه : أشط. في السوم وفي غيره هؤُلاءِ مبتدأ ، وقَوْمُنَا عطف بيان واتَّخَذُوا خبر وهو إخبار في معنى إنكار لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ هلا يأتون على عبادتهم ، فحذف المضاف بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ وهو تبكيت ، لأنّ الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال ، وهو دليل على فساد التقليد ، وأنه لا بد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بنسبة الشريك إليه.

[سورة الكهف (18) : آية 16]

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً(16)

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ خطاب من بعضهم لبعض ، حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم وَما يَعْبُدُونَ نصب ، عطف على الضمير ، يعنى : وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم إِلَّا اللَّهَ يجوز أن يكون استثناء متصلا ، على ما روى : أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما أهل مكة. وأن يكون منقطعا. وقيل : هو كلام معترض إخبار من اللّه تعالى عن الفئة أنهم لم يعبدوا غير اللّه مِرفَقاً قرئ بفتح الميم وكسرها ، وهو ما يرتفق به : أى ينتفع. إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل اللّه وقوّة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم. وإما أن يخبرهم به نبىّ في عصرهم ، وإما أن يكون بعضهم نبيا.

[سورة الكهف (18) : آية 17]

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (17)

تَتَزاوَرُ أى تمايل ، أصله : تتزاور ، فخفف بإدغام التاء في الزاى أو حذفها. وقد قرئ بهما. وقرئ : تزورّ. وتزوارّ : بوزن تحمرّ وتحمارّ ، وكلها من الزور وهو الميل. ومنه زاره إذا مال إليه. والزور : الميل عن الصدق ذاتَ الْيَمِينِ جهة اليمين. وحقيقتها. الجهة المسماة باليمين تَقْرِضُهُمْ تقطعهم لا تقربهم من معنى القطيعة والصرم. قال ذو الرمة :

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالا وعن أيمانهنّ الفوارس «1»

وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ وهم في متسع من الكهف. والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها ، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لإصابة الشمس لولا أنّ اللّه يحجبها عنهم. وقيل : في متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسبون كرب الغار ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ أى ما صنعه اللّه بهم - من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة - آية من آياته ، يعنى : أنّ ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم ، اختصاصا لهم بالكرامة. وقيل : باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش ، فهم في مقنأة «2» أبدا. ومعنى ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ أنّ شأنهم وحديثهم من آيات اللّه مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في اللّه وأسلموا له وجوههم ، فلطف بهم وأعانهم ، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة ، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح ، واهتدى إلى السعادة ، ومن تعرّض للخذلان ، فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان اللّه.

[سورة الكهف (18) : آية 18]

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (18)

وَتَحْسَبُهُمْ بكسر السين وفتحها : خطاب لكل أحد. والأيقاظ : جمع يقظ ، كأنكاد في نكد. قيل : عيونهم مفتحة وهم نيام ، فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظا. وقيل : لكثرة تقلبهم،

(1) نظرت بجرعاء السبية نظرة ضحى وسواد العين في الماء شامس
إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالا وعن أيمانهن الفوارس
لذي الرمة. وجرعاء السبية : اسم موضع ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الفاعل. وضحى : ظرف ، وسواد العين ... الخ. جملة حالية ، في الماء ، أى : الدمع شامس ، أى كثير الحركة والاضطراب. يقال : شمس الفرس والرجل شموسا ، إذا ساء خلقه، والظعينة : المرأة في الهودج أو المطية عليها امرأة أولا ، أو الهودج فيه امرأة أولا. والجمع ظعن وظعن وأظعان وظعانى ويقرضن أى يقطعن. وأقواز مشرف : أعالى جبل مشرف. ويروى أجواز جمع جوز بمعنى المجاز والطريق ، أى : يفصلناه عنهن ، وشمالا : جهة الشمال ، والفوارس : اسم موضع ، وجعله جمع فارس ، كما قيل : تبعده المقابلة.
(2). قوله «فهم في مقنأة» في الصحاح : قال أبو عمرو «المقنأة ، والمقنؤة» الذي لا تطلع عليه الشمس.
وقال : غير مقناة. ومقنوة. بغير همز : نقيض المضحاة. (ع)

وقيل : لهم تقلبتان في السنة. وقيل : تقلبة واحدة في يوم عاشوراء. وقرئ : ويقلبهم. بالياء والضمير لله تعالى. وقرئ : وتقلبهم ، على المصدر منصوبا ، وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً كأنه قيل : وترى وتشاهد تقلبهم. وقرأ جعفر الصادق : وكالبهم أى وصاحب كلبهم باسِطٌ ذِراعَيْهِ حكاية حال ماضية ، لأنّ اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي ، وإضافته إذا أضيف حقيقية معرفة ، كغلام زيد ، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية. والوصيد : الفناء ، وقيل : العتبة. وقيل : الباب. وأنشد :

بأرض فضاء لا يسدّ وصيدها عليّ ومعروفى بها غير منكر «1»

وقرئ : ولملئت ، بتشديد اللام للمبالغة. وقرئ بتخفيف الهمزة وقلبها ياء. ورُعْباً بالتخفيف والتثقيل ، وهو الخوف الذي يرعب الصدر أى يملؤه ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة. وقيل : لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم. وقيل : لوحشة مكانهم. وعن معاوية أنه غزا الروم فمرّ بالكهف فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال له ابن عباس رضي الله عنه : ليس لك ذلك ، قد منع الله تعالى منه من هو خير منك فقال : لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً فقال معاوية ، لا أنتهى حتى أعلم علمهم ، فبعث ناسا وقال لهم : اذهبوا فانظروا ، ففعلوا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم «2». وقرئ : لو اطلعت ، بضم الواو.

[سورة الكهف (18) : الآيات 19 إلى 20]

وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (20)

وَكَذلِكَ بَعَثْناهُمْ وكما أنمناهم تلك النومة كذلك بعثناهم ، إذكارا بقدرته على الإنامة والبعث جميعا ،

(1). لزهير. والوصيد : الفناء والباب والعتبة. يقول : نزلت في أرض خالية من البناء ، تصلني فيها الضيفان والقفاة ، ليس فيها بناء له وصيد. فيسد على فتنحجب عنى الضيفان كأهل الحضر ، فنفى السد كناية عن نفى الوصيد من أصله ، وإحسانى بها معروف لا ينكره أحد من الناس.
(2). أخرجه ابن أبى حاتم وعبيد بن محمد وأبو بكر بن أبى شيبة من رواية يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وإسناده صحيح.

ليسأل بعضهم بعضا ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم ، فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى ويزدادوا يقينا ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ جواب مبنى على غالب الظن. وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب ، وأنه لا يكون كذبا وإن جاز أن يكون خطأ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ إنكار عليهم من بعضهم ، وأن الله أعلم بمدّة لبثهم ، كأنّ هؤلاء قد علموا بالأدلة أو بإلهام من الله أنّ المدة متطاولة ، وأنّ مقدارها مبهم لا يعلمه إلا الله. وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال ، فظنوا أنهم في يومهم ، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك. فإن قلت : كيف وصلوا قولهم فَابْعَثُوا بتذاكر حديث المدة؟ قلت : كأنهم قالوا : ربكم أعلم بذلك ، لا طريق لكم إلى علمه ، فخذوا في شيء آخر مما يهمكم. والورق : الفضة ، مضروبة كانت أو غير مضروبة. ومنه الحديث أنّ عرفجة أصيب أنفه يوم الكلاب «1» فاتخذ أنفا من ورق فأنتن ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفا من ذهب «2». وقرئ : بورقكم ، بسكون الراء والواو مفتوحة أو مكسورة. وقرأ ابن كثير : بورقكم ، بكسر الراء وإدغام القاف

أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت اللّه ، وتعولم منه ذلك ، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبذلوا له أن يحجوا به وألحوا عليه ، فيعتذر إليهم ويحمد إليهم بذلهم ، فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده : ما لهذا السفر إلا شيئان : شدّ الهميان ، والتوكل على الرحمن أيُّها أىّ أهلها ، فحذف الأهل كما في قوله وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ، أَزْكى طَعاماً أحلّ وأطيب وأكثر وأرخص وَلْيَتَلَطَّفْ وليتكلف اللطف والنيقة «5» فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لا يغبن. أو في أمر التخفي حتى لا يعرف وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً

(1). قوله «يوم الكلاب» في وقعة الكلاب ، وهو بالضم : اسم ماء كانت عنده الوقعة ، أفاده الصحاح ، (ع)
(2). أخرجه أصحاب السنن من رواية عبد الرحمن بن طرفة. عن عرفجة. وفي رواية بعضهم «أن عرفجة».
(3). أخرجه ابن أبى شيبة بسند صحيح عنها بذلك.
(4). قوله «عن بعض صعاليك العلماء» أى فقرائهم. (ع)
(5). قوله «و النيقة» أى : الإتقان. (ع)

يعنى : ولا يفعلنّ ما يؤدى من غير قصد منه إلى الشعور بنا ، فسمى ذلك إشعارا منه بهم ، لأنه سبب فيه الضمير في إِنَّهُمْ راجع إلى الأهل المقدر في أَيُّها. يَرْجُمُوكُمْ يقتلوكم أخبث القتلة وهي الرجم ، وكانت عادتهم أَوْ يُعِيدُوكُمْ أو يدخلوكم فِي مِلَّتِهِمْ بالإكراه العنيف ويصيروكم إليها. والعود في معنى الصيرورة أكثر شيء في كلامهم ، يقولون : ما عدت أفعل كذا. يريدون ابتداء الفعل وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً إن دخلتم في دينهم.

[سورة الكهف (18) : آية 21]

وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (21)

وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ وكما أنمناهم وبعثناهم ، لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم ، ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وهو البعث ، لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث. وإِذْ يَتَنازَعُونَ متعلق بأعثرنا. أى : أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث ، فكان بعضهم يقول : تبعث الأرواح دون الأجساد. وبعضهم يقول : تبعث الأجساد مع الأرواح ، ليرتفع الخلاف ، وليتبين أنّ الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت فَقالُوا حين توفى اللّه أصحاب الكهف ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً أى على يأب كهفهم. لئلا يتطرّق إليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالحظيرة قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم لَنَتَّخِذَنَّ على باب الكهف مَسْجِداً يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم. وقيل : إذ يتنازعون بينهم أمرهم أى : يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف ، ويتكلمون في قصتهم وما أظهر اللّه من الآية فيهم. أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا ، كيف يخفون مكانهم؟ وكيف يسدّون الطريق إليهم ، فقالوا : ابنوا على باب كهفهم بنيانا. روى أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها ، وممن شدد في ذلك دقيانوس ، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل ، فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه ، ثم هربوا إلى الكهف ومرّوا بكلب فتبعهم فطردوه ، فأنطقه اللّه فقال : ما تريدون منى ، أنا أحبّ أحباء اللّه ، فناموا وأنا أحرسكم. وقيل : مرّوا براع معه كلب فتبعهم «1»

(1). قوله «و قيل : مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم» لعل بعده سقطا تقديره : وتبعهم الكلب ، كما في الخازن. (ع)

على دينهم ، ودخلوا الكهف فكانوا يعبدون اللّه فيه ، ثم ضرب اللّه على آذانهم ، وقيل أن يبعثهم اللّه ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن. وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين ، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد ، وسأل ربه أن يبين لهم الحق ، فألقى اللّه في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سدّ به فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه ، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس :

اتهموه بأنه وجد كنزا ، فذهبوا به إلى الملك فقصّ عليه القصة ، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم ، وحمدوا اللّه على الآية الدالة على البعث ، ثم قالت الفتية للملك : نستودعك اللّه ونعيذك به من شرّ الجنّ والإنس ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى اللّه أنفسهم ، فألقى الملك عليهم ثيابه ، وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب ، فرآهم في المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج ، وبنى على باب الكهف مسجدا. رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ من كلام المتنازعين ، كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم ، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا : ربهم أعلم بهم. أو هو من كلام اللّه عز وجل ردّ لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين ، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أهل الكتاب.

[سورة الكهف (18) : آية 22]

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (22)

سَيَقُولُونَ الضمير لمن خاض في قصتهم في زمن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من أهل الكتاب والمؤمنين ، سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عنهم فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم ، فنزلت إخبارا بما سيجرى بينهم من اختلافهم في عددهم ، وأنّ المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم. قال ابن عباس رضى اللّه عنه: أنا من أولئك القليل. وروى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فجرى ذكر أصحاب الكهف ، فقال السيد وكان يعقوبيا : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقال العاقب وكان نسطوريا:

كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، فحقق اللّه قول المسلمين.

وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن لسان جبريل عليه السلام. وعن علىّ رضى اللّه عنه: هم سبعة نفر أسماؤهم : يمليخا ، ومكشليتيا ، ومشلينيا : هؤلاء أصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوش ، ودبرنوش ، وشادنوش. وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره.

والسابع : الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس. واسم مدينتهم : أفسوس.

واسم كلبهم : قطمير. فإن قلت : لم جاء بسين الاستقبال في الأوّل دون الآخرين؟ قلت : فيه وجهان : أن تدخل الآخرين في حكم السين ، كما تقول : قد أكرم وأنعم ، تريد معنى التوقع في الفعلين جميعا ، وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له رَجْماً بِالْغَيْبِ رميا بالخبر الخفي وإتيانا به كقوله وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ أى يأتون به. أو وضع الرجم موضع الظنّ ، فكأنه قيل : ظنا بالغيب ، لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظنّ مكان قولهم ظنّ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين. ألا ترى إلى قول زهير :

وما هو عنها بالحديث المرجّم «1»

أى المظنون. وقرئ : ثلاتّ رابعهم ، بإدغام الثاء في تاء التأنيث. وثَلاثَةٌ خبر مبتدإ محذوف ، أى : هم ثلاثة. وكذلك خَمْسَةٌ وسَبْعَةٌ ورابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ جملة من مبتدإ وخبر واقعة صفة لثلاثة ، وكذلك سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ. فإن قلت : فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة ، ولم دخلت عليها دون الأوّلين «2»؟ قلت : هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الواقعة حال عن المعرفة في نحو قولك : جاءني رجل ومعه آخر. ومررت بزيد وفي يده سيف. ومنه قوله تعالى : وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ،

(1) وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
لزهير من معلقته ، ينهى عبسا وذبيان عن القتال. يقول : ليست الحرب إلا التي علمتموها وجربتموها ، وشبهها بمطعوم مكروه على طريق الكناية والذوق تخييل ، وما هو : أى الحديث عن الحرب ، ولما كان الضمير عائدا على المصدر في المعنى صح تعلق المجرور به ، ويبعد تعلقه بما بعده. والترجيم : الرمي بالرجام وهي الحجارة الصغار ، استعير لالقاء الكلام بلا روية ولا فكر على طريق التصريحية.
(2). قال محمود : إن قلت «لم دخلت الواو في الجملة الأخيرة ... الخ»؟ قال أحمد : وهو الصواب ، لا كمن يقول : إنها واو الثمانية فان ذلك أمر لا يستقر لمثبته قدم ، ويعدون مع هذه الواو في قوله في الجنة وَفُتِحَتْ أَبْوابُها بخلاف أبواب النار ، فانه قال فيها فُتِحَتْ أَبْوابُها قالوا : لأن أبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة.

وهب أن في اللغة واوا تصحب الثمانية فتختص بها ، فأين ذكر العدد في أبواب الجنة حتى ينتهى إلى الثامن فتصحبه الواو ، وربما عدوا من ذلك وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وهو الثامن من قوله التَّائِبُونَ وهذا أيضا مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة ، لتربط بينها وبين الأولى التي هي الآمرون بالمعروف ، لما بينهما من التناسب والربط.
ألا ترى اقترانهما في جميع مصادرهما وموارداهما ، كقوله يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وكقوله وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وربما عد بعضهم من ذلك الواو في قوله ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً لأنه وجدها مع الثامن ، وهذا غلط فاحش ، فان هذه واو التقسيم ، ولو ذهبت تحذفها فتقول : ثيبات أبكارا ، لم يسند الكلام ، فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة واردة لغير ما زعمه هؤلاء، والله الموفق.

وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا : سبعة وثامنهم كلبهم ، قالوا عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما غيرهم. والدليل عليه أنّ الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله رَجْماً بِالْغَيْبِ وأتبع القول الثالث قوله ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ وقال ابن عباس رضى الله عنه : حين وقعت الواو انقطعت العدّة ، أى : لم يبق بعدها عدّة عادّ يلتفت إليها. وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثبات. وقيل : إلا قليل من أهل الكتاب. والضمير في سَيَقُولُونَ على هذا لأهل الكتاب خاصة ، أى : سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا ، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم ، وأكثرهم على ظنّ وتخمين فَلا تُمارِ فِيهِمْ فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه ، وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد ، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الردّ عليهم ، كما قال وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. وَلا تَسْتَفْتِ ولا تسأل أحدا منهم عن قصتهم سؤال متعنت له ، حتى يقول شيئا فتردّه عليه وتزيف ما عنده ، لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والمجاملة ، ولا سؤال مسترشد ، لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم.

[سورة الكهف (18) : الآيات 23 إلى 24]

وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (23) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (24)

وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ ولا تقولنّ لأجل شيء تعزم عليه إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ الشيء غَداً أى فيما يستقبل من الزمان ، ولم يرد الغد خاصة إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ متعلق بالنهى لا بقوله : إنى فاعل ، لأنه لو قال : إنى فاعل كذا إلا أنّ يشاء الله ، كان معناه : إلا أن تعترض مشيئة الله دون «1» فعله ، وذلك مما لا مدخل فيه للنهى ، وتعلقه بالنهى على وجهين ، أحدهما : ولا تقولنّ ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله ، بأن يأذن لك فيه. والثاني : ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله ، أى : إلا بمشيئة الله ، وهو في موضع الحال ، يعنى : إلا ملتبسا بمشيئة الله قائلا :

(1). قال محمود : «كان معناه إلا أن تعترض مشيئة الله دون فعله ... الخ» قال أحمد : ولا بد من حمل الكلام على أحد الوجهين المذكورين ، ولولا ذلك لكان المعنى على الظاهر ببادئ الرأى : ولا تقولون لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول ، وليس الغرض ذلك ، وإنما الغرض النهى عن هذا القول إلا مقرونا بقول المشيئة ، وليت شعري ما معنى قول الزمخشري في تفسير الآية ، كأن المعنى : إلا أن تعترض المشيئة دونه ، معتقدا أن مشيئة الله تعالى لا تعترض على فعل أحد ، فكم شاء من الأفعال فتركت ، وكم شاء من التروك ففعلت على زعم القدرية ، فلا معنى على أصلهم الفاسد لتعليق الفعل بالمشيئة قولا وهو غير متعلق بها وقوعا ، حتى أن قول القائل : لا أفعل كذا إلا أن يشاء الله أن أفعله : كذب وخلف بتقدير فعله إذا كان من قبيل المباح ، لأن الله تعالى لا يشاؤه على زعمهم الفاسد ، فما أبعد عقدهم من قواعد الشرع : فسحقا سحقا.

إن شاء الله وفيه وجه ثالث ، وهو : أن يكون أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «1» في معنى كلمة تأبيد ، كأنه قيل ولا تقولنه أبدا. ونحوه قوله وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ لأن عودهم في ملتهم مما لن يشاءه الله.

وهذا نهى تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وذى القرنين. فسألوه فقال : ائتوني غدا أخبركم ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه وكذبته قريش وَاذْكُرْ رَبَّكَ أى مشيئة ربك وقل : إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك. والمعنى : إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر «2». وعن ابن عباس رضى الله عنه : ولو بعد سنة ما لم تحنث. وعن سعيد بن جبير : ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة. وعن طاوس : هو على ثنياه «3» ما دام في مجلسه. وعن الحسن نحوه. وعن عطاء : يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة. وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولا. ويحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة خالف ابن عباس رضى الله عنه في الاستثناء المنفصل ، فاستحضره لينكر عليه : فقال أبو حنيفة : هذا يرجع عليك ، إنك تأخذ البيعة بالأيمان ، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟ فاستحسن كلامه ورضى عنه. ويجوز أن يكون المعنى : واذكر «4» ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء ، تشديدا في البعث على الاهتمام بها. وقيل : واذكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به. وقيل : واذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى ، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند

وذكر ربك عند نسيانه أن تقول : عسى ربى أن يهدينى لشيء آخر بدل هذا المنسى أقرب منه رَشَداً وأدنى خيرا ومنفعة. ولعل النسيان كان خيرة ، كقوله أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها.

(1). قوله «إن شاء اللّه» لعله أن يشاء اللّه. (ع) [.....]
(2). عاد كلامه. قال : «و قوله وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ أى كلمة الاستثناء ثم تنبهت لها ، فتداركها بالذكر.
وعن ابن عباس : ولو بعد سنة ما لم تحنث إلى قوله : وعند عامة الفقهاء ... الخ» قال أحمد : أما ظاهر الآية فمقتضاه الأمر بتدارك المشيئة متى ذكرت ولو بعد الطول. وأما حلها لليمين حينئذ فلا دليل عليه منها ، واللّه أعلم
(3). قوله «هو على ثنياه» في الصحاح «الثنيا» بالضم : الاسم من الاستثناء. (ع)
(4). قال محمود : «و يجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح ... الخ» قال أحمد : ويؤيد هذا التأويل بقوله تعالى أول القصة أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً فافتتح ذكر القصة بتقليل شأنها وإنكار عده من عجائب آيات اللّه ، ثم ختمها بأمره عليه الصلاة والسلام بطلب ما هو أرشد وأدخل في الآية واللّه أعلم.

[سورة الكهف (18) : الآيات 25 إلى 26]

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (26)

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ يريد لبثهم فيه أحياء مضروبا على آذانهم هذه المدّة ، وهو بيان لما أجمل في قوله فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ومعنى قوله قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدّة لبثهم ، والحق ما أخبرك اللّه به. وعن قتادة : أنه حكاية لكلام أهل الكتاب. وقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ رد عليهم. وقال في حرف عبد اللّه : وقالوا لبثوا. وسنين : عطف بيان لثلثمائة. وقرئ : ثلاثمائة سنين ، بالإضافة ، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز ، كقوله بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا وفي قراءة أبىّ : ثلاثمائة سنة. تِسْعاً تسع سنين ، لأن ما قبله يدل عليه. وقرأ الحسن : تسعا بالفتح ، ثم ذكر اختصاصه بما غاب في السموات والأرض وخفى فيها من أحوال أهلها ومن غيرها وأنه هو وحده العالم به. وجاء بما دل على التعجب من إدراكه المسموعات والمبصرات ، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حدّ ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك ألطف الأشياء وأصغرها ، كما يدرك أكبرها حجما وأكثفها جرما ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر ما لَهُمْ الضمير لأهل السموات والأرض مِنْ وَلِيٍّ من متول لأمورهم وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ في قضائه أَحَداً منهم. وقرأ الحسن : ولا تشرك ، بالتاء والجزم على النهى.

[سورة الكهف (18) : آية 27]

وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (27)

كانوا يقولون له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، فقيل له وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل ، فلا مبدل لكلمات ربك ، أى : لا يقدر أحد على تبديلها وتغييرها ، إنما يقدر على ذلك هو وحده وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ. وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ملتجأ تعدل إليه إن هممت بذلك.

[سورة الكهف (18) : آية 28]

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (28)

وقال قوم من رؤساء الكفرة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : نحّ هؤلاء الموالي الذين كأن ريحهم ريح الضأن ، وهم : صهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين ، حتى نجالسك كما قال قوم نوح : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ فنزلت : وَاصْبِرْ نَفْسَكَ واحبسها معهم وثبتها. قال أبو ذؤيب :

فصبرت عارفة لذلك حرّة ترسو إذا نفس الجبان تطلّع «1»

بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ دائبين على الدعاء في كل وقت. وقيل : المراد صلاة الفجر والعصر. وقرئ :

بالغدوة ، وبالغداة أجود ، لأن غدوة علم في أكثر الاستعمال ، وإدخال اللام على تأويل التنكير كما قال :

..... والزّيد زيد المعارك «2»

ونحوه قليل في كلامهم. يقال : عداه إذا جاوزه ومنه قولهم. عدا طوره. وجاءني القوم عدا زيدا. وإنما عدى بعن، لتضمين عدا معنى نبا وعلا ، في قولك : نبت عنه عينه وعلت عنه عينه : إذا اقتحمته ولم تعلق به. فإن قلت : أى غرض في هذا التضمين؟ وهلا قيل : ولا تعدهم عيناك ، أو لا تعل عيناك عنهم؟ قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ.

ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم؟ ونحوه قوله تعالى وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ أى ولا تضموها إليها أكلين لها. وقرئ : ولا تعد عينيك ، ولا تعدّ عينيك ، من أعداه وعدّاه نقلا بالهمزة وتثقيل الحشو. ومنه قوله :

فعد عمّا ترى إذ لا ارتجاع له «3»

(1). لأبى ذؤيب في مرثية بنيه ، وصبرت : أى حبست نفسا عارفة لذلك البلاء ، وضمن عارفة معنى صابرة فعداه باللام ، جسرة : أى قوية صلبة. ويروى : حرة ، بضم الحاء ، أى جيدة. ترسو : تطمئن وتسكن ، إذا تطلع نفس الجبان وتجزع كأنها تريد الفرار وأصله تتطلع ، حذف منه إحدى التاءين تخفيفا.
(2) وقد كان منهم حاجب وابن أمه أبو جندل والزيد زيد المعارك
دخلت «أل» المعرفة على «زيد» وهو علم لتأويله بالمسمى بزيد ، ولذلك أضافه للمعارك ، أى أمكنة الحروب.
يقول : وقد كان من هؤلاء القوم حاجب بن لقيط بن زرارة وابن أمه ، أى أخوه أبو جندل والمسمى يزيد ، المعد للحروب. وفيه إشارة إلى أنه يعرف بذلك فيما بين الناس.
(3) فعد عما ترى إذ لا ارتجاع له وأتم القتود على عيرانة أحد
للنابغة الذبياني. ونما ينمى نميا : زاد وارتفع. ونماه ينميه نميا : رفعه وزاده. ونما ينمو نموا من باب دخل.
ونماه ينموه نموا أيضا ، لكن الواوي قليل. والقتود : جمع أقتاد ، جمع قتد : وهي عيدان الرحل بلا أداة.
والعيرانة : الشبيهة بالعير في سرعة السير. والأجد : الصلبة الموثقة الخلق. يقول : انصرف عما ترى من آثار الديار ، أو عما تظن رجوعه ، لأنه لا تدارك له أو لا رجوع له ، وارفع عيدان الرحل على ناقة سريعة صلبة ، كناية عن أمره بالسفر ، لأن شد الرحال لا يكون إلا له.

لأن معناه : فعد همك عما ترى. نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يزدرى بفقراء المؤمنين ، وأن تنبو عينه عن رثاثة زيهم طموحا إلى زىّ الأغنياء وحسن شارتهم «1» تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا في مرضع الحال مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ من جعلنا قلبه غافلا «2» عن الذكر بالخذلان «3».

أو وجدناه غافلا عنه ، كقولك : أجبنته وأفحمته «4» وأبخلته ، إذا وجدته كذلك. أو من أغفل إبله إذا تركها «5» بغير سمة ، أى : لم نسمه بالذكر ولم نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان وقد أبطل اللّه توهم المجبرة «6» بقوله وَاتَّبَعَ هَواهُ وقرئ : أغفلنا قلبه ، بإسناد الفعل إلى القلب على معنى : حسبنا قلبه غافلين ، من أغفلته إذا وجدته غافلا فُرُطاً متقدّما للحق والصواب «7» نابذا له وراء ظهره من قولهم «فرس فرط» متقدّم للخيل.

[سورة الكهف (18) : آية 29]

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً (29)

(1). قوله «و حسن شارتهم» في الصحاح : الشوار والشارة : اللباس والهيئة. (ع)
(2). قال محمود : «معناه جعلنا قلبه غافلا عن الذكر ... الخ» قال أحمد : هو يشمر للهرب من الحق ، وهو أن المراد خلقنا له ، وجدير به أن يشمر في اتباع هواه ، فان حمل «أغفل» على بابه صرفه إلى الخذلان ، وإلا أخرجه بالكلية عن بابه إلى باب أفعل للمصادفة ، ولا يتجرأ على تفسير فعل أسنده اللّه إلى ذاته بالمصادفة إلى تفهيم وجدان الشيء بغتة عن جهل سابق وعدم علم.
(3). قوله «غافلا عن الذكر بالخذلان» يتحاشى بذلك عن خلق الغفلة في قلبه ، لأن اللّه لا يخلق الشر عند المعتزلة ، وأهل السنة على خلاف ذلك كما أشار إليه بقوله : توهم المجبرة. ثم إن اتباعه هواه لا ينافي خلق اللّه الغفلة في قلبه ، لجواز أن يكون ذلك ناشئا عن الغفلة. (ع)
(4). قوله «كقولك أجبنته وأفحمته» في الصحاح «أفحمته» وجدته مفحما لا يقول الشعر. (ع)

(5). عاد كلامه. قال : «و يجوز أن يكون المعنى من أغفل إبله إذا ... الخ» قال أحمد : وهذا التأويل فيه رقة حاشية ولطافة معنى ، وغرضه منه الخلاص مما قدمناه ، لأنه وإن أبى خلق الله الغفلة في القلب فلا يأبى عدم كتب الايمان ، وإنما غرضنا التنبيه على أن مقصد الزمخشري الحيد عن القاعدة المتقدمة ، والتأويل إنما يصار إليه إذا اعتاص الظاهر وهو عندنا ممكن ، فوجب الاعتصام به ، والله الموفق.
(6). عاد كلامه. قال : «و قد أبطل الله توهم المجبرة بقوله : واتبع هواه» قال أحمد : قد تقدم في غير ما موضع أن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى من حيث كونه مخلوقا له ، وإلى العبد من حيث كونه مقرونا بقدرته واختياره ، ولا تنافى بين الاضافتين ، فبراهين السنة تتبعه أينما سلك وأية توجه ، فلا محيص له عنها بوجه.
(7). قوله «متقدما للحق والصواب» أى سابق له ومجاوز له ، وفي الصحاح : أمر فرط ، أى مجاوز فيه الحد.
ومنه قوله تعالى وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً.

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ

الحق خبر مبتدأ محذوف. والمعنى : جاء الحق وزاحت العلل «1» فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك. وجيء بلفظ الأمر والتخيير ، لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء ، فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين. شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق ، وهو الحجرة التي تكون حول الفسطاط ، وبيت مسردق : ذو سرادق وقيل : هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار. وقيل : حائط من نار يطيف بهم «2» يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ كقوله :

..... فأعتبوا بالصّيلم «3»

وفيه تهكم. والمهل : ما أذيب من جواهر الأرض. وقيل : دردىّ الزيت يَشْوِي الْوُجُوهَ إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته. عن النبي صلى الله عليه وسلم : هو كعكر الزيت «4» ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه بِئْسَ الشَّرابُ ذلك وَساءَتْ النار مُرْتَفَقاً متكا من المرفق ، وهذا لمشاكلة قوله وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء ، إلا أن يكون من قوله :

إنىّ أرقت فبتّ اللّيل مرتفقا كأنّ عينى فيها الصّاب مذبوح «5»

[سورة الكهف (18) : الآيات 30 إلى 31]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (30) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (31)

(1). قوله «و المعنى جاء الحق وزاحت العلل» في الصحاح «زاح الشي ء» بعد وذهب. وأزحت علته فزاحت. (ع) [.....]
(2). قوله «يطيف بهم» الذي يفيده الصحاح : طاف يطوف حول الشيء : دار حوله ، وطاف يطيف بالشيء : جاءه وأ لم به ، فتدبر. (ع)
(3). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص 105 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(4). أخرجه الترمذي من طريق رشدين بن سعد. عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد.
واستغربه. وقال : لا يعرف إلا من حديث رشدين بن سعد وتعقب قوله : بأن أحمد وأبا يعلى أخرجاه من طريق ابن لهيعة عن دراج ، وبأن ابن حبان والحاكم أخرجاه من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث.
(5). لأبى ذؤيب الهذلي. ويروى بدل الشطر الأول : مقام الخلى وبت الليل مشتجرا. والارتفاق : الاتكاء على المرفق مع نصب الساعد. والاشتجار : وضع اليد تحت الشجر وهو ما بين اللحيين والاتكاء عليها ، وهي هيئة المتحزن المتحسر. والأرق ، السهر. والصاب : نبت مر كالحنظل. والمذبوح : المشقوق. وهو كناية عن البكاء وانصباب الدموع.

أُولئِكَ خبر إن وإِنَّا لا نُضِيعُ اعتراض ، ولك أن تجعل إِنَّا لا نُضِيعُ وأُولئِكَ خبرين معا. أو تجعل أُولئِكَ كلاما مستأنفا بيانا للأجر المبهم. فإن قلت : إذا جعلت إِنَّا لا نُضِيعُ خبرا ، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت : مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ينتظمهما معنى واحد ، فقام مَنْ أَحْسَنَ مقام الضمير. أو أردت : من أحسن عملا منهم ، فكان كقولك : السمن منوان بدرهم. من الأولى للابتداء ، والثانية للتبيين.

وتنكير أَساوِرَ لإبهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس : وهو ما رقّ من الديباج ، وبين الإستبرق : وهو الغليظ منه ، جمعا بين النوعين. وخص الاتكاء ، لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرتهم.

[سورة الكهف (18) : الآيات 32 إلى 34]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (33) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (34)

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أى ومثل حال الكافرين والمؤمنين ، بحال رجلين وكانا أخوين في بنى إسرائيل : أحدهما كافر اسمه قطروس ، والآخر مؤمن اسمه يهوذا. وقيل : هما المذكوران في سورة والصافات في قوله قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار ، فتشاطراها. فاشترى الكافر أرضا بألف ، فقال المؤمن : اللهم إن أخى اشترى أرضا بألف دينار ، وأنا أشترى منك أرضا في الجنة بألف ، فتصدّق به. ثم بنى أخوه دارا بألف ، فقال : اللهم إنى أشترى منك دارا في الجنة بألف فتصدّق به. ثم تزوّج أخوه امرأة بألف ، فقال : اللهم إنى جعلت ألفا صداقا للحور. ثم اشترى أخوه خدما ومتاعا بألف ، فقال : اللهم إنى اشتريت منك الولدان المخلدين بألف ، فتصدّق به ثم أصابته حاجة ، فجلس لأخيه على طريقه فمرّ به في حشمه ، فتعرّض له، فطرده ووبخه على التصدّق بماله. وقيل : هما مثل لأخوين من بنى مخزوم : مؤمن وهو أبو سلمة عبد اللّه بن عبد الأشد ، وكان زوج أمّ سلمة قبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وكافر وهو الأسود بن عبد الأشد جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ بستانين من كروم وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وجعلنا النخل محيطا بالجنتين ، وهذا مما يؤثره الدهاقين «1» في كرومهم : أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة. يقال : حفوه ، إذا أطافوا به : وحففته بهم. أى جعلتهم حافين حوله ، وهو متعدّ إلى مفعول واحد «فتزيده الباء مفعولا ثانيا ، كقولك : غشيه ، وغشيته به وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً جعلناها أرضا جامعة للأقوات والفواكه. ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها ، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق ، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص ، ثم بما وهو أصل الخير ومادّته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به ، وهو السيح بالنهر الجاري فيها.

والأكل : الثمر. وقرئ بضم الكاف وَلَمْ تَظْلِمْ ولم تنقص. وآتت : حمل على اللفظ ، لأنّ كِلْتَا لفظه لفظ مفرد ، ولو قيل : آتتا على المعنى ، لجاز. وقرئ : وفجرنا ، على التخفيف. وقرأ عبد اللّه : كل الجنتين آتى أكله بردّ الضمير على كل وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ أى أنواع من المال ، من ثمر ماله «2» إذا كثر. وعن مجاهد : الذهب والفضة، أى : كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الدثرة «3» من الذهب والفضة وغيرهما ، وكان وافر اليسار من كل وجه ، متمكنا من عمارة الأرض كيف شاء وَأَعَزُّ نَفَراً يعنى أنصارا وحشما. وقيل : أولادا ذكورا ، لأنهم ينفرون معه دون الإناث. يحاوره : يراجعه الكلام ، من حار يحور إذا رجع ، وسألته فما أحار كلمة.

[سورة الكهف (18) : الآيات 35 إلى 36]

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (35) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (36)

يعنى قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيهما ويعجبه منهما ويفاخره بما ملك من المال دونه. فإن قلت : فلم أفرد الجنة بعد التثنية؟ قلت : معناه ودخل ما هو جنته ما له جنة غيرها ، يعنى أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنون ، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وهو معجب بما أوتى مفتخر به كافر لنعمة ربه ، معرّض بذلك نفسه لسخط اللّه ، وهو أفحش الظلم. إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته :

(1). قوله «الدهاقين» واحدة دهقان. (ع)
(2). قوله «من تمر ماله» الذي في الصحاح : أن الثمر جمع ثمار ، ككتب وكتاب. وأن الثمر أيضا : المال المثمر ، ويخفف ويثقل. وأثمر الرجل : إذا كثر ماله ، وثمر اللّه ماله ، أى : كثره. وعبارة الخازن : وكان له ثمر. قرئ بالفتح جمع ثمرة ، وقرئ بالضم وهو الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما. وفي النسفي : له ثمر ، وأحيط بثمره بفتح الميم والثاء وبضم الثاء وسكون الميم ، وبضمهما. (ع)
(3). قوله «الأموال الدثرة» الكثيرة. أفاده الصحاح. (ع)

لطول أمله واستيلا الحرص عليه وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة وإطراحه النظر في عواقب أمثاله. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم ، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي إقسام منه على أنه إن ردّ إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير وكما يزعم صاحبه ، ليجدنّ في الآخرة خيرا من جنته في الدنيا ، تطمعا وتمنيا على اللّه ، وادّعاء لكرامته عليه ومكانته عنده ، وأنه ما أولاه

وانتصابه على التمييز ، أى : منقلب تلك ، خير من منقلب هذه ، لأنها فانية وتلك باقية.

[سورة الكهف (18) : آية 37]

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (37)
خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ أى خلق أصلك ، لأنّ خلق أصله سبب في خلقه ، فكان خلقه خلقا له سَوَّاكَ عدلك وكملك إنسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال. جعله كافرا باللّه جاحدا لأنعمه لشكه في البعث ، كما يكون المكذب بالرسول صلى اللّه عليه وسلم كافرا.

[سورة الكهف (18) : آية 38]

لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (38)

لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي أصله لكن أنا ، فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن ، فتلاقت النونان فكان الإدغام. ونحوه قول القائل :

وترمينني بالطّرف أى أنت مذنب وتقلينني لكنّ إيّاك لا أقلى «1»

أى : لكن أنا لا أقليك وهو ضمير الشأن ، والشأن اللّه ربى ، والجملة خبر أنا ، والراجع منها إليه ياء الضمير. وقرأ ابن عامر بإثبات ألف أنا في الوصل والوقف جميعا ، وحسن ذلك وقوع الألف عوضا من حذف الهمزة. وغيره لا يثبتها إلا في الوقف. وعن أبى عمرو أنه وقف بالهاء : لكنه.

(1). يقول : وترمينني يا محبوبة بطرفك ، أى : تشيرين إلى به. فالرمى : استعارة مصرحة ، لأنه شبه إطلاق البصر بإطلاق الحجر. ويجوز أن الباء للالة ، فالمرمى محذوف فسره بقوله : أى أنت مذنب ، فأى تفسيرية ، يعنى أن ما رمته به هو ادعاؤها أنه مذنب. وقلاه يقليه ، وقليه يقلاه. وقد يقال : قلاه يقلاه بمعنى بغضه أشد البغض ، ولكن أصله : ولكن أنا ، فنقلت حركة الهمزة إلى النون ثم حذفت ، ثم أدغمت النون في النون بعدها ، وحذفت الألف الأخيرة في الرسم كاللفظ. ولو أجرى الوصل مجرى الوقف لثبتت ، وقدم المفعول وهو «إياك» للاهتمام ببراءتها من فلاء وتخصيصها بذلك دون غيرها من النساء.

وقرئ : لكن هو اللّه ربى ، بسكون النون وطرح أنا. وقرأ أبىّ بن كعب : لكن أنا على الأصل. وفي قراءة عبد اللّه : لكن أنا لا إله إلا هو ربى. فإن قلت : هو استدراك لما ذا؟

قلت : لقوله أَكَفَرْتَ قال لأخيه : أنت كافر باللّه ، لكنى مؤمن موحد ، كما تقول : زيد غائب ، لكن عمرا حاضر.

[سورة الكهف (18) : الآيات 39 إلى 41]

وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً (39) فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (40) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (41)

ما شاءَ اللَّهُ يجوز أن تكون ما موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدإ محذوف تقديره : الأمر ما شاء اللّه. أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف ، بمعنى : أى شيء شاء اللّه كان. ونظيرها في حذف الجواب لَوْ في قوله وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ والمعنى :

هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك اللّه منها الأمر ما شاء اللّه ، اعترافا بأنها وكلّ خير فيها إنما حصل بمشيئة اللّه وفضله ، وأن أمرها بيده : إن شاء تركها عامرة وإن شاء خرّبها ، وقلت لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها إنما هو بمعونته وتأييده ، إذ لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا باللّه تعالى. وعن عروة بن الزبير أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب ، فيدخل من شاء. وكان إذا دخله ردّد هذه الآية حتى يخرج. من قرأ أَقَلَّ بالنصب فقد جعل أنا فصلا ، ومن رفع جعله مبتدأ وأقلّ خبره ، والجملة مفعولا.

ثانيا لترنى. وفي قوله وَوَلَداً نصرة لمن فسر النفر بالأولاد في قوله وَأَعَزُّ نَفَراً والمعنى إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع اللّه أن يقلب ما بى وما بك من الفقر والغنى ، فيرزقنى لإيمانى جنة خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ ويسلبك لكفرك نعمته ويخرّب بستانك. والحسبان : مصدر كالغفران والبطلان ، بمعنى الحساب ، أى : مقدارا قدره اللّه وحسبه ، وهو الحكم بتخريبها وقال الزجاج : عذاب حسبان ، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك. وقيل حسبانا مرامي الواحدة حسبانة وهي الصواعق صَعِيداً زَلَقاً أرضا بيضاء يزلق عليها لملامتها زلقا.

وغَوْراً كلاهما وصف بالمصدر.

[سورة الكهف (18) : الآيات 42 إلى 43]

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً (43)

وَأُحِيطَ به عبارة عن إهلاكه. وأصله من أحاط به العدوّ ، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك. ومنه قوله تعالى إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ ومثله قولهم : أتى عليه ، إذا أهلكه ، من أتى عليهم العدوّ : إذا جاءهم مستعليا عليهم. وتقليب الكفين : كناية عن الندم والتحسر ، لأنّ النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن ، كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد ، ولأنه في معنى الندم عدّى تعديته بعلى ، كأنه قيل : فأصبح يندم عَلى ما أَنْفَقَ فِيها أى أنفق في عمارتها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها يعنى أنّ كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض ، وسقطت فوقها الكروم. قيل : أرسل اللّه عليها نارا فأكلتها يا لَيْتَنِي تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه ، فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك اللّه بستانه. ويجوز أن يكون توبة من الشرك ، وندما على ما كان منه ، ودخولا في الإيمان. وقرئ : وَلَمْ تَكُنْ بالياء والتاء ، وحمل يَنْصُرُونَهُ على المعنى دون اللفظ ، كقوله فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ. فإن قلت : ما معنى قوله يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قلت : معناه يقدرون على نصرته من دون اللّه ، أى : هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استيجابه أن يخذل وَما كانَ مُنْتَصِراً وما كان ممتنعا بقوّته عن انتقام اللّه.

[سورة الكهف (18) : آية 44]

هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً (44)

الْوَلايَةُ بالفتح النصرة والتولي ، وبالكسر السلطان والملك ، وقد قرئ بهما. والمعنى هنالك ، أى : في ذلك المقام وتلك الحال النصرة للّه وحده ، لا يملكها غيره ، ولا يستطيعها أحد سواه ، تقريرا لقوله وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أو : هنالك السلطان والملك للّه لا يغلب ولا يمتنع منه. أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى اللّه ويؤمن به كل مضطرّ. يعنى أنّ قوله يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً كلمة ألجئ إليها فقالها جزعا مما دهاه من شؤم كفره ، ولولا ذلك لم يقلها. ويجوز أن يكون المعنى : هنالك الولاية للّه ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم ، ويشفى صدورهم من أعدائهم ، يعنى : أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن ، وصدّق قوله فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ ويعضده قوله خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً أى لأوليائه. وقيل هُنالِكَ إشارة إلى الآخرة أى في تلك الدار الولاية للّه ، كقوله لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ. وقرئ «الحق» بالرفع والجرّ صفة للولاية واللّه «1».

وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد ، كقولك : هذا عبد اللّه الحق لا الباطل ، وهي قراءة حسنة فصيحة ، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم. وقرئ عُقْباً بضم القاف وسكونها ، وعقبى على فعلى ، وكلها بمعنى العاقبة.

[سورة الكهف (18) : آية 45]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (45)

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا. وقيل : نجع في النبات الماء فاختلط به حتى روى ورف «2» رفيفا ، وكان حق اللفظ على هذا التفسير : فاختلط بنبات الأرض. ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه.

والهشيم : ما تهشم وتحطم ، الواحدة هشيمة. وقرئ : تذروه الريح. وعن ابن عباس : تذريه الرياح ، من أذرى: شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء ، بحال النبات يكون أخضر وارفا «3» ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ من الإنشاء والإفناء مُقْتَدِراً.

[سورة الكهف (18) : آية 46]

الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (46)

الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وتفنى عنه كل ما تطمح إليه نفسه من حظوظ الدنيا. وقيل هي الصلوات الخمس. وقيل : سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر. وعن قتادة : كل ما أريد به وجه اللّه خَيْرٌ ثَواباً أى ما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الأمل ، لأنّ صاحبها يأمل في الدنيا ثواب اللّه ، ويصيبه في الآخرة.

(1). قال محمود : «قرئ بالرفع والجر صفة الولاية واللّه تعالى ... الخ» قال أحمد : وقد تقدم الإنكار عليه في مثل هذا القول فانه يوهم أن القرآت موكولة إلى رأى الفصحاء واجتهاد البلغاء ، فتتفاوت في الفصاحة لتفاوتهم فيها ، وهذا منكر شنيع. والحق : أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه فوعاه متصلا بفلق إليه صلى اللّه عليه وسلم منزلا كذلك من السماء ، فلا وقع لفصاحة الفصيح ، وإنما هو ناقل كغيره ، ولكن الزمخشري لا يفوته الثناء على رأس البدعة ومعدن الفتنة ، فان عمرو بن عبيد أول مصمم على إنكار القدر وهلم جرا إلى سائر البدع الاعتزالية ، فمن ثم أثنى عليه.
(2). قوله «و رف رفيفا «في الصحاح : رف لونه رفا ورفيفا : برق وتلألأ. وشجر رفيف : إذا تندت أوراقه. (ع)
(3). قوله «بحال النبات يكون أخضر وارفا» في الصحاح : ورف النبت ، أى : اهتز من نضارته ، فهو وارف ، أى : ناضر رفاف شديد الخضرة. (ع)

[سورة الكهف (18) : الآيات 47 إلى 48]

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (47) وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (48)

قرئ : تسير ، من سيرت - ونسير ، من سيرنا. وتسير ، من سارت ، أى : تسير في الجو. أو يذهب بها ، بأن تجعل هباء منبثا. وقرئ : وترى الأرض على البناء للمفعول بارِزَةً ليس عليها ما يسترها مما كان عليها وَحَشَرْناهُمْ وجمعناهم إلى الموقف. وقرئ : فلم نغادر ، بالنون واليَاء ، يقال : غادره وأغدره إذا تركه. ومنه الغدر. ترك الوفاء. والغدير : ما غادره السيل. وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان فَّامصطفين ظاهرين ، يرى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحداقَدْ جِئْتُمُونا أى قلنا لهم : لقد جئتمونا. وهذا المضمر هو عامل النصب في يوم نسير. ويجوز أن ينصب بإضمار اذكر. والمعنى لقد بعثناكم كما أنشأناكم وَّلَ مَرَّةٍ وقيل جئتمونا عراة لا شيء معكم كما خلقناكم أوّلا ، كقوله وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى . فإن قلت لم جيء بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى؟ قلت : للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم ، كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك وْعِداً وقتا لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور.

[سورة الكهف (18) : آية 49]

وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (49)

الْكِتابُ للجنس وهو صحف الأعمال يا وَيْلَتَنا ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً هنة صغيرة ولا كبيرة ، وهي عبارة عن الإحاطة ، يعنى : لا يترك شيئا من المعاصي إلا أحصاه ، أى : أحصاها كلها كما تقول : ما أعطانى قليلا ولا كثيرا ، لأن الأشياء إما صغار وإما كبار. ويجوز أن يريد : وإما

وعن الفضيل : كان إذا قرأها قال : ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر إِلَّا أَحْصاها إلا ضبطها وحصرها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً في الصحف عتيدا. أو جزاء ما عملوا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً فيكتب عليه ما لم يعمل. أو يزيد في عقاب المستحق ، أو يعذبه بغير جرم ، كما يزعم من ظلم الله «1» في تعذيب أطفال المشركين بذنوب آبائهم.

[سورة الكهف (18) : الآيات 50 إلى 51]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (50) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (51)

كانَ مِنَ الْجِنِّ كلام مستأنف «2» جار مجرى التقليل بعد استثناء إبليس من الساجدين ، كأن قائلا قال : ما له لم يسجد؟ فقيل : كان من الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ والفاء للتسبيب أيضا ، جعل كونه من الجن سببا في فسقه ، لأنه لو كان ملكا كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله ، لأنّ الملائكة معصومون البتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس ، كما قال لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ وهذا الكلام المعترض تعمد من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم. فما أبعد البون بين ما تعمده الله ، وبين قول من ضادّه وزعم أنه كان ملكا ورئيسا على الملائكة ، فعصى ، فلعن ومسخ شيطانا ، ثم ورّكه «3» على ابن عباس. ومعنى فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ خرج عما أمره به ربه من السجود. قال : فواسقا عن قصدها جوائرا «4»

أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر ربه الذي هو قوله اسْجُدُوا لِآدَمَ. أَفَتَتَّخِذُونَهُ الهمزة للإنكار والتعجيب ، كأنه قيل: أعقيب ما وجد منه تتخذونه وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وتستبدلونهم بى ، بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله ، فأطاعه بدل طاعته ما أَشْهَدْتُهُمْ وقرئ : ما أشهدناهم ، يعنى : أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة ، وإنما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهية ،

(1). قوله «كما يزعم من ظلم الله» لعله بالتشديد ، أى : نسب إليه الظلم. (ع)
(2). قال محمود : «قوله تعالى كان من الجن مستأنف تعليل لفسوقه ... الخ» قال أحمد : والحق معه في هذا الفعل غير أن قوله «تعمده الله تعالى» لفظة لا تروق ولا تليق ، فان التعمد إنما يوصف به عرفا من يفعل في بعض الأحيان خطأ وفي بعضها تعمدا ، فاجتنابها في حق الله تعالى واجب ، والله الموفق.
(3). قوله «ثم ورّكه» أى اتهمه به. (ع) [.....]
(4). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 119 فراجعه إن شئت اه مصححه.

فنفى مشاركتهم في الإلهية بقوله ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لأعتضد بهم في خلقها «1» وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ. وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ بمعنى وما كنت متخذهم عَضُداً أى أعوانا ، فوضع المضلين موضع الضمير ذمّا لهم بالإضلال ، فإذا لم يكونوا عضدا لي في الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟ وقرئ : وما كنت ، بالفتح : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : وما صح لك الاعتضاد بهم ، وما ينبغي لك أن تعتز بهم. وقرأ على رضى الله عنه : وما كنت متخذا المضلين ، بالتنوين على الأصل. وقرأ الحسن : عضدا ، بسكون الضاد ، ونقل ضمتها إلى العين. وقرئ : عضدا ، بالفتح وسكون الضاد. وعضدا ، بضمتين وعضدا بفتحتين : جمع عاضد ، كخادم وخدم ، وراصد ورصد ، من عضده : إذا قواه وأعانه ،

[سورة الكهف (18) : الآيات 52 إلى 53]

وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (53)

يَقُولُ بالياء والنون. وإضافة الشركاء إليه على زعمهم : توبيخا لهم وأراد الجن.

والموبق : المهلك ، من وبق يبق وبوقا ، ووبق يوبق وبقا : إذا هلك. وأو بقه غيره. ويجوز أن يكون مصدرا كالمورد والموعد ، يعنى : وجعلنا بينهم واديا من أودية جهنم هو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركا يهلكون فيه جميعا. وعن الحسن مَوْبِقاً عداوة. والمعنى : عداوة هي في شدتها هلاك ، كقوله : لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا. وقال الفراء : البين الوصل أى : وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكا يوم القيامة. ويجوز أن يريد الملائكة وعزيرا وعيسى ومريم ، وبالموبق : البرزخ البعيد ، أى : وجعلنا بينهم أمدا بعيدا تهلك فيه الأشواط لفرط بعده ، لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان فَظَنُّوا فأيقنوا مُواقِعُوها مخالطوها واقعون فيها مَصْرِفاً معدلا. قال.

أزهير هل عن شيبة من مصرف «2»

(1). قوله «لأعتضد بهم في خلقها» أى لأستعين بهم. (ع)
(2) أزهير هل عن شيبة من مصرف أم لا خلود لباذل متكلف
لأبى كبير الهذلي. والهمزة للنداء. وزهير ترخيم زهيرة اسم امرأة. والاستفهام إنكارى ، أى : لا انصراف عن الشيب أولا مهرب ولا مفر منه. وأم للاضراب الانتقالى والاستفهام الإنكاري ، أى : بل لا ينتفي خلود الكريم الباذل لما عنده المتكلف غير طاقته في قرى الضيفان ، لأن البذل لا يمنع الخلود كأنها كانت لامته على البذل مع الشيب والعقر ، فأجابها بذلك. وفيه دلالة على غاية الكرم.

[سورة الكهف (18) : آية 54]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (54)

أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحدا بعد واحد ، خصومة ومماراة بالباطل. وانتصاب جَدَلًا على التمييز ، يعنى : أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء. ونحوه فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ.

[سورة الكهف (18) : آية 55]

وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً (55)

أَنْ الأولى نصب. والثانية رفع ، وقبلها مضاف محذوف تقديره وَما مَنَعَ النَّاسَ الإيمان والاستغفار إِلَّا انتظار أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ وهي الإهلاك أَوْ انتظار أن يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ يعنى عذاب الآخرة قُبُلًا عيانا. وقرئ «قبلا» أنواعا : «1» جمع قبيل. و«قبلا» بفتحين : مستقبلا.

[سورة الكهف (18) : آية 56]

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً (56)

لِيُدْحِضُوا ليزيلوا ويبطلوا ، من إدحاض القدم وهو إزلاقها وإزالتها عن ، موطئها وَما أُنْذِرُوا يجوز أن تكون ما موصولة ، ويكون الراجع من الصلة محذوفا ، أى : وما أنذروه من العذاب. أو مصدرية بمعنى : وإنذارهم. وقرئ : هزأ ، بالسكون ، أى : اتخذوها موضع استهزاء. وجدالهم : قولهم للرسل ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً وما أشبه ذلك.

[سورة الكهف (18) : آية 57]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (57)

بِآياتِ رَبِّهِ بالقرآن ، ولذلك رجع إليها الضمير مذكرا في قوله أَنْ يَفْقَهُوهُ.

(1). قوله «قبلا عيانا. وقرئ قبلا أنواعا» هذه القراءة بكسر ففتح. والثانية بضمتين ، كما يفيده الصحاح. (ع)

فَأَعْرَضَ عَنْها فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر وَنَسِيَ عاقبة ما قَدَّمَتْ يَداهُ من الكفر والمعاصي ، غير مفكر فيها ولا ناظر في أنّ المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء. ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ،

[سورة الكهف (18) : آية 58]

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (58)
الْغَفُورُ البليغ المغفرة ذُو الرَّحْمَةِ الموصوف بالرحمة ، ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلا من غير إمهال ، مع إفراطهم في عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ وهو يوم بدر لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا منجى ولا ملجأ. يقال :

«و أل» إذا نجا ، و«وأل إليه» إذا لجأ إليه.

[سورة الكهف (18) : آية 59]

وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (59)

وَتِلْكَ الْقُرى يريد قرى الأوّلين من ثمود وقوم لوط وغيرهم : أشار لهم إليها ليعتبروا.

تِلْكَ مبتدأ ، والْقُرى صفة ، لأنّ أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس ، وأَهْلَكْناهُمْ خبر. ويجوز أن يكون تِلْكَ الْقُرى نصبا بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير. والمعنى : وتلك أصحاب القرى أهلكناهم لَمَّا ظَلَمُوا مثل ظلم أهل مكة وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً وضربنا لإهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر. والمهلك : الإهلاك ووقته. وقرئ لِمَهْلِكِهِمْ بفتح الميم ، واللام مفتوحة أو مكسورة ، أى : لهلاكهم أو وقت هلاكهم. والموعد : وقت ، أو مصدر.

[سورة الكهف (18) : الآيات 60 إلى 65]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (60) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (61) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (62) قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (63) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (64)فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (65)

لِفَتاهُ لعبده. وفي الحديث : ليقل أحدكم فتاي وفتأتي ، ولا يقل : عبدى «1» وأمتى.

وقيل : هو يوشع ابن نون. وإنما قيل : فتاه ، لأنه كان يخدمه ويتبعه. وقيل : كان يأخذ منه العلم. فإن قلت : لا أَبْرَحُ إن كان بمعنى لا أزول - من برح المكان - فقد دل على الإقامة لا على السفر. وإن كان بمعنى : لا أزال ، فلا بد من الخبر. قلت : هو بمعنى لا أزال ، وقد حذف الخبر ، لأنّ الحال والكلام معا يدلان عليه. أمّا الحال فلأنها كانت حال سفر. وأمّا الكلام فلأن قوله حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ غاية مضروبة تستدعى ما هي غاية له ، فلا بد أن يكون المعنى : لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين. ووجه آخر : وهو أن يكون المعنى : لا يبرح مسيري حتى أبلغ ، على أن حتى أبلغ هو الخبر ، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم ، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم ، وهو وجه لطيف. ويجوز أن يكون.

المعنى : لا أبرح ما أنا عليه ، بمعنى : ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ ، كما تقول : لا أبرح المكان. ومجمع البحرين : المكان الذي وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام ، وهو ملتقى بحرى فارس والروم مما يلي المشرق. وقيل : طنجة. وقيل : إفريقية. ومن بدع التفاسير : أن البحرين موسى والخضر، لأنهما كانا بحرين في العلم. وقرئ مَجْمَعَ بكسر الميم ، وهي في الشذوذ من يفعل ، كالمشرق والمطلع من يفعل أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً أو أسير زمانا طويلا.

والحقب ثمانون سنة. وروى أنه لما ظهر موسى على مصر مع بنى إسرائيل واستقرّوا بها بعد هلاك القبط ، أمره الله أن يذكر قومه النعمة ، فقام فيهم خطيبا فذكر نعمة الله وقال : إنه اصطفى نبيكم وكلمه. فقالوا له : قد علمنا هذا ، فأى الناس أعلم؟ قال : أنا. فعتب الله عليه حين لم يردّ العلم إلى الله ، فأوحى إليه : بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين وهو الخضر ، وكان الخضر في أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام ، وكان على مقدمة ذى القرنين الأكبر ، وبقي إلى أيام موسى. وقيل : إنّ موسى سأل ربه : أىّ عبادك أحب إليك؟ قال الذي يذكرني ولا ينساني. قال : فأىّ عبادك أقضى؟ قال : الذي يقضى بالحق ولا يتبع الهوى. قال : فأىّ عبادك أعلم؟

(1). متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه به وأتم منه.

قال : الذي يبتغى علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى ، أو تردّه عن ردى. فقال : إن كان في عبادك من هو أعلم منى فادللني عليه. قال : أعلم منك الخضر. قال : أين أطلبه؟ قال : على الساحل عند الصخرة. قال : يا رب ، كيف لي به؟ قال : تأخذ حوتا في مكتل ، فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه : إذا فقدت الحوت فأخبرنى ، فذهبا يمشيان ، فرقد موسى ، فاضطرب الحوت ووقع في البحر ، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت ، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر ، فأتيا الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوبه ، فسلم عليه موسى ، فقال : وأنى بأرضنا السلام ، فعرّفه نفسه ، فقال : يا موسى ، أنا على علم علمنّيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا. فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر : ما ينقص علمى وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر نَسِيا حُوتَهُما أى نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمارة على الظفر بالطلبة. وقيل : نسى يوشع أن يقدّمه ، ونسى موسى أن يأمره فيه بشيء. وقيل : كان الحوت سمكة مملوحة. وقيل : إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكتل ، فنزلا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة ، ونام موسى ، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت. وروى : أنهما أكلا منها. وقيل : توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء سَرَباً أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق ، وحصل منه في مثل السرب «1» معجزة لموسى أو للخضر فَلَمَّا جاوَزا الموعد وهو الصخرة لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه.

ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. وقيل : سارا بعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر ، وألقى على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد ، ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك ، فتذكر الحوت وطلبه. وقوله مِنْ سَفَرِنا هذا إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة. فإن قلت : كيف نسى يوشع ذلك، ومثله لا ينسى «2» لكونه أمارة لهما على الطلبة التي

(1). قوله «في مثل السرب» في الصحاح «السرب» بيت في الأرض. تقول منه. انسرب الوحش في سربه. وانسرب الثعلب في جحره. (ع)

(2). قال محمود : «إن قلت كيف نسى يوشع ذلك ومثله لا ينسى ... الخ»؟ قال أحمد : وقد ورد في الحديث : أن موسى عليه السلام لم ينصب ولم يقل لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، إلا منذ جاوز الموضع الذي حده الله تعالى له ، فلعل الحكمة في إنساء الله تعالى ليوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام لمنة الله تعالى على المسافر في طاعة وطلب علم ، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه ، وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات : أن ييسرها ويحمل عنه مؤنتها ، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة ، وموقع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته بونابينا ، والله أعلم. وإن كان موسى عليه السلام متيقظا لذلك ، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته ، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام إذا قص عليهم القصة ، فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمر بها الناس ، ولكن ليشمر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها عاجلا وآجلا ، والله أعلم.

تناهضا من أجلها ولكونه معجزتين ثنتين : وهما حياة السمكة المملوحة المأكول منها - وقيل : ما كانت إلا شق سمكة - وقياء الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذها في مثل السرب منه؟ ثم كيف استمرّ به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغد ، وحتى طلب موسى عليه السلام الحوت؟ قلت : قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب ، حتى اعتراه النسيان وانضم إلى ذلك أنه ضرى بمشاهدة أمثاله عند موسى عليه السلام من العجائب ، واستأنسا بإخوانه فأعان الإلف «1» على قلة الاهتمام أَرَأَيْتَ بمعنى أخبرنى. فإن قلت : ما وجه التئام هذا الكلام؟ فإن كل واحد من أَرَأَيْتَ وإِذْ أَوَيْنا وفَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ لا متعلق له؟ قلت : لما طلب موسى عليه السلام الحوت ، ذكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية ، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك ، كأنه قال : أرأيت ما دهاني إذ أوينا إلى الصخرة؟ فإنى نسيت الحوت، فحذف ذلك. وقيل : هي الصخرة التي دون نهر الزيت. وأَنْ أَذْكُرَهُ بدل من الهاء في أَنْسانِيهُ أى : وما أنسانى ذكره إلا الشيطان. وفي قراءة عبد الله : أن أذكركه. وعَجَباً ثانى مفعولي اتخذ ، مثل سَرَباً يعنى : واتخذ سبيله سبيلا عجبا ، وهو كونه شبيه السرب. أو قال : عجبا في آخر كلامه ، تعجبا من حاله في رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها أو مما رأى من المعجزتين ، وقوله وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه. وقيل : إن عَجَباً حكاية لتعجب موسى عليه السلام ، وليس بذاك ذلِكَ إشارة إلى اتخاذه سبيلا ،

[سورة الكهف (18) : آية 66]

قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (66)

رُشْداً قرئ بفتحتين ، وبضمة وسكون ، أى : علما ذا رشد ، أرشد به في دينى. فإن قلت : أما دلت حاجته إلى التعلم من آخر في عهده أنه - كما قيل - موسى بن ميشا ، لا موسى بن عمران لأنّ النبىّ يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين؟

(1). قوله «فأعان الالف على قلة الاهتمام» لعل المراد إلف يوشع ، لرؤيته العجائب عند موسى. (ع)
(2). قوله «فرجعا في أدراجهما» الدرج : الطريق ، والجمع الأدراج. ومنه قولهم : رجعت أدراجى ، أى : رجعت في الطريق الذي جئت منه ، كذا في الصحاح. (ع)

قلت : لا غضاضة بالنبي في أخذ العلم من نبىّ مثله : وإنما بغض منه أن يأخذه ممن دونه. وعن سعيد ابن جبير أنه قال لابن عباس : إنّ نوفا ابن امرأة كعب يزعم أنّ الخضر ليس بصاحب موسى ، وأنّ موسى هو موسى بن ميشا ، فقال : كذب عدوّ اللّه «1».

[سورة الكهف (18) : الآيات 67 إلى 68]

قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (68)

نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد ، «2» كأنها مما لا يصح ولا يستقيم ، وعلل ذلك بأنه يتولى أمورا هي في ظاهرها مناكير. والرجل الصالح - فكيف إذا كان نبيا - لا يتمالك أن يشمئز ويمتعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ في الإنكار. وخُبْراً تمييز ، أى : لم يحط به خبرك بمعنى لم تخبره ، فنصبه نصب المصدر.

[سورة الكهف (18) : آية 69]

قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (69)

وَلا أَعْصِي في محل النصب ، عطف على صابِراً أى : ستجدني صابرا وغير عاص.

أولا في محل ، عطفا على ستجدني. رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبرا بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر ، فوعده بالصبر معلقا بمشيئة اللّه ، علما منه بشدّة الأمر وصعوبته ، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق ، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره اللّه بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برئ من أن يباشر ما فيه غميزة في الدين ، وأنه لا بد لما يستسمج ظاهره من باطن حسن جميل ، فكيف إذا لم يعلم.

[سورة الكهف (18) : آية 70]

قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (70)

(1). أخرجه ابن إسحاق في المغازي عن الحسن بن عمارة عن الحاكم عن سعيد بن جبير بهذا. وساق القصة كلها في الصحيحين بغير هذا اللفظ من رواية عمرو بن دينار عن سعيد.
(2). قال محمود : «نفى الاستطاعة على وجه التأكيد ... الخ» قال أحمد : ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار الالتهاب والحمية للحق : أنه قال حين خرق السفينة : أخرقتها لتغرق أهلها ، ولم يقل لتغرقنا ، فنسي نفسه واشتغل بغيره ، في الحالة التي كل أحد فيها يقول نفسي نفسي ، لا يلوى على مال ولا ولد ، وتلك حالة الغرق ، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم ، صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين.

قرئ فَلا تَسْئَلْنِي بالنون الثقيلة ، يعنى : فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت منى شيئا - وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غبي عليك وجه صحته فحميت «1» وأنكرت في نفسك - أن لا تفاتحنى بالسؤال ولا تراجعني فيه ، حتى أكون أنا الفاتح عليك. وهذا من آداب المتعلم مع العالم ، والمتبوع مع التابع.

[سورة الكهف (18) : الآيات 71 إلى 72]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (71) قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (72)

فَانْطَلَقا على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فلما ركبا قال أهلها : هما من اللصوص ، وأمروهما بالخروج ، فقال صاحب السفينة : أرى وجوه الأنبياء. وقيل : عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول ، فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلي الماء فجعل موسى يسدّ الخرق بثيابه ويقول أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها وقرئ : لتغرّق ، بالتشديد. وليغرق أهلها.

من غرق وأهلها مرفوع جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً أتيت شيئا عظيما ، من أمر الأمر : إذا عظم ، قال : داهية دهياء إدّا إمرا «2»

[سورة الكهف (18) : آية 73]

قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (73)

بِما نَسِيتُ بالذي نسيته ، أو بشيء نسيته ، أو بنسياني : أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسي. أو أخرج الكلام في معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان ، يوهمه أنه قد نسى ليبسط عذره في الإنكار ، وهو من معاريض الكلام التي يتقى بها الكذب ، مع التوصل إلى الغرض ، كقول إبراهيم : هذه أختى ، وإنى سقيم. أو أراد بالنسيان : الترك ، أى : لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرّة. يقال : رهقه إذا غشيه ، وأرهقه إياه. أى : ولا تغشني عُسْراً من أمرى ، وهو اتباعه إياه ، يعنى : ولا تعسر علىّ متابعتك ، ويسرها علىّ بالإغضاء وترك المناقشة. وقرئ : عسرا ، بضمتين.

(1). قوله «فحميت» في الصحاح «حميت عليه» بالكسر. غضبت. (ع)
(2) لقد لقى الأقوام منى نكرا داهية دهياء إدا إمرا
النكر : المنكر. والداهية : الحادثة المكروهة من شدائد الدهر. والدهياء : مبالغة في شدتها. والاد : المنكر كل الإنكار. والامر : الشيء العظيم. يقال : أمر الشيء - بالكسر - : عظم ، يصف نفسه بشدة النكاية للأعداء.
ويجوز أن الكلام من قبيل التجريد.

[سورة الكهف (18) : الآيات 74 إلى 75]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (74) قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (75)

فَقَتَلَهُ قيل : كان قتله قتل عنقه. قيل : ضرب برأسه الحائط ، وعن سعيد بن جبير : أضجعه ثم ذبحه بالسكين. فإن قلت : لم قيل حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها بغير فاء؟ وحَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ بالفاء؟ قلت : جعل خرقها جزاء للشرط ، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه ، والجزاء قالَ أَقَتَلْتَ. فإن قلت : فلم خولف بينهما؟ قلت : لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب ، وقد تعقب القتل لقاء الغلام. وقرئ : زاكية ، وزكية ، وهي الطاهرة من الذنوب ، إما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت ، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث بِغَيْرِ نَفْسٍ يعنى لم تقتل نفسا فيقتص منها. وعن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب إليه : كيف جاز قتله ، وقد نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قتل الولدان؟ فكتب إليه : إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل «1» نُكْراً وقرئ بضمتين وهو المنكر وقيل النكر أقل من الإمر ، لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة. وقيل : معناه جئت شيئا أنكر من الأوّل ، لأن ذلك كان خرقا يمكن تداركه بالسدّ ، وهذا لا سبيل إلى تداركه. فإن قلت : ما معنى زيادة لَكَ؟ قلت : زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية.

[سورة الكهف (18) : آية 76]

قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (76)

بَعْدَها بعد هذه الكرة أو المسألة فَلا تُصاحِبْنِي فلا تقاربنى ، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك. وقرى «فلا تصحبنى» فلا تكن صاحبي. وقرئ «فلا تصحبنى» أى فلا تصحبنى إياك ولا تجعلني صاحبك مِنْ لَدُنِّي عُذْراً قد أعذرت. وقرئ : لدني ، بتخفيف النون. ولدني ، بسكون الدال وكسر النون ، كقولهم في عضد : عضد. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : رحم اللّه أخى موسى استحيا فقال «2» ذلك ، وقال : رحمة اللّه علينا وعلى أخى موسى ، لو لبث

(1). أخرج ابو يعلى نحوه وقال في آخره «و كان لك ذلك» وفي رواية له «فقلت ولكنك لا تعلم» فاجتنبهم وأصله في مسلم بغير هذا السياق. وأوله : كتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن قتل الولدان - الحديث» وفيه «و سألتنى عن قتل الوالدان ، فان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يقتلهم إلا أن يعلم منهم ما علم صاحب موسى من الغلام الذي قتله. [.....]
(2). أخرجه ابن مردويه من رواية داود بن أبى هند عن عبد اللّه بن عمير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكر القصة. وفيها «رحمة اللّه علينا وعلى موسى استحيا عند ذلك. فقال إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي - الآية».

مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب «1».

[سورة الكهف (18) : آية 77]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (77)

أَهْلَ قَرْيَةٍ هي أنطاكية. وقيل : الأبلة ، وهي أبعد أرض اللّه من السماء أَنْ يُضَيِّفُوهُما وقرئ : يضيفوهما. يقال : ضافه إذا كان له ضيفا. وحقيقته : مال إليه ، من ضاف السهم عن الغرض ، ونظيره : زاره ، من الازورار. وأضافه وضيفه : أنزله وجعله ضيفه.

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : كانوا أهل قرية لئاما «2». وقيل شر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة ، كما استعير الهمّ والعزم لذلك. قال الراعي : في مهمه قلقت به هاماتها قلق الفئوس إذا أردن نصولا «3»

وقال : يريد الرّمح صدر أبى براء ويعدل عن دماء بنى عقيل «4»

وقال حسان : إنّ دهرا يلفّ شملى بجمل لزمان يهمّ بالإحسان «5»

(1). أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان. من رواية حمزة الزيات. عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى. في أثناء حديث. وأصله في مسلم.
(2). أخرجه النسائي من رواية إسرائيل عن ابن إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، في قوله فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما. قال «كانوا أهل قرية لئاما» وهو في مسلم بلفظ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ لئاما.
(3). للراعي يصف الإبل بأنها في مهمه : أى مفازة ، قلقت : أى تحركت فيه هاماتها : أى رءوسها. قلق الفئوس : أى كتحرك الفئوس جمع فأس وهي آلة الحفر ، إذا أردن : أى الفئوس ، نصولا : أى قربن منه ، فالارل مجاز مرسل ، ونصولها : خروج الحديدة من المقبض. والنصول في كل شيء : الخروج ، والانصال : الإخراج ، ولقد شبه رءوس الإبل مع أعناقها بالفئوس.
(4). الارادة هنا مجاز عن التوجه. ويجوز أن الاسناد مجاز ، لأن المريد صاحب الرمح. والأوجه أنه شبه الرمح بإنسان على طريق المكنية ، وإسناد الارادة والعدول إليه تخييل ، أى : يريد أن يشرب من صدر أبى براء ، لا من دماء هؤلاء.
(5). لحسان بن ثابت ، ولفقت الشيء : طويته وأدرجته ، من باب رد. والشمل. المتفرق ، ويطلق على المجتمع من الأمور. وجمل : اسم محبوبته. ويروى : بسعدى. يقول : إن الدهر الذي يجمع شملى بمحبوبتى لدهريهم بالإحسان ويريده ، وهم من باب رد أيضا ، أى: دهر يريد الإحسان لا الاساءة كعادة الدهر ، فشبه الزمان بإنسان يصح منه إرادة الإحسان على طريق المكنية ، والهم تخييل. ويحتمل أن إسناد الهم له مجاز عقلى كاسناد اللف ، وهما في الحقيقة للّه.

وسمعت من يقول : عزم السراج أن يطفأ ، وطلب أن يطفأ. وإذا كان القول والنطق والشكاية والصدق والكذب والسكوت والتمرد والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعارة للجماد ولما لا يعقل ، فما بال الإرادة؟ قال :
إذا قالت الأنساع للبطن الحق «1»

تقول سنّى للنّواة طنّى

لا ينطق اللّهو حتّي ينطق العود «2»

وشكا إلىّ بعبرة وتحمحم «3»

فإن يك ظنّى صادقا وهو صادقي «4»

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة 181 من الجزء الأول فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2) فاستنطق العود قد طال السكوت به لا ينطق اللهو حتى ينطق العود
لأبى نواس ، شبه صوت العود على وجه الاستقامة والحسن بالنطق بالغناء على طريق التصريحية. أو شبه العود بإنسان على طريق المكنية والنطق تخييل ، والسين والتاء للطلب ، والسكوت ترشيح لذلك ، لأنه ضد التكلف. والمراد بنطق اللهو زيادته وحسنه ، فهو من باب المشاكلة ، وهل هي حقيقة أو مجاز أو كناية أو قسم رابع؟ خلاف بين القوم بين في البيان.
(3) فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي
لعنترة بن شداد من معلقته ، يصف فرسه بأنه ازور أى مال من وقوع الرماح بلبانه ، وهو موضع اللبب من صدره ، وشبهه بالعاقل على طريق المكنية والشكاية تخييل ، والعبرة : البكاء. والحمحمة : صوت الصهيل يشبه الحنين ، لو كان يعلم ما هي المحاورة والمخاطبة لاشتكى إلىّ وخاطبني حقيقة ، وإنما يشكو إلى بالعبرة والتحمحم فقط.
وفسره بقوله : ولكان مكلما لي لو علم الكلام ، وذلك مبالغة في شدة الحرب.
(4) لهفي على القوم الذين تجمعوا بذي السيد لم يلقوا عليا ولا عمرا
فان يك ظنى صادقا وهو صادقي بشملة يحبسهم بها محبسا وعرا
لكنز أم شملة بن برد المنقري ، وذو السيد - بالكسر - : موضع المعركة ، والسيد : الذئب. وقولها «و هو صادقي» اعتراض. وبشملة: متعلق بظنى. تقول : يا تلهفى على القوم الذين اجتمعوا في ذلك الموضع ولم يلاقهم أحد هذين الفارسين ، فقتلوا بردا أبا شملة. فان يك ظنى به صادقا مع أن عادته يصدقني ، يحبسهم شملة في تلك المعركة حبسا صعبا فيأخذ ثأر أبيه. ويجوز أن محبسا ظرف يدل من بها. وشبهت الظن بمن يصح منه الصدق في الخبر على طريق الكناية ، والصدق تخييل لذلك. أو المعنى : فان يك ظنى مطابقا للواقع.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ

تمرّد مارد وعزّ الأبلق «1»

ولبعضهم :

يأبى على أجفانه إغفاءه همّ إذا انقاد الهموم تمرّدا»

أبت الرّوادف والثّدىّ لقمصها مسّ البطون وأن تمسّ ظهورا «3»

قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام اللّه تعالى ممن لا يعلم ، كان يجعل الضمير للخضر ، لأنّ ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم ، أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة ، فتحمل ليردّه إلى ما هو عنده أصح وأفصح ، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز.

وانقض : إذا أسرع سقوطه ، من انقضاض الطائر وهو يفعلّ ، مطاوع قضضته. وقيل : افعلّ من النقض ، كاحمرّ من الحمرة.

(1) وقد قالت الزبا لحصن سموأل تمرد مارد وعز الأبلق
مارد : هو حصن دومة الجندل. والأبلق : حصن سموأل ، قصدتهما الزبا ملكة الجزيرة فاستصعبا عليها ، فقالت ذلك ، وصار يضرب مثلا. وقوله : لحصن سموأل ، أى : ولحصن دومة الجندل. تمرد : صار أملس ناعما ، ومرد مردا ومرودة ، إذا كان أملس لا شعر فيه والمكان لا نبات فيه ، أو تمرد بمعنى تشيطن ، وفعل أهله فعل المردة من الجن ، فهو لا يستطيع أحد طلوعه. وعز إن كان مضارعه بضم العين كان متعديا بمعنى غالب ، وإن كان بكسرها كان لازما بمعنى امتنع. والمعنى : أنها لم تقدر على بلوغ مرادها منهما لشجاعة أهلهما.
(2). للزمخشري. والهم : ما يهتم به ، وهو فاعل. والاغفاء. النوم الخفيف ، وهو مفعول ، وذلك مجاز عن تسبب الهم في منع النوم. وانقياد الهموم : مجاز عن سكونها ، وتمرد الهم مجاز عن تزايده وكثرة خطوره بالبال.
أو شبه الهموم بحيوانات يصح منها الانقياد والتمرد على طريق المكنية ، والتمرد ضد الانقياد ، وهما تخييل.
(3) أبت الروادف والثدي لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا
وإذا الرياح مع العشى تناوحت نيهن حاسدة وهجن غيورا

الاباء : المنع الاختياري فشبه الروادف والثدي لكبرها بمن يصح منه ذلك على طريق المكنية والاباء تخييل.
والأقرب أنه مجاز مرسل ، والمراد به مطلق المنع ، والكلام بعد ذلك كناية عن نهود ثدييها وكبر رد فيها وضمور خصريها. وفيه لف ونشر غير مرتب ، لأن مس البطون يرجع للثدي ، ومس الظهور يرجع للروادف. وعبر بالجمع عن غيره مجازا. أو اعتبر الأجزاء ، فالتجوز في مفرد الجمع. والثدي بالتشديد : جمع ثدي بالتخفيف.
والقمص : جمع قميص. وتناوح الجبلان. تقابلا ، فالمراد بالتناوح : التقابل ، بحيث يجيء بعض الرياح من أمامها وبعضها من خلفها، فتظهر روادفها ونهودها وتلتصق الثياب بخصرها فيظهر ضموره ، فتنبه الحاسدة لها ، ويهيج الغيور لكراهة ذلك من الرياح. وهاج الشيء : هام ، وهاجه : هيمه ، وهيجه : هيمه. وما هنا من الوسط. ويجوز أنه شبه على طريق المكنية. أو شبه أصواتها الليّنة بالتناوح على طريق التصريحية ، ثم جعل ذلك كناية عن تقابلها لأنها إنما يكون لها أصوات إذا تقابلت فاضطربت ، ومع : بمعنى في.

وقرئ : أن ينقض من النقض ، وأن ينقاص ، من انقاصت السن إذا انشقت طولا. قال ذو الرمة :

..... منقاص ومنكثب «1»

بالصاد غير معجمة فَأَقامَهُ قيل : أقامه بيده. وقيل : مسحه بيده فقام واستوى. وقيل : أقامه بعمود عمده به. وقيل : نقضه وبناه. وقيل كان طول الجدار في السماء مائة ذراع ، كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم ، وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة ، فلم يجدا مواسيا ، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً وطلبت على عملك جعلا حتى ننتعش ونستدفع به الضرورة وقرئ : لتخذت ، والتاء في تخذ ، أصل كما في تبع ، واتخذ افتعل منه ، كاتبع من تبع ، وليس من الأخذ في شيء.

[سورة الكهف (18) : آية 78]

قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (78)

فإن قلت : هذا إشارة إلى ما ذا؟ قلت : قد تصوّر فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه ، كما تقول : هذا أخوك ، فلا يكون «هذا» إشارة إلى غير الأخ ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث ، أى : هذا الاعتراض سبب الفراق، والأصل : هذا فراق بيني وبينك. وقد قرأ به ابن أبى عبلة ، فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به.

[سورة الكهف (18) : آية 79]

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (79)
لِمَساكِينَ قيل كانت لعشرة إخوة ، خمسة منهم زمنى ، وخمسة يعملون في البحر وَراءَهُمْ أمامهم ، كقوله تعالى وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ وقيل : خلفهم ، وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره ، فأعلم اللّه به الخضر وهو «جلندى» «2».

(1) يغشى الكناس بروقيه ويهدمه من هائل الرمل منقاص ومنكثب
لذي الرمة يصف ثورا وحشيا. والكناس : بيت الوحش. وروقاه : قرناه. والمنقاص - كالمختار - : المتساقط من جانب طول الكناس. والمنكثب - بالمثلاثة - : المجتمع. وروى : منقاض ، بالمعجمة. والمعنى واحد ، أى :
يحفر الكناس بقرينه ، ليستتر من المطر ، ويهدمه المتساقط المجتمع من الرمل الرخو الهايل. [.....]
(2). قوله «و هو جلندى» : في الخازن : وكان اسمه الجلندى الأزدى ، وكان كافرا. وقيل : كان اسمه حرد ابن برد. (ع)

فإن قلت : قوله فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب «1» ، فلم قدّم عليه؟ قلت : النية به التأخير ، وإنما قدم للعناية ، ولأنّ خوف الغصب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها للمساكين ، فكان بمنزلة قولك : زيد ظنى مقيم. وقيل في قراءة أبىّ وعبد اللّه : كل سفينة صالحة.

[سورة الكهف (18) : الآيات 80 إلى 82]

وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً (80) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (81) وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ

وقرأ الجحدري : وكان أبواه مؤمنان ، على أن «كان» فيه ضمير الشأن فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين طغيانا عليهما ، وكفرا لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ، ويلحق بهما شرا وبلاء ، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره ، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر. أيعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان وإنما خشي الخضر منه ذلك ، لأن اللّه تعالى أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره. وأمره إياه بقتله كاخترامه لمفسدة عرفها في حياته. وفي قراءة أبىّ : فخاف ربك. والمعنى : فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره. ويجوز أن يكون قوله فَخَشِينا حكاية لقول اللّه تعالى ، بمعنى : فكرهنا ، كقوله لِأَهَبَ لَكِ.

وقرئ : يبدّلهما ، بالتشديد. والزكاة : الطهارة والنقاء من الذنوب. والرحم : الرحمة والعطف. وروى أنه ولدت لهما جارية تزوّجها نبىّ ، فولدت نبيا هدى اللّه على يديه أمّة من الأمم. وقيل : ولدت سبعين نبيا. وقيل : أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما. قيل : اسما الغلامين : أصرم ، وصريم. والغلام المقتول : اسمه الحسين.

(1). قال محمود : «إن قلت قوله فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها مسبب عن خوف الغصب عليها ... الخ» قال أحمد : وكأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين ، ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب بذكر عادة الملك في غصب السفن ، وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ثم يوضح المناسبة فيما بعد ، فلا يحتاج إلى جعله مقدما والنية تأخيره ، واللّه أعلم. ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي والمخالفة بينها في الأسلوب عجبا. ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وأسنده في الثانية إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه في قوله فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما وفَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع اللّه تعالى ، لأن المراد ثم عيب ، فتأدب ثم نسب الاعابة إلى نفسه. وإما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور ، فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك : أمرنا بكذا ، أو دبرنا كذا ، وإنما يعنون أمر الملك ودبر ، ويدل على ذلك قوله في الثالثة فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ولم تأت على نمط واحد مكرر يمجها السمع وينبو عنها ، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة ، فسبحان اللطيف الخبير.

واختلف في الكنز ، فقيل : مال مدفون من ذهب وفضة «1». وقيل : لوح من ذهب مكتوب فيه : عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها. لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه «2». وقيل : صحف فيها علم. والظاهر لإطلاقه : أنه مال.

وعن قتادة : أحل الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا ، وحرّمت الغنيمة عليهم وأحلت لنا : أراد قوله تعالى وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ. وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما. وعن جعفر بن محمد الصادق : كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء. وعن الحسين بن على رضى اللّه تعالى عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ اللّه الغلامين؟ قال : بصلاح أبيهما. قال : فأبى وجدّى خير منه : فقال : قد أنبأنا اللّه أنكم قوم خصمون رَحْمَةً مفعول له. أو مصدر منصوب بأراد ربك ، لأنه في معنى رحمهما وَما فَعَلْتُهُ وما فعلت ما رأيت عَنْ أَمْرِي عن اجتهادي ورأيى ، وإنما فعلته بأمر اللّه.

[سورة الكهف (18) : الآيات 83 إلى 88]

وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (84) فَأَتْبَعَ سَبَباً (85) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (86) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (87) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (88)

(1). أخرجه الترمذي والحاكم والبزار والطبراني وابن عدى من طريق مكحول. عن أم الدرداء عن أبى الدرداء وفيه يزيد بن الصنعاني وهو ضعيف.

(2). أخرجه البزار من رواية ابن حجيرة عن أبى ذر مرفوعا بهذا ، وأتم منه. وقال لا نعلمه عن أبى ذر إلا بهذا الاسناد. وروى الدارقطني في غرائب مالك من طريق محمد بن صالح بن فيروز عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال «سئل ابن عباس عن الكنز. فذكره - وقال : هذا باطل عن مالك. وروى ابن عدى. ومن رواية أبين ابن سفيان والطبراني في الدعاء. من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن أبى حازم عن ابن عباس نحوه وعن على مثل لفظ المصنف أخرجه البيهقي في الشعب من رواية جويبر عن الضحاك عن النزال بن سبرة عنه. وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن على مرفوعا. ورواه ابن شاهين في الجنائز. والواحدي من رواية محمد بن مروان السدى الصغير :

عن أيان عن أنس مرفوعا أيضا. وأبان والسدى الصغير متروكان.

ذو القرنين : هو الإسكندر الذي ملك الدنيا. قيل : ملكها مؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان وكافران : نمروذ ، وبخت نصر «1» ، وكان بعد نمروذ. واختلف فيه فقيل : كان عبدا صالحا ملكه اللّه الأرض ، وأعطاه العلم والحكمة ، وألبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة ، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه. وقيل : نبيا. وقيل : ملكا من الملائكة. وعن عمر رضى اللّه عنه أنه سمع رجلا يقول : يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غفرا ما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة. وعن علىّ رضى اللّه عنه. سخر له السحاب ، ومدّت له الأسباب ، وبسط له النور وسئل عنه فقال ، أحبه اللّه فأحبه. وسأله ابن الكوّا : ما ذو القرنين؟ أملك أم نبىّ فقال : ليس بملك ولا نبىّ ، ولكن كان عبدا صالحا ، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة اللّه فمات ، ثم بعثه اللّه فضرب على قرنه الأيسر فمات ، فبعثه اللّه فسمى ذا القرنين وفيكم مثله. قيل : كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه اللّه تعالى. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : سمى ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا «2» يعنى جانبيها شرقها وغربها. وقيل : كان له قرنان ، أى ضفيرتان. وقيل : انقرض في وقته قرنان من الناس. وعن وهب : لأنه ملك الروم وفارس. وروى : الروم والترك. وعنه كانت صفحتا رأسه من نحاس. وقيل كان لتاجه قرنان. وقيل : كان على رأسه ما يشبه القرنين.

ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشا لأنه ينطح أقرانه ، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره. والسائلون : هم اليهود سألوه على جهة الامتحان. وقيل : سأله أبو جهل وأشياعه ، والخطاب في عَلَيْكُمْ لأحد الفريقين مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أى من أسباب كل شيء ، أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه سَبَباً طريقا موصلا إليه ، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة ، فأراد بلوغ المغرب فَأَتْبَعَ سَبَباً يوصله إليه حتى بلغ ، وكذلك أراد المشرق ، فأتبع سببا ، وأراد بلوغ السدّين فاتبع سببا. وقرئ : فأتبع. قرئ : حمئة ، من حمئت البئر إذا صار فيها الحمأة. وحامية بمعنى حارّة. وعن أبى ذرّ : كنت رديف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على جمل ، فرأى الشمس حين غابت فقال. «يا أبا ذرّ ، أتدري أين تغرب هذه؟

فقلت : اللّه ورسوله أعلم «3». قال : فإنها تغرب في عين حامية ، وهي قراءة ابن مسعود وطلحة.

---

(1). أخرجه ابن أبى شيبة من طريق مجاهد. قال «لم يملك الأرض كلها إلا أربعة : مؤمنان ، وكافران فذكره».

(2). لم أجده مرفوعا وإنما رواه الدارقطني في المؤتلف. من رواية عبد العزيز بن عمران. عن سليمان بن أسيد عن الزهري قال : إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها.

(3). كذا في نسخ الكشاف على جمل. والذي في كتب الحديث «على حمار» ولم يصرح فيه بالارداف. عن أبى داود والحاكم من طريق الحكم بن عيينة عن إبراهيم التيمي عن أبيه. عن أبى ذر رضى اللّه عنه قال «كنت مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو على حمار. والشمس عند غروبها فقال : هل تدرى أين تغرب هذه؟ قلت :

اللّه ورسوله أعلم. قال فإنها تغرب في عين حامية» زاد الحاكم غير مهموزة. ورواه ابن أبى شيبة. وأحمد وأبو يعلى والبزار وزاد «و تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش ، فإذا كان خروجها أذن اللّه لها وإذا أراد اللّه أن يطلعها من مغربها حبسها ، فيقول. اطلعى من حيث غربت. فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها» وقال تفرد به سفيان بن حسين عن الحاكم. ورواه الجماعة عن إبراهيم التيمي. وهو في الصحيحين دون قوله «تغرب في عين حامية» وأوله «كنت مع النبي صلى اللّه عليه وسلم جالسا» الحديث.